مكتبة

# عيون ريغيل

## رُوي يَاكوبسن

ترجمة: محمد حبيب

رواية

دار

# عيون ريغيل

الجزء الثالث من حكاية إنغريد

بعد

**1 اللامرئيون 2 بحر أبيض**

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

Rigels øyne
Roy Jacobsen

**عيون ريغيل** - رواية
تأليف: روي ياكوبسن
ترجمها عن النرويجية: محمد حبيب

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
ISBN: 978 - 9933 - 701 - 17 - 8
الطبعة الأولى: 2024

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: 9838
الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، مدينة
الشارقة للنشر - المنطقة الحرة، مركز الأعمال.
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر

جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

© CAPPELEN DAMM AS 2017

روي ياكوبسن

مكتبة
t.me/soramnqraa

# عيون ريغيل

رواية

ترجمها عن النرويجية:
محمد حبيب

This translation has been published with the financial support of NORLA.

# مقدّمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

تبدو بارأوي من السماء مثل دعسة قدمٍ في البحر، وبعض أصابعها المشوّهة تتجه نحو الغرب. لا أحد رأى بارأوي من السماء من قبل، باستثناء ملّاحي الطائرات القاذفة، الذين لم يفهموا ما شاهدوا، والربّ الذي يبدو أن لا هدف له من هذا الختم الذي تركه في البحر هناك.

يتساقط الثلج بغزارة على الجزيرة. يستمر أربعاً وعشرين ساعة، ويحوّلها إلى كرة بيضاء. ثم تبدأ خطوات أهل الجزيرة في رسم دروبٍ سوداء متقاطعة عبر الثلج الأبيض، أعرضها بين بيت المزرعة القديم المتداعِي على قمة الجزيرة، الذي تحفّ به حفنةٌ من الأشجار، والبيت الجديد في كارفيكا، الذي يبدو فخماً وبرّاقاً، وفي الصيف يبدو مثل ورقة سقطت بعيداً عن شجرتها.

تظهر مساراتٌ جديدة بين بيت المزرعة والحظيرة، وبين الأرصفة وسقائف القوارب، بين بُركِ التورف ومخزن البطاطس، وبين البيوت المرتفعة والمَراسِي، بين أماكن العمل وغرف التخزين، ثم يجري سحق هذه المسارات لاحقاً في مجموعة متشابكة من التطريزات المُبتكرة الفضفاضة التي لا معنى لها سوى أنها مسارات لعب وعبور الأطفال بين

تلك الأماكن. ويوجد في بارأوي، في هذه السنة الأولى من السلام، عددٌ كبير من الأطفال لم تشهده الجزيرة من قبل.

باتجاه الجنوب الغربي، يتخلّل المشهد نهرٌ بنّيّ قذر تصنعه وتحدّد مسارَه الأغنامُ التي ترعى الأعشاب البحرية في جنوب الجزيرة. تقودها باربرو، وهي تعرج، مع مِذراتها، وتغنّي بأعلى صوتها، رافعةً وجهها بين نُدف الثلج المتراقصة، ثم تمسحها عن وجهها على إيقاع نغمات أغنيتها.

قد يسأل المرء لماذا لا تسوق الأغنام لترعى بين الرصيف وسقيفة القارب السويدية، وهذه أقصر مسافة بين الحظيرة والبحر. لكنّ باربرو تعرف ما تفعله، فالوقت أواخر الشتاء والأعشاب البحرية كثيرة في الجنوب، وقد التفَّت بعضها على بعض، مثل حبال بنّيّة مسودّة، بسبب العواصف ودحرجة الماء، حتى جاء المدُّ فدفعها فوق السهول وتركها هناك، مثل حبال جليدٍ مخيفة.

تضع باربرو أسنان المذراة بين الأعشاب، وتحرّكها جيئةً وذهاباً، فتنفصل الأعشاب بعضها عن بعض، وهكذا تحصل الأغنام على وجبة نصف متجمّدة. وعندما تشعر بالدفء ويبدأ جسدها بالتعرّق تجلس على جذع الشجرة التي وجدوها على شاطئ الجزيرة، ذاتَ جيل، فرفعوها وثبّتوها بأوتاد وحبال كي لا يجرفها البحر، ويأخذها منهم ثانية، لأنهم أملوا أنها ستكون ذات قيمة في يومٍ ما، وربما تدرُّ عليهم ثروة. ثم تتساءل ما إن كانوا قد اقتنوا أغناماً كثيرة هذه السنة، وما إذا كانت الأغنام، التي تعاني من المجاعة، ستنجح في وضع حملانها في شهرَي نيسان وأيار. هذا ما تشغل نفسها به دوماً في هذا الوقت من السنة – فجميع الفصول لها شجونها حتّى فصل الصيف، إذ يمكن أن يستمر هطل المطر طيلة أشهره الثلاثة.

تشعر باربرو بوخزة حارقة خلف أذنها اليسرى، تمتدّ نازلةً عبر مؤخّرة الرقبة إلى الكتف، وعبر الذراع إلى كفّها المستندة إلى جذع الشجرة. ثم يسري تيّارٌ داخليّ حارق من رأسها إلى كفّها ويخرج من إصبعها الوسطى، التي تتيبَّس فجأة، وتنعقف، كما لو أنها قُدّت من زجاج.

تفتح باربرو عينيها وتدرك أنها مستلقية على ظهرها، وندف الثلج تستقرّ على وجهها، ترمش عيناها وتشاهد الغنمة ليا واقفة بجوارها وهي تحملق في البحر الذي لم يكن أكثر بياضاً في يوم من الأيام، إنه مثل بحر حليب ساكن، ولا طيرَ في السماء، هناك فقط ثلاثة طيور غاق جاثمة بصمتٍ على الشعاب التي سُمِّيت على اسمها.

تدفن باربرو أصابعها في صوف الغنمة الرطب، تتشبّث بها ثم تنهض واقفة. تقف بقية الأغنام وتنظر إليها. تلتقط باربرو المذراة، وتشعر بوخزة ألم طويلة تسري نازلةً عبر وسطها. تقود الأغنام أمامها صاعدةً المسار ذاته إلى المستنقع حيث يقطعون التورف في فصول الصيف. تفتح ثغرةً في طبقة الجليد كي تستطيع الأغنام شرب الماء، ومن ثم يخضن في الثلج واحدةً بعد الأخرى ويصعدن التلة ويتجهن غريزياً إلى الحظيرة.

بعد ذلك تنطلق باربرو، وأصابعها لا تزال ممسكةً بصوف الغنمة ليا، ولا تتركها قبل أن تختفي هي أيضاً في عتمة الحظيرة. تُغلق باب الحظيرة، وتبقى واقفةً شاخصةً ببصرها إلى بيت المزرعة، لكنّها لا ترى اليد التي تلوّح لها من نافذة المطبخ. تستدير وتنزل المسار الذي يقود إلى الرصيف الجديد، تدخل إلى سقيفة الطعوم، وتنظر إلى ثلاثة ثقوب في قعر قفّة أشراك فارغة بينما الريح تهزُّ طاولةً متدليةً من الحائط الجنوبي. تجلس، تتناول إبرةً وخيطاً وتبدأ بحياكة شبكة. ينفتح الباب، ويسألها صوتٌ لماذا هي جالسة هنا؟

«ألا تتجمّدين من البرد هنا؟!».

إنها إنغريد، التي لوّحت لها من وراء نافذة المطبخ وتساءلت لماذا سلكت باربرو المسار النازل إلى الرصيف، رغم أنها غالباً ما تفعل ذلك، لكنّها أطالت المكوث هناك اليوم، فالمساء على وشك الهبوط وباربرو لم تصعد إلى البيت بعد.

تلتفت باربرو، وتنظر إليها بتمعّنٍ، ثم تسأل: «من أنتِ؟!».

تقترب إنغريد وتحدّق إليها، تعيد بعض خصلات شعرها إلى تحت الشال، وتدرك أنها ينبغي أن تأخذ هذا السؤال على محمل الجدّ، وتجيبها بأدقّ التفاصيل.

# - 1 -

إنه صيف عام 1946. لقد جمع سكّان بارأوي ريش العيدر، ووضعوا بيض النوارس في البراميل، جمعوا السمك عن سقالات التجفيف، وزنوه وحزموه، كما زرعوا حقل البطاطس؛ وتركوا الأغنام تسرح في الحدائق، وجرى فصل العجول الوليدة عن أمهاتها. بقي عليهم قطع التورف، وطلاء البيت القديم كي لا يبقى يشعر بالخجل أمام البيت الجديد. وعلى التلّة وراء الحظيرة، تقف إنغريد بارأوي وتنظر إلى الباخرة في الخليج تحت سحابة من طيور الخرشن، إنها باخرة صيد الحيتان، سالتهامّر، التي اشتروها بعد إفلاس مالكها السابق، لقد أصبح سكّان بارأوي صائدي حيتان.

يوجد على مقدّمة سالتهامّر مدفعٌ رمحيّ لصيد الحيتان، وعلى الصاري عشّ غراب أبيض وفي وسطه حزام أسود(*)، وفيها صوارٍ وأشرعة مثل السفن الشراعية، ودفّة قيادة في أعلى الباخرة داخل غرفة القيادة، المحاطة بقماش مشمّع أبيض، كما يوجد فيها حجرة خاصة بالطعوم وخيوط الصيد الحديثة، إنها باخرة قوية لجميع الفصول والمناسبات. تستطيع إنغريد

(*) مأوى أو منصّة مثبّتة على أحد صواري السفينة كمكان يقف فيه من يقوم بالمراقبة والاستطلاع. [المترجم]

أن تسمع أصوات مطارق، وأن ترى لارس وفيليكس اللذين يقومان بالتحضيرات من أجل رحلة صيد الحيتان الأولى، والأولاد الصغار الذين يركضون جيئةً وذهاباً على سطح الباخرة، وتستطيع أن تسمع أصواتهم تعلو وتنخفض فوق البحر، وفي اللفافة وراء ظهرها تنام كايا.

تستيقظ كايا. تُنزلها إنغريد من اللفافة وتتركها تحبو حولها بين نباتات الخلنج حتى تشعر بالملل، ثم تهلع من نظرة عينيها السوداوين، فتحملها بين ذراعيها وتنزل بها إلى الحديقة حيث بدأت براعم التوت بالظهور. تجلس على الغطاء المُحْكم لبراميل الطلاء والفُرُشِ التي اشتروها مؤخراً؛ هناك أعمال كثيرة ينبغي إنجازها في بارأوي، التي لم تعرف مستقبلاً أكثر إشراقاً من قبل، ولم تشهد هذا العدد من السكّان سابقاً، كما أنها لم تعد جزيرتها.

تدخل إنغريد إلى المطبخ، تضع كايا في حضن باربرو، ثم تخرج وتنزل إلى الرصيف. تركب قارباً وتجدّف إلى سالتهامّر. تنتظر حتى يطلّ لارس من فوق درابزين سالتهامّر ويسألها ما إن كانت قد جاءتهم بالقهوة.

تقول إنغريد إنّ لديهم قهوة على متن الباخرة.

يضحك لارس ويقول إنهم قد وجدوا رمّاحاً لصيد الحيتان، وسوف يلتقونه في ترانا خلال أسبوع من الآن، وهذا يتوقّف على الطقس.

تستند إنغريد على المجدافين، وتقول إنّها ستجدّف هذا المساء إلى أدولف في مالفيكا، وستأخذ الطفلة معها.

يسألها لارس عن سبب زيارتها لأدولف.

تهزّ إنغريد كتفيها. فيقول لارس إنه لا مشكلة في ذلك، فلديهم ما يكفي من القوارب.

تعتقد إنغريد أنّ في كلامه مبالغة عن مخزون الجزيرة من القوارب، فتقول إنها قد تغيب لبعض الوقت.

«لا بأس».

يأتي الأولاد أيضاً ويصطفّون بجانب لارس: هانس، ومارتن، ومن ورائهما فريدريك النحيل، الذي نما طوله خلال فصل الشتاء أكثر مما يناسب عمره. يكتشف الأولاد وجود إنغريد، لكنّهم سرعان ما يفقدون الاهتمام ويبدؤون بالنقّ على لارس كي يسمح لهم بالرمي على مدفع الصيد، يمكنهم أن يتدرّبوا بالتسديد على صناديق السمك القديمة.

يضحك لارس ويرفع أوسكار ذا السنوات الثلاث كي يرى إنغريد في قاربها تحت سالتهامّر. تلوّح له إنغريد. ثم يظهر فيليكس، وبين أصابعه الملوّثة بزيت المحرّك الأسود خيوط تنظيف، هكذا يصطفّ رجال بارأوي كباراً وصغاراً مثل لجنة وداع جاهلة على متن مستقبل بارأوي الاقتصادي، بينما تنحني إنغريد ماريا بارأوي فوق المجدافين وتبدأ بالتجديف ثانيةً، وهي تشعر براحة عميقة لأنّ الأمر كان أسهل بكثير مما توقّعت.

تصعد إلى البيت وتخبر باربرو وسوزانا، أيضاً، أنها مسافرة، تقولها وكأنها تخبرهما أمراً يومياً بسيطاً. لكن في عالم النساء هذا تأخذ الأشياء أكبر من حجمها الحقيقي. فتسألها باربرو عن وجهتها، ولماذا، وكم سيطول غيابها؟ لكنّ سوزانا تفهم ما يجري، وتعلّق بازدراء إنّ إنغريد محظوظة لأنّ لديها من تفتقده وتبحث عنه، ثم تخرج لنشر الغسيل على سقالة التجفيف.

تحزم إنغريد الحقيبة الصغيرة التي تأخذها معها في كل مرّة تحاول فيها مغادرة بارأوي. تنزل إلى الرصيف حاملةً الحقيبة بيد، وكايا باليد الأخرى،

وقد وضعتها في كيس من القماش، تضع الكيس على جلد الخروف في مؤخّرة القارب، وتضع الحقيبة في مقدّمة القارب. لم يأتِ لوداعها إلا باربرو، التي تغيّرت الآن، مدفوعةً بإحساسها بخطورة ما تفعله إنغريد. تقف مقاطعةً ذراعيها فوق صدرها، وهي ترتدي فستانها الأزرق السماوي الجديد، من عائدات موسم الشتاء، وعليه زهور بيضاء كبيرة.

تقول باربرو: «كان يُفترض أن نطلي البيت، أليس كذلك؟».

«بإمكانكم فعل ذلك»، تردُّ إنغريد.

تُنقِّل باربرو قدميها بصعوبة وتقول إنه من غير الممكن أن يطلوا البيت دون وجودها. فتضحك إنغريد وتقول إنّ بوسعهم الانتظار حتى تعود.

«حسنٌ»، تقول باربرو، ثم تسأل: «متى ستعودين؟».

«في يوم من الأيام».

تردّد باربرو عبارة «في يوم من الأيام»، وقد شعرت بالإهانة، بينما تناور إنغريد بالقارب حول اللسان البحري الشمالي، ولا تستطيع حمل نفسها على التلويح لباربرو إلا بعد فوات الأوان. في هذا الوقت تكون الشمس في الشمال، بيضاء ومنخفضة، والبحر من تحتها مثل بلاطة رمادية اللون.

## - 2 -

نامت كايا طيلة رحلة العبور. وبعد أن أنزلت إنغريد مرساة القارب، في الصباح الباكر، على شاطئ الجزيرة الرئيسية في مالفيكا، استلقت أيضاً على جلد الخروف بجانب كايا، وكان صراخ النوارس، وقرقرة البحر، وهديل طيور العيدر اللطيف في أذنيها، وملح النعاس في عينيها. نامت واستيقظت وكانت تشعر بالبرد وبالدوار، عندما شمَّت أخيراً رائحة حطب البتولا وشاهدت نافذة تنفتح في جدار بيت المزرعة الأبيض، وطائرَيْ عيدر ينطلقان في هواء الصباح.

انفتح باب الشرفة وخرج منه دانيال وحمّالتا بنطاله تتدلّيان عن جانبي فخذيه، كان يحمل منشاراً في يده، وحبل شدٍّ على كتفه، وهو يسير متكاسلاً باتجاه الغابة. ثم خرجت بعده فتاتان، قدّرت إنغريد أنّ الأولى هي ليليان، أخت دانيال الصغرى، والثانية هي على الأغلب حبيبته... وفي اللحظة ذاتها شعرت بدافع حثيث ومؤلم بأنه من الأفضل لها العودة إلى البيت خالية الوفاض، أن تتراجع عن هذه المغامرة قبل أن تنتهي بنتيجة كارثية.

لكنّهم كانوا قد شاهدوها.

كان دانيال عائداً من الغابة، وهو يجرّ حصاناً، ترك رسن الحصان من

يده ونزل ببطء نحو الميناء، وانتظر حتى نجحت إنغريد في الاقتراب من الرصيف كفاية كي يسمع أحدهما الآخر دون أن يضطرّا إلى الصراخ.

«هذه أنت؟!».

رمت إنغريد حبلَي الرسو، فتناولهما دانيال، سحبهما ووضعهما في المربطين. ثم قال وهو يبتسم مندهشاً: «والطفلة أيضاً؟!».

لم تجد إنغريد الكلمات المناسبة لتردّ عليه، لكنّها نجحت أخيراً في أن تنهض وتحمل كايا النائمة، وانتظرت حتى لاحظ دانيال الحقيبة وحملها إلى الشطّ. فلحقت به وتمتمت إنها تريد التحدّث إلى أدولف. كيف حاله هذه الأيام؟

قال دانيال إنّ والده قد تقدّم به العمر، وسألها: «هل أنت مسافرة؟».

نزلت الفتاتان الآن إلى الرصيف. أرتهما كايا، التي استيقظت وبدأت ترمش بعينيها. ثم صافحت ليليان وعرّفت عن نفسها، لأنهما لم تلتقيا من قبل، فالبحر بينهما، وسكّان مالفيكا مزارعون. بيتهم الكبير بنوافذه الثلاث المقوّسة يتربّع فوق التلة بفخامة، وحوله شجرتان كبيرتان، إسطبلات، حظائر أبقار، ومخازن محاصيل صيفية، مخازن صغيرة، مبقرة وحظائر خراف وماعز، بطاطس للبيع، حقول جزر، دجاج، خنازير، إضافةً إلى ما لا يقلّ عن ستة عمّال مزارعين يعيشون في ستة بيوت وأكواخ منتشرة جنوباً على طول الشاطئ. وعلى الرغم من أنّ أدولف كان في شبابه ربّان باخرة ضخمة، وتاجر سمك، غير أنه، بعد أن فقد اثنين من إخوته في غرق سفينتهم، أدار ظهره للبحر وحوّل مزرعة والده إلى عزبة.

ضحكوا من طريقة ليليان في حمل كايا، التي بقيت صامتة، لكنّها ابتسمت، كما حملتها الفتاة الغريبة، وكانت ابنة أحد المزارعين العاملين

في العزبة، وسمعتهم إنغريد ينادونها مالين. كانوا يتحدّثون عن أنف الطفلة الجميل وعينيها السوداوين عندما انتبهت إنغريد إلى أنّ باب البيت الكبير قد انفتح، مرة أخرى، وخرج منه العجوز أدولف وهو يرتدي قميصاً أبيض وعلى رأسه قبّعة قبطان. جرَّ كرسيّ مطبخ ووضعه على العشب بجانب مصطبة حجرية. جلس على الكرسيّ، أخرج من جيبه غليوناً وراح يملؤه بالتبغ بعناية، بانتظار أن تفرغ الضيفة من الحديث مع الشباب وتصعد إليه وتخبره بالغرض من زيارتها، فلا أحد يجدّف من جزيرة إلى أخرى دون غاية، وغالباً ما تكون مهمّة أيضاً.

بعد أن حلَّ السلام ضمر جسد أدولف واحدودب ظهره، وأصبحت بشرته أكثر حمرةً مما تتذكّر إنغريد. لكن بقيت لديه النظرة الحائرة ذاتها، التي تجعل كلّ من يتحدّث إليه يعتقد أنه يفكّر في إنهاء المحادثة. وقفت إنغريد أمامه الآن وهي عاجزة تماماً عن قول أيّ شيء معقول، وهي لا تزال تحمل الطفلة بين ذراعيها، وبدا أنّ هذا ما كان يتوقّعه أدولف. وبعد مغادرة الشباب، سألها أدولف ما إن كانت جائعة؟

تجاهلت إنغريد السؤال.

بقيا متردّدين. هي واقفة وأدولف جالس. أخيراً، رفع بصره وحدّق فيها، ثم قال إنها بالتأكيد قد جاءت لتسأله عن الرسالة التي أعادها إليها منذ نحو سنة، الرسالة التي أرسلتها مع الروسي الذي كان سجيناً على متن السفينة ريغيل. أليس كذلك؟

«أجل»، قالت إنغريد وسألته لماذا أخذ الرسالة من ألكسندر، الرسالة التي طلبت فيها من الناس مساعدته على الهروب؟

قال أدولف لأنها كانت رسالةً خطيرة، إضافةً إلى أنها قد كتبت فيها اسمها الكامل، وعنوانها، بارأوي، في زمن الحرب!

هزّت إنغريد رأسها وسألته ماذا فعل بالرجل؟

قال أدولف إنّ سؤالها هذا جاء متأخراً جداً.

هزّت إنغريد رأسها مرّةً أخرى.

قال أدولف إنه قد عرف والديها، وكانا طيّبين، غير أنّ أمها كانت مصابة بمرضٍ عصبيّ، أليس كذلك؟

اكتفت إنغريد بهزّ رأسها أيضاً.

بدا أدولف سقِماً من صمتها، وقال إنهم خبّؤوا الروسي في علّيّتهم لأكثر من أسبوع، ولم يعرف بوجوده إلا ماتيا، التي كانت تقدّم له الطعام وعالجت يديه، وقد شُفي جرح فخذه تماماً، غير أنّ أظافره لن تعود إلى حالتها الطبيعية أبداً.

وزوّدوه ذات ليلة ثلجية عاصفة ببوصلة وخريطة وأرسلوه عبر الجبال إلى ميناء إنْ أوير، حيث استقبله أحد أصدقاء أدولف القدامى ونقله على متن سفينة شحن تُدعى مونكيفيورد، سفينة من فينمارك كانت ولا تزال تنقل الحديد، ويمتلك أدولف أسهماً فيها.

وبما أنّ إنغريد لم تكن قادرة على المشاركة في هذا الحديث، ضحك أدولف وقال إنها على الأغلب تتضوّر جوعاً الآن، وسوف يدخلان الآن إلى ماتيا التي لا بدّ أنها تراقبهما من وراء النافذة وقد أعدّت القهوة الآن.

عملت ماتيا في هذا المنزل منذ وقت طويل حتى قبل أن تموت سيّدة المنزل، وأدارت شؤون مطبخٍ من الحجر الرمليّ تفوح منه رائحة القهوة

والصابون، يتلألأ بطلائه الزاهي وأواني النحاس المصقولة حديثاً، حتى المقبض النحاسي لقضيب الموقد كان متلألئاً، وصندوق الحطب يبدو كمعرضٍ للحطب. كانت من عمر أدولف تقريباً، صغيرة الحجم، نحيلة ومقوّسة الساقين، يداها خشنتان، وتلبس على رأسها وشاحاً أزرق محكم الشدّ لدرجة أنه بدا مثل خوذة.

بعد أن تلقّت تحيّة إنغريد، نقلت بصرها بسرعة نحو أدولف، وتبادلا نظرة سريعة طُلب من إنغريد إثرها أن تجلس.

ثم طلبت منها ماتيا الوقوف «هناك بجانب النافذة»، عند رأس الطاولة كي تتمكّن من إلقاء نظرة متفحّصة على كايا. تفحّصتها جيّداً، وربّتت بإصبعها المعقوفة على ذقنها ونالت منها ابتسامة، ثم تبادلت بضع نظرات سريعة مع أدولف الذي قال، كأنما إنغريد غير موجودة: «نعم هذا هو».

أطلق أدولف زفرة ارتياح فوق غطاء الطاولة، وقال إنه لم ينظر إلى الطفلة عن كثب هناك في الخارج في أشعة الشمس، وإنه لم يعد يثق بنظره، لكن ما دامت ماتيا واثقة، فهو واثق أيضاً. وهذا ما كانت متأكّدة منه إنغريد.

سألت إنغريد ما إن كان سكّان القرية يتناولونها بالقيل والقال؟

«دعيهم يثرثرون!»، قال أدولف ووضع في فمه قطعة سكّر.

قالت ماتيا: «هم بحاجة إلى شيء يثرثرون فيه»، ثم أضافت وكأنْ ليس لديهم سوى سيرة إنغريد يثرثرون فيها، خصوصاً أنّ الحرب التي حطّت أوزارها مؤخّراً قد فعلت الويلات بالبلد والبشر.

نظرت إليها إنغريد مستفسرة.

فقال أدولف إنّ الناس قد عرفوا بالطفل، لكنّهم لم يعرفوا الرجل، وحتى دانيال لم يعرف قصة الروسي.

«وقبطان السفينة؟» -قالت إنغريد- «قبطان مونكيفيورد؟».

قال أدولف بهدوء إنّ هذا يتوقّف على ما أخبره به الروسي عن نفسه. لكن الآن ينبغي أن تأكل الخبز والزبد ولحم الخروف المشوي. وقالت ماتيا، كأنها قد اكتشفت وجود الطفلة من جديد: «يا لها من طفلة جميلة!».

«أجل، أجل!»، قال أدولف.

سألتها ماتيا ما إن كانت تُرضِعُها.

استجمعت إنغريد قواها وشرحت لها كيف أنّ حليب صدرها قد انقطع في الربيع، وقبلت ممتنّة عرض ماتيا في تسخين بعض الحليب لكايا. أعطت كايا قطعة خبز لتمصّها، ونزعت عنها وشاح الرأس ومرّرت إصبعها على أسنانها الناتئة حديثاً. كما نزعت عنها جاكيتها أيضاً قبل أن يصل الحليب إلى الطاولة، وهي تصغي إلى سؤال أدولف عن هدفها الحقيقي من هذه الرحلة، لأنه كان لا بدّ الآن من طرح هذا السؤال الذي أصبح أكبر من أن يحتمل أدولف كتْمَه. مكتبة سُر مَن قرأ

سألته إنغريد ما إن كان يعرف أين غادر ألكسندر السفينة؟

«في كونغسموين»، قال أدولف.

فسألته إنغريد لماذا في كونغسموين؟

«لأنها الطريق الأقصر إلى السويد»، قال أدولف، ثم أضاف إنّهم قد شقّوا طريقاً عبر الجبال هناك من أجل بناء خطّ «تلفريك» إلى المجمّع الصناعي في منطقة اسمها سكوروفاس، سينقلون منها كمّيات هائلة من الجليد الكبريتي، إنه عصر جديد، فقد حلّ السلام والبلد يستعيد مستقبله.

سألته إنغريد ما إن كان يعتقد بأنّ ألكسندر قد سلك ذلك الطريق للوصول إلى السويد؟

قال أدولف إنه غير متأكّدٍ، لكنّ الخطّة كانت تقتضي ذلك. فارتابت إنغريد في أنّ أدولف كان يطبخ لها كذبةً بيضاء.

طلبت منه إنغريد إخبارها بما يعرفه.

قال أدولف، الذي يمتلك خبرة حياة طويلة في التعبير عن أفكاره بطريقة موارِبة، إنّ إنغريد ترتكب خطأً كبيراً إذا كانت تجلس هنا إلى هذه الطاولة وتخطّط للّحاق بألكسندر، وإنه من الجنون أن تلقي بنفسها في مثل هذه التجربة.

قال ذلك دون النظر في عينيها، وبدا مرتاحاً أكثر منه مستسلماً عندما صمتت إنغريد بطريقة لا يمكن ترجمتها إلا بأنها قد حسمت أمرها مسبقاً، أو أنها قد قرّرت في هذه اللحظة أنه لا عودة إلى الوراء بعد الآن.

في لحظة الصمت الحاسمة هذه، تدخّلت ماتيا وقالت إنها بدأت العمل في هذا المنزل منذ أن كانت شابّةً صغيرة، في الخامسة عشرة، وبحسبة بسيطة يظهر أنه زمن طويل جداً، ولذلك على إنغريد التفكير جيّداً قبل أن ترتكب أي حماقة.

قالت إنغريد إنها قد أمعنت التفكير في الأمر طيلة فصل الشتاء، وهي تعتقد أنّ طول النهار في الربيع والصيف الآن سيجعل الرحلة أقل صعوبة.

حدّقت ماتيا في إنغريد، فردّت إنغريد بنظرة مماثلة. قالت ماتيا إنّ الحب مخادع. فردّت إنغريد إنها تعرف ذلك.

تحدّثوا عن السلام، وعن التغييرات العميقة في بارأوي منذ أن كان دانيال هناك في الخريف الماضي وقام بعمل كبير، فقد أعاد بارأوي إلى ما كانت عليه بعد إهمالها لفترة طويلة، تلك المعجزات الصغيرة التي تسمح

لبارأوي أن تزدهر ثانيةً بعد كارثة أصابت السمك، والبشر، والأرض، والحيوانات. لقد أراد أدولف معرفة أدقّ التفاصيل، بضمن ذلك ما أصاب باربرو، التي طالما كانت روضة هذا البحر.

قالت إنغريد إنّ عمّتها باربرو قد تعافت من تلك الجلطة الدماغية، وإنها استعادت النطق ثانية، واستعادت وعيها لذاتها والآخرين من حولها، وكل شيء، لكنّها لم تعد راغبة في ركوب البحر، أصبحت تخافه.

قال أدولف إنّ لله حكمةً في ما يهبنا وفي ما يأخذ منا، وما قد يبدو على الأرض محيّراً وعديم المعنى قد يكون عظيم الشأن في السماء.

بدا الأمر بالنسبة لإنغريد أجوفَ ومدمّراً، لكنّها يمكن أن توافق على أنّ باربرو التي كانت روضة هذا البحر أصبحت بحكم غير الموجودة، وقد كان هذا أحد الأسباب في أنّ إنغريد موجودة الآن هنا في الخطوة الأولى من هذه الرحلة - لقد فهمت جلطة باربرو الدماغية كأمارة، لا يمكن تجاهلها، على أنّ الزمن قصير والحياة هشّة. فكّرت إنغريد في ذلك لكنّها لم تنطقه. ولم تُفصح عن دافعها الأهمّ أيضاً، وهو أنه كلّما كبرت كايا، ازداد سواد عينيها وأصبحت نظراتها أكثر إفصاحاً.

بعد أن وُضعت الأمّ وطفلتها، بمنتهى الرعاية واللطف، في أفضل غرف البيت، التي طالما كانت شاغرة، وهذا بسبب غنى أدولف على رأي ماتيا؛ جلست إنغريد على السرير العريض ونظرت عبر النافذة إلى بارأوي، كما يُفترض أنّ ألكسندر قد جلس هنا في ذلك اليوم ونظر إلى المشهد ذاته. لكن حينئذٍ كان الوقت شتاءً وليلاً، والوقت الآن صيف مضيء. سمعت طرقاً على الباب.

لم تعتد إنغريد أن يطرق أحدٌ باب غرفتها. سمعت الطرق مرّةً أخرى، فقالت نعم. دخلت ماتيا ولاحظت أنّ كايا تنام في السرير الصغير تحت النافذة، فجلست على السرير بجانب إنغريد. لكن لم يكن لدى ماتيا، مثل إنغريد، ما تقوله عن سبب زيارتها هذه. بقيتا صامتتين، وخطر لإنغريد أنه لا بدّ أن تكون هذه المرأة العجوز قد فوّتت الفرصة ذات يوم من حياتها، دون أن تدرك ذلك حينئذٍ، وأنها تجلس الآن هنا وتتأمل في ذلك بعمق. تنهّدت ماتيا، نهضت وقالت إنها لا يمكن أن تبقى جالسة هنا، تمنّت لإنغريد ليلة سعيدة، ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها بهدوء.

## - 3 -

في الصباح التالي، وبعد أن تناولت الطعام، انطلقت إنغريد في رحلتها عبر الجبال باتجاه الجزيرة الرئيسية، كانت الطريق وعرة، فقد تراكمت الثلوج طوال فصل الشتاء وذابت في أواخر فصل الربيع، عندئذٍ اعتبرها سكّان الجزيرة أمارةً على اقتراب الصيف، وكانت السراخس الصغيرة تدغدغ أرجل المشاة. عندما لاحظت إنغريد المسار الذي لا يمكن أن تُخطئه العين، شعرت بإحساس يتصاعد من أخمص قدميها إلى الغيوم السابحة فوقها، وكان رأسها يدور.

لم تكن إنغريد وحدها، مثل ألكسندر، بل رافقها دانيال وليليان والفتاة الصغيرة مالين. حتى أدولف وماتيا جاهدا في صعود هذه الطريق الوعرة، وهما يحثّانها بصمت على التوقّف عن البحث عن إبرة في كومة قشّ. لكنّ ماتيا كانت أكثر غموضاً، وغارقة في أفكارها. عندما صافحتهم مودّعة عند قمّة الطريق شعرت إنغريد أنها قوية. وقد حصلت على مؤونة في كيس قماشيّ ربطه دانيال على حقيبتها، التي زوّدها بأشرطة جلدية لتستطيع حملها على ظهرها. لم تلتفت إنغريد إلى الوراء بعد أن بدأت في نزول الطريق باتجاه الجزيرة، وكانت كايا تنام في لفافة فوق بطنها.

شربت إنغريد من كلّ الينابيع التي مرّت بها، أكلتا مرّتين قبل أن تصلا إلى بحرٍ جديد، ونامتا ليلتين في كوخ صيّادين فتحه لهما أحد أصدقاء أدولف. بعدئذٍ ركبتا قارب صيد بناءً على رسالة من أدولف، وقد شاهدت إنغريد مفعولها في قسمات وجه القبطان، الذي كان قصيراً، ضخماً وقليل الكلام، هزّ رأسه بفتورٍ للمسافرتين، وأعطاهما قمرته لياناما فيها، لأنّ بوسعه النوم في قمرة الصيّادين التي ينتمي إليها أصلاً، كما قال. لكنّه لن يستطيع أن يأخذهما أبعد من رورفيك جنوباً، وهناك ستنتظر إنغريد من يبحر بها عبر الفيورد(*) إلى كونغسموين، فهذا الفيورد طويل جداً، كما قال لإنغريد، لأنه يشطر البلد إلى شطرين تقريباً.

نعم، هذه هي الخطّة، فكّرت إنغريد وهي واقفة على سطح القارب تتلفّت حولها وترى الجبال المألوفة لديها، ومجموعة الجزر الصغيرة التي كان يطويها الأفق وراءها واحدةً بعد الأخرى دون أن تترك في نفسها أدنى أثر من الكآبة. حتى كايا كانت تراقب بعينيها الروسيّتين الهادئتين هذا العالم الذي كانتا على وشك مغادرته، هذا العالم الذي كان عالمهما الوحيد حتى هذه اللحظة.

بعد ثلاث ليالٍ في رورفيك، قضتاها في كوخ آخر للصيّادين، كانت إنغريد تُمضي الوقت بالمشي على رصيف الميناء وكايا في اللفافة على ظهرها أو أمام بطنها، رست السفينة مونكيفيورد أمام الرصيف، وكانت محمّلة بأبراج التلفريك، التي ترتفع شاهقةً فوق سطح السفينة كلّها

(*) الفيورد: مضيق بحري، عبارة عن وادٍ على شكل حرف U مع جبال عالية على جانبيه. [م]

وتجعلها تبدو مثل عشّ طائر عقعق حديدي عائم. صعدت إنغريد على متن القارب ومعها رسالة أخرى من أدولف، وسلّمتها إلى رجل ضخم أصلع من فينمارك يُدعى إميل ريمالا، فقال إميل ريمالا: «أوه أدولف، نعم، أدولف العجوز!»، ثم قرأ الرسالة مرّتين بتمعّن قبل أن يطويها ويعيدها إلى إنغريد، كما لو أنها لم تُمسّ.

سألته إنغريد ما إذا كان هناك أيّ خطأ.

«كلّا، بتاتاً!»، قال ريمالا.

لكن عندما شاهد عيني كايا بدا أقل ثقةً بكثير من ماتيا وأدولف. ولم يُبدِ أيّ ردّة فعل عندما طلبت منه إنغريد أن يُنزلها في المكان نفسه الذي أنزل فيه الروسي.

«الروسي؟!».

«أجل».

«هل كان من سجناء ريغيل؟».

«نعم».

«أوكّيه!»، قال ريمالا بإنكليزية أميركية. سألته إنغريد، التي لم تتبادل خلال الأيام الثلاثة الماضية إلا بضع كلمات لطيفة مع رجل في مكتب الميناء في رورفيك، عن رأيه في مغامرتها، كما لو أنها قد بدأت تفقد الإيمان في قضيتها، أو أنها تريد معرفة ما إذا كان لدى ريمالا ما يمكن أن يقوله، فقد كان وجهه محايد التعابير يقلقها.

قال ريمالا إنّ مغامرتها هذه تعنيها وحدها.

فسألته ما الذي يتذكّره من رحلته في الشتاء الماضي، من لقائه مع رجلها الروسي؟

«رجُلُكِ؟!».

«نعم، رَجُلي».

قال ريمالا إنها لم تكن المرة الأولى التي ينقل فيها لاجئين على متن قاربه، فقد ساعد في إخلاء كلّ سكّان فينمارك، سكّان بلدته، وقد كان ذلك الشتاء معتماً وتعيساً، ومن يستطيع أن يميّز بين وجوه أولئك الناس؟ لكنّه رغم ذلك يتذكّر الروسي، هذا إن لم يكن يتظاهر بأنه روسي، لأنه عندما غادر القارب في كونغسموين، شكره بفيض كلمات لم يفهم ريمالا منها شيئاً، لكنّه لم يصافحه، فقد كان يرفع يديه أمامه كما لو أنه يعتذر عن مصافحته، وقد بدت يداه أشبه بقدمين.

قالت إنغريد: «نعم، ذلك هو رجلي. لكن لماذا سيتظاهر بأنه روسيّ إن كان من جنسية أخرى؟!».

«ربما لأنه كان ألمانياً» -قال ريمالا- «هارب».

سألته إنغريد ما إن كان سيقبل بنقل هاربٍ على قاربه؟

«نعم»، ردّ ريمالا دون تردّد. فأَرَتْه إنغريد مرّةً أخرى وجه كايا، التي نظرت بدهشة إلى صلعته اللامعة. قابل ريمالا نظرتها بابتسامة مراوغة.

شكرته إنغريد.

«على ماذا؟» سألها ريمالا.

قالت إنغريد لأنّ مساعدة لاجئ روسي في زمن الحرب عقوبتها الإعدام، ولذلك يستحقّ شكراً كبيرة. ابتسم ريمالا بتواضع وقال إنها من الأفضل أن تتحدّث إلى رفيقه، ألف، فهو الذي أعطى ذلك المسكين الطعام، وشاركه المنامة في قمرته.

لم يكن ألف إيساكسين الشاهد المُرتجى الذي تبحث عنه إنغريد، فهو لم يكن غير متعاون مثل ربّان السفينة وحسب، بل متبرّماً أيضاً من نقّ إنغريد المستمر. لكن لاحقاً، في المساء، حول طاولة الطعام في حجرة الأكل، تذكّر ألف أيضاً يدَي الروسي. حتى إنه استغرب من معنويات الروسي العالية، كما أنه لم يجد مبرّراً لسعادته الغامرة عندما وقف وحده في منتصف الشتاء على قمّة جبل على بعد ستة كيلو مترات أو سبعة من الحدود، تلك الرحلة المستحيلة التي ربما تبعد دهراً عن أقرب منطقة مأهولة في السويد، «لماذا كان سعيداً إلى هذه الدرجة؟».

«ربما لأنه على قيد الحياة»، قالت إنغريد.

قال ألف إنه كي تخرج حيّاً من رحلة في ثلوج عمقها متر على الأقل من كونغسموين إلى السويد، فأنت بحاجة إلى عون من الله والبشر، وإلا فمصيرك الموت المحتّم. وفكّرت إنغريد في أنه كي يحصل المرء على المساعدة لا بدّ أن يتحدّث إلى أحد يريد أن يتذكّر، مثلها، مثل ريمالا وألف، ولذلك كانت ممتنّة ليَدَيْ الروسي، اللتين كانتا مفيدتين عندما عجزت عينا كايا عن التذكير به.

وسألت ألف لماذا هو مستاء.

نظر إليها بدهشة وقال إنه ليس مستاءً، بل مذهولاً من مجرّد تفكيرها في أنها يمكن أن تعثر من جديد على رجل اختفى خلال الحرب، فهذا أشبه بتمشيط قعر المحيط. عندئذٍ توقّفت إنغريد عن طرح الأسئلة.

عند منتصف الليل تقريباً، سمعت إنغريد القبطان والبحّار يتشاجران بصوتٍ عالٍ على سطح القارب، كان شجاراً عادياً. وفهمت أنهما يتحدّثان

عنها، ريمالا يصرخ بلكنته الفينماركية من باب قمرة القيادة إنه لا خيار أمامهما سوى أن يتركاها تذهب، بينما يجيبه ألف بصوت أخفض، لكن ليس أقل قوّة، إنهما يرتكبان بذلك إثماً كبيراً بحقّ المرأة والله معاً.

«فلتذهب إلى الجحيم أنت وإلهك!»، قال ريمالا.

«والطفلة، الرضيعة، وكلّ ذلك من أجل الغبيّة المخمورة...».

خفتت الأصوات، وذهب الرجلان، لكنّ إنغريد لم تستطع النوم، استلقت وهي تتلفّت حولها في القمرة التي نظّفها لها ألف، بينما وقفت هي تتفرّج عليه دون أن تساعده. كما رتّب لها السرير الوحيد في القمرة. السرير الذي كانت تفوح منه إلى جانب رائحة الصابون رائحة الديزل، والوقود، ورائحة عرق ذكورية حامضة. وعلى حاجز السرير عُلّق منشور عن الحظر اليهودي، ورُسمت فوق المنشور العديد من الصلبان السوداء، وإلى جانبه كانت هناك قصاصة ورق صفراء تشرح طريقة توصيل بطاريات سيّارات على التسلسل. وبين تلك الملاحظات ثقبٌ أزرق لم تستطع إنغريد رفع بصرها عنه قبل أن تتناغم ضربات قلبها مع هدير المحرّك.

# - 4 -

كان الفيورد يمتدّ مثل حزام رمادي بين جبال خضراء شديدة الانحدار، وذات صباح بارد رست مونكيفيورد في كونغسموين تحت مطر غزير يهطل عمودياً مثل ملاءة بيضاء تحجب الجبال والغابات والقرى.

كانت إنغريد قد استعدّت، ألبست كايا وحملتها في اللفافة وراء ظهرها. خرجت إلى سطح السفينة وهي تحمل حقيبتها باليد اليسرى، وشكرت ريمالا وألف، اللذين كانا ينتظرانها بالقرب من المعبر الخشبي. وقفت أمامهما على أمل أن يقولا شيئاً، توضيحاً، على الأقل، حول شجارهما في تُلك الليلة، لكنّهما بقيا واقفين كلٌّ ينظر في اتجاه دون أن ينطقا حتى كلمة وداع.

نزلت إنغريد من السفينة، وسارت تحت المطر على رصيف طويل مهجور، والتجأت إلى متجر عامّ تعلوه لافتة صدئة غير مقروءة، في نهاية مستودع غير مطليّ. وقفت هناك مبلّلة تماماً، أمام باب مزوّد بجرس صغير، وحدّقت في ماء المطر الذي كان يجري مثل الجيلاتين فوق زجاج النافذة المتّسخ، وشعرت بغضب غريب، كما لو أنّ القبطان والملّاح في

مونكيفيورد قد سلبا منها شيئاً، وأنها، نتيجةً لذلك، تقف هنا خائرة القوى مثل إنسان عديم النفع، حتى قبل أن تبدأ رحلتها.

سمعت نحنحة وراءها، فخطت جانباً مفسحةً الطريق لرجل عجوز خرج وسار تحت المطر. سمعت صوت الجرس فوق الباب، وسمعت بعده صوتاً من داخل المتجر. التفتت وشاهدت امرأة أكبر منها عمراً، قويّة وممتلئة، تلبس ثياباً بيضاء، وقد غطّى الطحين يديها وساعديها. كانت تنحني فوق طاولة زجاجية مخدوشة، وهي تفرك أصابعها بعضها ببعض كأنها تعدّ نقوداً، وكانت عيناها الباهتتان تحدّقان في الفراغ دون أن تبديا أيّ اهتمام بالوافدين الجدد. لكنّها على الأقل استوت واقفة وشدّت قامتها عندما دخلت إنغريد.

اقتربت إنغريد منها، وعرّفت بنفسها وبمهمّتها الغامضة. طال الحديث وتخلّلته عبارات الاستهجان، وكلمات الاستفهام بلهجتين مختلفتين قبل أن تفهم إنغريد أنّ هذه المرأة لا تتذكّر أيّ هاربين من الحرب في السنة الماضية، ولا أولئك الذين نزلوا على الشاطئ هنا ليكملوا رحلتهم على طول طريق التلفريك الحديث باتجاه سكوروفاس ومن هناك إلى السويد. حتى إنها لم تستطع أن تصدّق، حتى لو جاء بعضٌ منهم، أنهم كانوا سيسلكون هذا الطريق، ذلك أنّ خطّ التلفريك أقامته شركة ألمانية تُدعى بلايشرت، وكانت الجبال مكتظّة بالألمان، لذلك إن كان قد جاء لاجئون إلى هنا فلا بدّ أنهم سلكوا الطريق على طول الفيورد باتجاه الساحل، أو جنوباً باتجاه هويلاند. أليس كذلك؟

«لكن تينك الطريقين لا تقودان إلى السويد. أليس كذلك؟»، ردّت إنغريد.

«هذا صحيح»، قالت المرأة.

وضعت إنغريد حقيبتها على الأرض، جلست عليها وراحت تجفّف كايا، التي ابتسمت وكانت بعض قطرات الماء ما زالت عالقة على رموشها. بدا أنّ المرأة فكّرت في شيءٍ ما، فجاءت من وراء الطاولة وقالت إنّ اسمها ليلي، ثم وضعت يدها على رأس كايا وسحبتها بسرعة، وعادت إلى وراء الطاولة واختفت عبر باب مروحي بقي يتحرّك وراءها. ولم تعد إنغريد تسمع سوى صوت المطر.

بعدئذٍ سمعت صخب أصوات من الغرفة الخلفية، صرخات غاضبة وضحكاً عصبياً. عادت ليلي، وقالت بصوتٍ عالٍ إنّ إنغريد والطفلة مبلّلتان كلّياً، ثم ناولتها منشفة، وسألتها ما إن كانت ترغب ببعض القهوة؟

قبلت إنغريد العرض ممتنّةً، وسألت ما إن كان بوسعها الجلوس بالقرب من المدفأة؟

أومأت ليلي برأسها، وقالت إنها اضطرّت إلى إشعال المدفأة هذا الصباح، في هذا الصيف التعيس، ثم ذهبت لتحضر كرسياً.

جلست إنغريد على الكرسي، ووقفت ليلي بجانبها.

سألتها إنغريد عن أماكن أخرى في القرية حيث يستطيع المرء شراء طعام. فهمت ليلي سؤالها، وذكرت لها اسم المطعم في موقع المنجم، واسم مخزن في إحدى الثكنات، وأسماء مخازن أخرى في القرى أيضاً، لكنّها لم تسمع عن غريب تناول الطعام هناك، وهي على دراية بمعظم ما جرى ويجري في هذه القرية، فهي تعمل وراء هذه الطاولة منذ أن كانت فتاة صغيرة.

«لكنّ ذلك حدث في زمن الحرب»، قالت إنغريد.

ردّت ليلي: «أجل، وربما امتنع الناس قليلاً عن الكلام»، ثم صحّحت كلامها قائلة: «أو بالأحرى أنهم تكلّموا أكثر، لكنّهم كانوا يتكلّمون همساً».

ثم ابتسمتا.

سألت إنغريد ما إن كانوا قد وجدوا جثثاً في الجبال خلال السنوات الماضية.

قالت ليلي إنها غير متأكّدة، وإنه ربما وقعت حالات وفاة عرضية في موقع العمل، لكن لا وفيّات كبيرة. كلّا، فهي لم تسمع شيئاً من هذا القبيل.

أحضرت كوبَيْ قهوة ووضعتهما على سطل شراب، وبقيت واقفة مكانها، بينما كانت نظرات عينيها الباهتتين تستعيدان ألقهما. ثم ذهبت وأحضرت كرسيّاً، وجلست عليه بالقرب من إنغريد. كلّا، لم تسمع ليلي أبداً عن ريغيل، وتساءلت ما إن كانت إنغريد حقاً قد تركت بيتها وجزيرتها من أجل أن تبحث عن رجل، رجل تكاد لا تتذكّر شكله؟

فقالت إنغريد بصوتٍ عالٍ إنها تتذكّره جيّداً.

«حسنٌ، حسنٌ!»، قالت ليلي وتمتمت بأنها أرادت أن تتمنّى لها النجاح في مهمّتها، إن كانت فيها سعادتها، لكنّها هي لا تجرؤ على ذلك.

سألتها إنغريد ماذا تقصد. فقالت ليلي إنها أملت في الكثير خلال حياتها، لكنّ أيّاً من آمالها لم يتحقّق. وفي تلك اللحظة نظرتا إحداهما في عيني الأخرى وبقيتا على تلك الحال، حتى أخفضت إنغريد بصرها، واكتشفت أنّ غضبها قد زال.

سألتها ليلي أن تخمّن عمرها.

«عمركِ أنتِ؟».

«نعم».

«ماذا تقصدين؟».

«هل تستطيعين أن تخمّني كم سنة عمري؟»، قالت ليلي مُقلّدةً لهجة إنغريد. شعرت إنغريد أنّ الجواب قد يكون مستفزّاً، فقالت إنه من المحال أن تعرف. قالت ليلي إنه جواب جميل جداً، وراحت تحرّك يدها المغطّاة بالطحين جيئةً وذهاباً فوق ركبتها اليمنى، كما لو أنها تتأمل في فكرة جميلة خطرت لها فجأة، وكأنها بدأت تدرك أنّ هذا اليوم لن يكون مثل الأيام الأخرى، وأنّ كل تلك الأيام الخوالي كانت طويلة جداً.

## - 5 -

بقيت إنغريد جالسةً بالقرب من الموقد بينما يدخل الزبائن على نغمات جرس الباب وصريف أحذيتهم الرطبة مختلفة الأنواع، يتمتمون ببعض الكلمات لليلي الواقفة وراء الطاولة، يحصلون على طلباتهم، ثم يسترقون النظر إلى إنغريد وكايا التي تحبو على الأرض من حولها، وموسيقا المطر لم تتوقّف.

كان المكان يعبق برائحة الفحم والطحين، ورائحة اللبن الحامض المختلطة مع رائحة العرقسوس وسمك الرنجة والكافور. وإنغريد جالسة وفي حضنها الخريطة التي أخذتها من أدولف، لكنّها لم تفتحها بعد. ودفتر الرسم المدرسي القديم، لتسجّل على صفحاته الأربع الأخيرة الفارغة، الملاحظات وبعض المعلومات المهمّة التي يمكن أن تحصل عليها، وأسماء الأماكن والأشخاص مثل ألف إساكسين، وإميل ريمالا، الشاهد الذي لا يتذكّر شيئاً. لكنّها لم تعد تنظر إلى رسوماتها المدرسية القديمة، فهذه قد أصبحت وراءها، رغم أنها لا تزال تُقلقها.

دخل المكان رجلٌ كبير في العمر، خلع قبّعته تحيّةً لهما وبقي ممسكاً بها في يده، وقال إنه رئيس العمّال في شركة خطوط التلفريك.

«آه، فهمت»، قالت إنغريد، ثم حملت كايا، ولم تكن بحاجة إلى سرد القصّة من جديد، فقد فعلت ليلي ذلك. نظر إلى الطفلة باهتمام، ثم أنعم النظر فيها وبدا أنه يفكّر، غير أنه هزّ رأسه وقال إنه لم يرَ أبداً مثل هاتين العينين. وأضاف إنه لم يسمع قطّ بشيء يمتّ بصلة لما سمعه من ليلي منذ قليل، ولا عن تحطّم السفينة أيضاً، ولا عن هذا الروسي، ولا ما يشبه ما هي مُقدمة عليه، على قدر معرفته. لكنّه يتمنّى لها التوفيق من كلّ قلبه، وإنه يودّ أن يشدّ على يدها إن سمحت له، ثم قام بما يشبه انحناءة تعزية لبقة قبل أن يضع القبّعة على رأسه ثانيةً ويخرج ثم يختفي في المطر.

رفعت إنغريد بصرها بنظرة استفسار إلى ليلي، التي هزّت كتفيها.

عندما حان موعد وجبة الغداء، جاءت ليلي بقليل من الحليب، ومزيدٍ من القهوة وطبق فطائر حلوة، كما لو أنها استسلمت لفكرة أنّ ضيفتها قد جاءت لتبقى. بعد أن أكلتا، سألت ليلي إنغريد ما إن قد حسمت رأيها.

«حسمت رأيي بخصوص ماذا؟».

التزمت ليلي الصمت.

تركتها إنغريد تحمل كايا، عندما لاحظت أنها راغبة في ذلك، وامتلأت النافذة وراءهم بالضوء الذي حوّل قطرات بخار الماء إلى بريق وهي تذوب ببطء أكثر مما تستطيع العين ملاحظته، حتى عاد الزجاج متّسخاً كما كان، فكّرت إنغريد أنّ كلّ هذا الماء لم يغسله، وعاودها ذلك الشعور من أيام الحرب، الذي كان يتملّكها كلّما شعرت أنها متّسخة. عندئذٍ انفتح الباب، وظهر رئيس العمّال من جديد، وقف أمامهما وسأل دون مقدّمات ما إن كانت إنغريد توافق أن تبيعه حقيبتها؟

«الحقيبة؟».

«نعم، إنها مصنوعة من الجلد، وأقفالها نحاسية».

قالت إنغريد إنّ هذه حقيبة والدتها، وقد استعملتها كل نساء بارأوي عندما كنَّ يغادرن الجزيرة.

فقال الرجل إنه لا يمكنها المشي في الجبال وهي تحمل هذه الحقيبة، إنها بحاجة إلى حقيبة ظهرٍ، مثل هذه، وقال إنه سيعطيها عشرين كروناً أيضاً، إضافةً إلى حقيبة الظهر. «هل توافقين؟».

نظرت إنغريد إلى حقيبة الظهر، التي كان قد وضعها عند قدميها، فتحتها، وتفحّصت جيوبها الفارغة، كانت رمادية اللون ومصنوعة من شراع قارب ولها غطاء من الجلد البنّيّ، وكذلك غطاء للجيبين الجانبيين، وحزاما كتفٍ يمكن ضبطهما بالطول المناسب لها. نظرت إنغريد إلى ليلي، التي عادت لتقف وراء الطاولة الزجاجية مرّةً أخرى، وصاحت من هناك إنّ على الرجل أن يدفع لإنغريد أربعين كروناً.

«أنا لا أملك هذا المبلغ»، قال الرجل.

«بل تملكه!»، قالت ليلي بامتعاضٍ.

هزَّ الرجل رأسه وخرج. وبعد فترة قصيرة رنَّ الجرس ثانيةً، ودخل الرجل وقال: «ثلاثين كروناً وحقيبة الظهر. هل توافقين؟!».

نقّلت إنغريد نظرها بين حقيبتها وحقيبة الظهر، ثم نظرت إلى وجه شخص لن تفهمه أبداً - وقالت: أقبَل.

بعد أن غادر الرجل مع الحقيبة، عرضت ليلي على إنغريد النوم في غرفة فوق المتجر، وهكذا يستطيع ابنها أن يدلّها على الطريق صباحاً، ورغم أنه لا يخرج من البيت بتاتاً، لكن لا خيار أمامه الآن، لأنها ستتكفّل

بإقناعه. إنهما يعيشان وحدهما الآن في الجهة الأخرى من المتجر، وليلي ممتنّة جداً لكونها قادرة على النهوض من سريرها والدخول مباشرةً إلى المتجر والعودة منه دون أن تبتلّ قدماها بمياه الأمطار.

سألتها إنغريد كم يبلغ ابنها من العمر.

كانت ليلي على وشك أن تجيبها، غير أنها ابتسمت وكأنها قد سمعت نكتة، وسألت إنغريد ما إن كانت تفكّر في أن تخدعها. ابتسمت لها إنغريد ابتسامة حيرى وقالت إنها لم تعرف ماذا كان عليها أن تفعل.

«بلى تعرفين، وتعرفين جيّداً»، قالت ليلي.

ثم قالت إنها ستخبر إنغريد سرّاً - فقد بقيت أرملة لسنوات طويلة، لكنّها وخلال الحرب وجدت رجلاً آخر. غير أنها تركته أيضاً.

نظرت إليها إنغريد مستفسرة.

«لقد كان عديم النفع»، قالت ليلي.

«أفهمك»، قالت إنغريد.

«لم يكن من هذه المنطقة»، أضافت ليلي: «لقد كان ألمانياً».

هزّت إنغريد رأسها.

مسحت ليلي وجهها بيدها، فعلق بعض الطحين منها على رموشها، وطلبت أن تحمل كايا مرة أخرى. وافقت إنغريد.

رفعت ليلي كايا عالياً، وبدت أنها تبكي، ثم قالت إنها تعتقد أنّ حفّاضة كايا ثقيلة جداً، وسألت إنغريد ما إن كانت قد غيّرت لها حفاضتها؟ لم تردّ عليها إنغريد، واكتفت بالتحديق فيها.

مدّدت ليلي كايا على الطاولة الزجاجية وبدّلت لها حفّاضتها،

وحرصت على ألّا تلوّثها بالطحين العالق على يديها، وقالت لإنغريد إنّ ما أخبرتها به للتوّ لم تخبره لأيّ مخلوق آخر قبلها، وإنها لن تفعل ذلك أبداً، رغم أنها تظن أنّ جميع سكّان القرية يعرفون قصّتها، ثم أضافت إنه لا شيء يسعد الأطفال الصغار مثل إحساسهم بالحفّاضات الجافّة.

أعادت كايا إلى أمّها، كأنها تعطيها هدية مغلّفة، وقالت إنّ السنة الماضية كانت الأقسى عليها رغم أنها أملت أن تكون السنة الأفضل. قالت إنغريد إنها فهمت جيّداً ما قصدته ليلي، وأخبرتها كيف وجدت ألكسندر في علّيّة الحظيرة في بارأوي، مثل فقير مدقع عثر على كنز، وعن الأيام التالية والليالي التي يعجز أيّ كلام عن وصفها، والتي لن تمّحي من ذاكرتها أبداً، ثم صمتت فجأةً. رمشت ليلي وغرقت في أفكارها قليلاً، ثم قالت إنها في كل الأحوال تتمنّى التوفيق لإنغريد من أعماق قلبها، رغم أنّ الأمور قد أصبحت أكثر صعوبةً الآن.

## - 6 -

يمشي البشر بطرائق مختلفة، ومشت إنغريد ماريا بارأوي بخفّة بحذائها البحري، حقيبة الظهر على ظهرها، وكايا فوق بطنها في اللفافة ذاتها، التي ثبّتتها الآن بالأشرطة التي كان دانيال قد ربطها على الحقيبة التي لم تعد ملكها الآن، حقيبة بارأوي الرائعة التي انتقلت ملكيّتها الآن إلى رئيس عمّال شركة بناء خط التلفريك الأطول في البلد. لم تعرف إنغريد اسمه كي تسجّله في دفتر رسوماتها المدرسيّ، الذي سجّلت فيه اسم ليلي. وأمامها عبر الغابة كان يمشي شابٌّ صامتٌ، بدين ويعاني من صعوبة في التنفّس، لم ترَه من قبل، إنه كارل ابن ليلي.

بعد نحو كيلومترٍ من السير، شعرت إنغريد أنهما كانا يسيران في الاتجاه الخطأ، فسألت كارل إلى أين يأخذها. اكتفى كارل بالإشارة إلى منحدر لطيف كثير الخضرة، ثم هزّ رأسه كأنه يُقنع نفسه بذلك، قبل أن ينطلق متابعاً سيره في الاتجاه الخطأ ذاته. وكان برفقتهما كلبٌ كبير بلون القطران، يمشي عند قدمي إنغريد، كأنه يحرسها.

عندما دخلا بين تلّتين، أصبح الطريق أضيق والغابة أكثف. توقّفت إنغريد مرةً أخرى ورفضت متابعة التقدّم، ثم أشارت باتجاه الشمس حيث

يجب أن يوجد البحر أيضاً، الذي يستطيعان بصعوبة أن يرَيا مياهه المتلألئة من خلال أوراق الأشجار.

نظر إليها كارل من فوق كتفه وسألها ما الذي تعرفه عن استخدام الشمس لتحديد الاتجاهات؟

كان عصبياً ومتوتّراً، كشخصٍ مهتاجٍ يبحث عن شيء يعرف أنه غير موجود. وكلّما توقّف ليلتقط أنفاسه، كان يدسّ أصابعه في فراء الكلب، الذي يقعي فوراً على قائمتيه الخلفيتين، بحيث يستطيع كارل أن يستند إليه كعكّاز.

أخبر إنغريد، وهو يلهث متعباً، عن قساوة حياة البحّار، وأنه تعرّض للقصف مرّتين، كما أخبرها عن ليالي الشتاء التي قضاها في البحر على طوف دون طعام أو ماء، وعن رفاقه الذين ماتوا، وأنه منذ أن عاد إلى البيت لم يخرج إلى الغابة لأنها تذكّره بالبحر، وأنّ الحرب قد أتلفت الاثنين معاً، وسألها كيف ترى الغابة؟

تلفّتت إنغريد حولها، وللمرّة الأولى في حياتها كان مجال رؤيتها ضيّقاً بهذا الشكل.

عندئذٍ لم تستطع أن تعترض عندما تابع سيره في الاتجاه الخطأ حتى توقّفا عند ضفاف بركة ماء دائرية الشكل كأنها عينٌ في الأرض، وأوراق الأشجار تتدلّى فوق ضفافها مثل حاجبٍ كثٍّ. كان المكان عابقاً برائحة التنّوب، والعرعر، والتربة الرطبة. وصلا إلى موقع تخييم نما فوقه العشب، ووجدا فيه موقداً، وبقايا كوخ بدا أنه من صنع طفلٍ. فقال كارل إنهما ينبغي أن يجلسا، فسألته إنغريد ما الذي سيفعلانه هنا.

قال إنهما سينتظران أحد أصدقائه.

سألته إنغريد ما إن كان هو مَنْ سمعت صوته يوم أمس من الغرفة الخلفية في المتجر، فقال كارل نعم، فهو يجلس هناك ويقرأ الجرائد التي يبيعونها. ثم قال إنّ إنغريد لن تعثر على روسيًّها، هذا إن كان صحيحاً ما روته أمه له يوم أمس عن نجاة الروسيّ عندما تعرّضت السفينة للقصف، لأن لا أحد ينجو من قصفٍ كهذا.

سألته إنغريد ما إن كان قد سمع شيئاً عن ريغيل.

قال إنه لم يسمع بها، لكنّ غرق السفن متشابه.

سألته إنغريد ما إن كان لديه عمل.

«كلّا».

«ألا تساعد أمّك في المتجر؟».

أجل، عند الضرورة قد يحمل لها صندوقاً، أو يدحرج بعض البراميل.

وعندما لم يعد لدى إنغريد ما تسأله عنه، سألته عن اسم الكلب. فقال إنه ليس له اسم، وإنها ينبغي أن تتوقّف عن الأسئلة الفضولية.

انحنت إنغريد لتمنح كايا فرصة لمس الكلب، الذي لحس يدها، فضحكت كايا. بدا أنّ كارل قد تذكّر شيئاً، فنهض وراح يركض في المكان، وتبيَّن أنه قد وجد ما كان يبحث عنه، فتوقّف وسحب صندوق أحذية من جحرٍ تحت جذر شجرة، فتح الصندوق وأخرج منه، منتصراً، سكّيناً بغمدٍ، وحجر شحذٍ، وبعض خطاطيف صيد الأسماك. قال إنه قد حصل على السكّين من جدّه، وقد عثر عليها أخيراً. ولاحظت إنغريد أنّ السكّين متقنة الصنع وثمينة، وأنّ غمدها من الفضة. فسألته ما إن كان قد جاء بها إلى هذا المكان لهذا السبب، من أجل السكّين؟

«كلّا» قال كارل، فقد كانا هناك لينتظرا في صمت.

بعد قليل سمعا وقع خطوات في الغابة. ثم ظهر شخصٌ أمامهما، رجلٌ نحيل وأكبر عمراً من كارل. لم ينظر الرجل إلى إنغريد، لكنّه جلس بينهما على جذع الشجرة، وبرطم باستياء واضح مع كارل.

نهضت إنغريد ووقفت أمامهما مباشرة.

بدا لها أنّ الوافد الجديد فلّاح، وكان يلبس بنطال جينز أزرق، وجزمة سوداء طويلة. ولحيته الرمادية الطويلة تستقرّ فوق صدره مثل ربطة عنق، ولم تنظر عيناه الغائرتان إلى أيٍّ منهما عندما قال إنّ عاصفة ثلجية ستهبّ الليلة في الجبال، وإنّ كلّ ما يعرفه هو أنه ما كان ينبغي لكارل أن يطلب منه المجيء إلى هنا.

بقي كارل وإنغريد صامتين.

وقف الكلب بين ركبتي الغريب، الذي ربَّت على رأسه، ثم قال وهو ينظر إلى فرائه الأشعث إنه قد حذّر الروسيّ من محاولة الذهاب عبر الجبال بعدما أنزله طاقم السفينة في عجالة على الشاطئ، لأنهم خافوا انكشاف بضاعتهم المهرّبة، فقد كانوا يهرّبون شحنةً كبيرة من الكحول، وعلى الرغم من ذلك فقد أصرّ الروسيُّ على الذهاب، لكن على الأقلّ كان معه بعض الطعام.

«لقد أصرَّ على الرحيل»، قال مشدّداً كأنه يدفع عن نفسه جريمة.

سألت إنغريد كارل ما إذا كانت أمه تعرف هذا؟

«كلّا، لا تعرفه».

«وكيف تأكّدتَ من ذلك؟».

قال كارل إنه قد حصل على الكلب من هذا الرجل، الذي كان يعمل مفتّش تفريغ على رصيف الميناء، وهو صديق قديم لوالده. وقال مفتّش

التفريغ إنه لا أحد ينجو من الشتاء في الجبال لا سيّما في العواصف الثلجية. ثم ختم إنه يريد العودة إلى القرية.

طلب منه كارل أن يخبر إنغريد عن الطريق الذي سلكه الروسي.

«طريق كابل التلفريك».

«أواثق أنت من ذلك؟».

«نعم».

تمتم ببضع كلمات وداع فوق رأس الكلب، ثم نهض واختفى. وقطع الصمت بينهما ظلُّ طائرة مرَّ فوق ماء البركة، وكان أشبه بحشرة كبيرة اختفت في الغابة في اللحظة التي سمعا فيه هدير الطائرة، وسأل كارل إنغريد عمّا تنوي فعله.

قالت إنغريد إنها ستتابع طريقها، وليس أمامها خيارٌ آخر.

هزَّ كارل رأسه، وضع السكّين بغمدها تحت زنّار خصره، أعاد الأشياء الأخرى إلى الصندوق وأعاده إلى الجحر، حمل حقيبة إنغريد على ظهره، وبدأ السير حول البحيرة.

تبعته إنغريد صاعدةً تلّة أخرى ثم نزلا إلى وادٍ عريض. عبرا مستنقعاً تغطّيه أعشاب قطنية تتمايل مع ريح لا يشعران بوجودها، وعندما وصلا إلى طريقٍ ليست للاستعمال البشري، بل مجرّد ممرّ ضيّق عبر الغابة، أعطاها كارل الحقيبة وأشار باتجاه قمة التلّة.

شكرته إنغريد. فقال مودّعاً إنه بصرف النظر عمّا تفعله أو قد تجده، سيكون الأمر أسوأ إن هي عادت إلى البيت، لأنه لا أحد يعود إلى البيت. نظر إليها النظرة الأخيرة، ثم استدار وغادر.

رافقها الكلب، الذي لا اسم له، في صعود المنحدر حتى سمع صوت

صفيرٍ حادٍّ، توقّف، نظر إلى إنغريد ثم اختفى مقتفياً خُطا كارل، الذي كان قد اختفى أيضاً في تضاريس المكان.

جلست إنغريد بين الخلنج، ونامت كايا. تمدّدت إنغريد ثم غطّت في النوم أيضاً، نامت دون أن ترى ذلك الثقب الأزرق في إطار سرير سفينة مونكيفيورد، ودون أن تشمّ رائحة الديزل والعرق، أو أن تسمع أصوات الرجال المنفعلين على سطح السفينة المعدني المبلّل بالمطر. وعندما استيقظت، كانت طبقة الغيوم قد ارتفعت. رأت قرية كونغسموين بوضوح في أسفل الوادي، كما رأت سفينة تشبه مونكيفيورد تقطر وراءها مروحة بيضاء صغيرة عبر هذا الفيورد اللانهائي.

# - 7 -

على جانبي الطريق إلى التلفريك شاهدت جذوع أشجار قُطعت حديثاً، مثل أسنان ضخمة مقتلعة، وكانت تحفّ بها أشجار تنّوب خضراء مائلة إلى اللون الرمادي، وتُطلق نفثاتٍ صغيرة من غبار الطلع الأصفر. مشت إنغريد في هواء بحريّ، جافّ ومعتدل الحرارة، وشربت من كلّ الينابيع التي كان خريرها يكسر السكون، واستمعت إلى أنفاس الغابة رغم غياب الريح، وزقزقة عصافير لم تسمعها من قبل، وهشّت البعوض والذباب بعيداً عن وجه كايا، وفكّرت كيف كان المشي هنا في فصل الشتاء، في العاصفة الثلجية. وأخذت أثناء سيرها تبحث عن جثث وبقايا بشر، عن شيء لم ترغب في إيجاده بأيّ حال من الأحوال، واستمتعت بالمشي، كما لو أنّ إخفاقها في رؤية أيّ أثر يقرّبها من هدفها أكثر.

شاهدتا عمّالاً، هنا وهناك، يلبسون ثياباً سوداء والبخار يتصاعد من أجسادهم، وهم إمّا منهمكون في صبِّ أساسات إسمنتية، وإمّا يرفعون أبراجاً حديدية ويجرّونها بواسطة الأحصنة والجرّارات وأيديهم العارية، رجالٌ يحملون أفران صهرٍ قابلة للنقل، وأحواض خلط إسمنت، ومجارف، ومطارق ثقيلة، رجال من كلّ الأعمار ومن كلّ أرجاء البلد، رجال فرحوا

بهذا التغيير المحبّب لدى ظهور المرأة المفاجئ وسط اللامكان، وهي تحمل طفلة في لفافةٍ على بطنها.

جفّفوا عرقهم، أشعلوا سجائرهم ثم نظروا إلى كايا وهزّوا رؤوسهم، لم يتذكّروا أيّ هارب روسيّ. حتى الذين كانوا منهم هنا منذ أيام شركة بلايشرت الألمانية لم يتذكّروا أنهم قد شاهدوا روسياً. كما أنهم لم يجدوا قطّ بقايا أحياء، لا حيوانية ولا بشرية. وحدث أن كانت إجاباتهم هي دوماً السؤال ذاته: «ما الذي يدفع هارباً لاختيار هذه الطريق في الوقت الذي كانت فيه مكتظّة بالألمان؟».

استمعوا إليها بتهذيب، وقدّموا لها طعاماً وقهوة، وهكذا لم تضطرّ إلى استهلاك الزوّادة التي أعطتها لها ليلي، كما لاطفوا الطفلة ودغدغوها في جوّ من المرح الخالص.

تابعت إنغريد سيرها ولم تجد الشيء الذي لم ترغب قطّ في العثور عليه، كما أنها لم ترَ طيوراً مفترسة ولا حتى غرباناً. ولم يتذكّر فريق العمل الثاني، الذي التقت به، أيّ هارب لا الروسيّ ولا غيره، كما أنهم لم يشاهدوا جثثاً أو بقايا مخلوقات في الجبال. لكنّهم تعاطفوا معها، وتمنّوا لها النجاح في مسعاها، من أعماق قلوبهم.

نامت إنغريد وكايا تحت غطاء من الصوف في ليلة باردة، لا حشرات فيها، على أعلى قمّة في الجبال، من ورائهما في الأسفل كان رتلٌ مستقيم من الأعمدة الجديدة يتقاطع في نهايته مع الأفق، ولا شيء آخر أمامهما في هذا المدى الفسيح.

نامتا في الليلة التالية فوق تبنٍ قديم في حظيرة في نامدالين، وفي اليوم

التالي التقتا مجموعة عمّال أخرى لطيفة، لم تتذكّر شيئاً أيضاً، نقلوهما معهم في دلوٍ لنقل المواد الخام، فوق نهر ساكنٍ كالزجاج الأخضر. ومن هناك تابعتا سيرهما شرقاً، تجاوزتا محطة فينكل الأولى وسارَتا في وادٍ مليء بأشجار تنّوب شاهقة ومتراصّة مثل حاجزين أسودين عن جانبي ما سيصبح لاحقاً مسبحة أبانا الأفقية في رقصة أبدية فوق السهول، بستمئة دلوٍ معلّقة بين مئة وسبعين عموداً، وتمتدّ قرابة ألف متر عبر غابة تبدّل مكوّناتها من شجر التنّوب إلى شجر الصنوبر، دون أن تلاحظ إنغريد ذلك، ثم إلى شجر البتولا، الذي كان يصبح أقصر فأقصر ويتحوّل في النهاية إلى صفصاف، وعرعر، وخلنج، دون أن تلاحظ إنغريد ذلك أيضاً، لأنّ المشهد أمامها أخذ يزداد اتساعاً كلّما ارتفعت في صعود الجبل - ولم تجد شيئاً أيضاً.

سارت والشمس في وجهها، ثم انعطفت إلى اليمين فأصبحت الشمس مثل موقدٍ حارٍّ في ظهرها، ودخلت مجمّع التعدين في سكوروفاس مساء اليوم الثالث من رحلتها. كانتا الآن فوق جبل أجرد ما زالت تغطّيه بعض الثلوج بين الصخور والأكمات العشبية القصيرة. كانت إنغريد متعرّقة وخدرة، لكنّها ما تزال تسير بخفّة؛ فلهذه الرحلة دافعها الخاص، وقد اكتسبت هويّتها المستقلّة، وإنغريد تبحث عن الحب، وكانت لحسن الحظ لا تزال غير مدركة أنّ الحقيقة هي أوّل ضحايا السلام.

## - 8 -

سُمح لهما بالنوم على فراش في مخزن ڤيلّا في مراحل الإكساء النهائية، وفي الصباح استيقظتا على صخب المطارق. أمضت إنغريد النهار تتحدّث إلى سكّان القرية في مدينة تناضل للقيام من الرماد. شمّت رائحة الخشب الأبيض المنشور حديثاً، ورائحة القطران، والطلاء، والإسمنت؛ بلدة تعداد سكّانها ستمئة نسمة أو سبعمئة، فيها مدرسة، ومستشفى، ومركز بريد، وكنيسة صغيرة، ومحطة توليد كهرباء، وورشات عمل وإسطبلات، ومغاسل ووحدات إنتاج، إنه حلم وطنيّ على وشك أن يصبح حقيقة، حلم مدوّخ، مُسكِرٌ ومليء بالتحدّي، ولأول مرة في حياتها تعرف إنغريد الشعور بالرفاه، هذا ما يبدو عليه الرفاه الحقيقي، هذا ما يبدو عليه المستقبل، في بلد غنيّ.

وهنا أيضاً نظروا إليها كمفاجأة من زمن انتهى لحسن الحظّ، كشخصٍ لا معنى لما يقوم به - «روسي؟!».

كلّا، لم يسمع به أحد.

كان الناس هنا لطيفين ومستمعين جيّدين أيضاً. وسمعت منهم قصصاً مربكة، ومتناقضة، لا يمكن أن تكون قد حدثت في البلد ذاته. وحصلت

على فرصة للاستحمام في مغسل حديث، وغسلت ثيابها وحفّاضات كايا في متجر أرملٍ قويّ، كثير الكلام، في العقد الرابع من العمر، يُدعى ألفريد بنيامينسن، ويتحدّث لهجتها أيضاً، كان أمراً يبعث على الضحك، لمجرّد التفكير في أن تلقاه هنا.

«يسعدني لقاؤكِ»، قال ألفريد، وبدا أنه أخذ حكايتها عن ريغيل والروسيّ كمزحة ثقيلة، فالقصّة التي ترويها إنغريد صعبة التصديق.

تحدّثا عن معارف مشتركين بينهما، هناك على الساحل الشمالي، وربما استعرضا الفروقات بين موطنيهما، بارأوي وجزيرة أخرى تبعد عنها قليلاً، حيث عاش ألفريد طفولته. لكن كلّما أغرقا في التفاصيل بدا ألفريد أكثر مراوغة وضبابيّ الذاكرة، حتى توقّفت المحادثة تماماً، وشعرت إنغريد أنه قد يكون لديه، أيضاً، ما يخفيه، مثل إميل ريمالا وألف إيساكسين على سفينة مونكيفيورد.

بعد أسبوع من وجودها في البلدة أسرَّ لها ألفريد بنيامينسن، بعد انتهاء دوام المتجر، وبعد بضعة كؤوس من الكحول، أنّ بلدة سكوروفاس هي في حقيقة الأمر المخبأ الذي التجأ إليه، أو بالأحرى هي بداية جديدة في الحياة، وحتى هنا يجد نفسه مضطراً لإخفاء الكثير عن ماضيه، مثل أنه كان يبيع السمك للألمان إبان الحرب وأنه قد جمع ثروة من تلك التجارة، وهذا يُثقل ضميره، في وقت السلم الآن.

قالت إنغريد إنّ أحد معارفها، وهو صائد حيتان، كان يبيع السمك للألمان، أيضاً.

لم يعلّق ألفريد على ما قالته إنغريد.

شرب المزيد من الكحول من الزجاجة التي يخفيها على رفّ داخلي من طاولة المتجر الأمامية. وكان شعره يبدو مثل القشّ الجاف تحت المطر، فقد كان يدهنه بمادة دهنية، علّق لها ملصقَيْ دعاية أمام باب المتجر، إلى جانب ملصق التبغ، وكرات السمك، وعلب الكبريت، ومشدّات مُدعّمة للسيّدات البدينات. وكان عدد النساء في البلدة كبيراً جداً، وهو ينادي الجميع بلقب سيّدة، وكان دائم التحرّش بهنّ، فهو يعيش فقداً عميقاً، كما فهمت إنغريد، عندما أطلق العنان للسانه، قبل أن يغطّ في النوم فوق أريكة مموّجة، تشغل المكان كلّه تقريباً، في الغرفة الخلفية من المتجر، بينما جلست إنغريد تحدّق فيه مدهوشة.

فكّرت في أن تغطّيه ببطانيّة، لكنّها غيّرت رأيها في اللحظة الأخيرة، حملت كايا، النائمة، وذهبت لتنام في مخزن القيلّا، وفكّرت في اليوم الأخير الذي قضته مع الروسي، في الصالة الشمالية في بارأوي، وهما يعرفان أنّ فراقهما حتميّ، لكنّهما لم يكونا قادرين على ذلك حينئذٍ، في ذلك اليوم الحاسم، يوم انقلب اتجاه عقارب الساعة، اليوم الذي دفعها إلى هذه الرحلة، ولا بدّ أن تعترف أنها أُصيبت بنكسة مريرة على متن السفينة مونكيفيورد، لكنّها تجاوزتها الآن وهي في كامل حيويّتها، رغم أنها لم تعثر في سكوروفاس على أثر تتبعه.

اعتقدت إنغريد أنّ في الحركة استدامة للأمل، ففي الحركة حياة، سواء كان المرء روسياً أم نرويجياً. وقد طلبت من ألكسندر أن ينهض عن الكرسي في مطبخها، في بارأوي، ويمشي، إلى النافذة، على قدميه المرتجفتين كي يدرّبهما، كي يستعيد عافيته كما كانت قبل إصابته، من أجل أن يصبح قادراً

على الرحيل. تفرّجت عليه وهو يمشي مترنّحاً باتجاه صورته المنعكسة في زجاج النافذة الأسود، ثم وهو يستدير وينظر إليها يائساً. وتراه يأخذ نفساً عميقاً قبل أن يمشي باتجاه باب غرفة المؤونة، حيث يستدير مرّةً أخرى وينظر إليها بعينين تنضحان نظرة يأسٍ قاتمة، نظرة تضرّع. فتنهض وتأخذ بيده المضمّدة وتمشي به إلى الممرّ، ثم تصعد الدرج إلى الصالة الشمالية وتنام معه بقية عمرها.

## - 9 -

في الليلة التالية، أيضاً، أفرط بنيامينسن في شرب الكحول، وبدأ يتحدّث فجأة عن زوجته الميتة، التي ادّعى في البداية أنه كان يحبّها كثيراً، لكنّ هذا الحبّ كان يتناقص كلّما استفاض في الحديث عنها. ثم انفجر في البكاء دون سبب -على الأقل من وجهة نظر إنغريد- ولم يملّ من التشديد على سعادته الكبيرة لوجوده في هذا الركن القصي من البلد، فهنا لا أحد يعرف اسمه الحقيقي.

سألته إنغريد عن اسمه الحقيقي.

قال بضحكة مصطنعة إنّ الجميع يُدعَون بنيامين. ثم نهض وتناول زجاجة من خزانة مطليّة باللون الرمادي، وراح يتبوّل فيها، واستغرق وقتاً طويلاً.

سألته إنغريد ما إن كان من الأفضل له لو خرج وتبوّل في الخلاء، أو في المرحاض وراء البيت. فتساءل عمّا إذا كان لا يحقّ له أن يتصرّف في متجره الخاص كما يريد.

فقالت إنغريد إنها ستذهب الآن للنوم في مخزن الثيلّا، فقد وضعوا الأقفال في جميع الأبواب اليوم.

طلب منها الانتظار قليلاً، وأحضر رسالتين أراد منها أن تقرأهما.

قرأت إنغريد اسم المرسل، على ظهر المظروفين، وعرفت أنهما من زوجته التي كان يتحدّث عنها، المتوفّاة، وقالت إنها لا ترغب في قراءتهما.

فسألها ما إن كان لديها فضول لتعرف محتواهما؟

قالت: «كلّا»، ثم ذهبت إلى مخزن الثيلّا، أغلقت الأبواب، وسجّلت ملاحظات في دفتر رسوماتها. لم تنظر إلى رسومات الطفولة هذه المرّة أيضاً، لكنّها فكّرت مرّة أخرى في يومها الأخير مع ألكسندر في بارأوي، لم تكن مجرّد أفكار في رأسها، بل أفكاراً تحملها، وترفع معنوياتها دوماً، ألكسندر في ثلج بارأوي، ليس خائفاً من الثلج أو البرد، حتى إنه لا يرتجف، ولا يشعر بالبرد، وهكذا غطّت في نوم عميق وهادئ مثل كايا، ابنتها الروسية.

صباح اليوم التالي، كان بنيامينسن متجهّماً وصعب المراس، حتى إنه نسي أنه وعد إنغريد بأجر مقابل مساعدتها له بالعمل في المتجر. وعندما أرادت دفع ثمن الحليب والخبز، وقف متجهّماً وراء درج صندوق آلة المحاسبة، وهو ينقر عليه وينظر من فوق رأس إنغريد بينما كانت الحمرة تصبغ وجنتيه فوق لحيته التي تغطّي معظم وجهه.

حدّقت إنغريد إليه باهتمام.

أغلق الدرج، وطلب منها مرافقته إلى خارج المتجر، وبما أنّ الوقت منتصف النهار وهو غير ثملٍ، خرجت إنغريد وراءه، ووقفا أمام المتجر حيث شاهدا البحيرة والجبال أمام مدخل المنجم والمجمّع الذي يزدهر حوله ويزداد ارتفاعه سنتيمتراً واحداً في كل ساعة عن جانبي الطريق الوحيد إلى هناك. كان يوليها ظهره عندما اعترف لها أنه أمّيّ.

«ماذا؟» قالت إنغريد.

وأنه بحاجة ماسّة لمعرفة ما تتضمّنه تينك الرسالتين، وإلا فلن يعرف راحة البال أبداً.

سألته إنغريد كيف يستطيع أن يدير متجراً وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة؟

قال إنّ ولديه يمسكان حسابات المتجر، لكنّه لم يستطع إطلاعهما على الرسالتين لأنّ الرسالتين من أمّهما، إليه هو.

وافقت إنغريد متردّدة، لكنّها اشترطت أن تقرأهما أولاً على انفراد. احتجّ، وتساءل عن الغاية من ذلك، لكنّه رضخ وناولها الرسالتين.

صعدت إنغريد إلى القيلا، ذهبت إلى المطبخ المؤقّت، حيث أعطت كايا زجاجة حليب، وجلست تقرأ الرسالتين. لم تجد في الرسالة الأولى أيّ ذكرٍ للمرض أو الموت، بل كانت كلماتها البسيطة والواضحة تشرح كيف أنّ كاتبة الرسالة، إليسيف، تستمتع بوقتها في بيرغن برفقة رجل يعرفه كلاهما منذ أيام الطفولة.

لم تأتِ الرسالة الثانية أيضاً على سيرة مرض أو موت. وكانت قاسية اللهجة، لأنه من الواضح أنّ ألفريد لم يردّ على الرسالة الأولى، وأنّ إليسيف تريد الاطمئنان على ولديها.

تبيَّن لإنغريد أنّ كلتا الرسالتين كُتبتا في الشتاء الماضي، وفهمت من الرسالة الثانية أنّ إليسيف قد غادرت إلى بيرغن ليس فقط بسبب حبّها لصديق الطفولة ذاك، بل لأنّ ألفرد أصبح كحولياً وعنيفاً، إضافةً إلى خيانته لوطنه إبان الحرب، بطريقة ربما لم يكن من السهل اكتشافها حينئذٍ، لكنّها اتضحت الآن لكلّ ذي عقل - وهذه الرسالة لائحة اتهام صريحة.

أكلت إنغريد شريحتي خبز، وتساءلت عن السبب الذي جعله يعطيها الرسالتين لقراءتهما، ثم نزلت إلى المتجر وسألته كيف استطاع أن يتزوّج امرأة لا تعرف أنه كان أمّيّاً؟

لم يفهم ألفريد سؤالها.

شرحت له إنغريد أنه ليس من السهل كتابة رسائل لأناس أمّيّين، والأزواج يعرفون ذلك جيّداً.

«أستطيع أن أقرأ» -قال متضجّراً- «وإن قليلاً».

«لماذا أقحمتني في هذا الأمر إذاً؟»، سألته إنغريد.

قال إنه أمل أن تفهم وضعه دون أن يضطرّ هو لشرحه. وأنه يحتاج إلى نصيحتها، كرمى لله، فهو غير قادر على الحياة من دون إليسيف، التي هجرته إلى بيرغن. سألته إنغريد ما إن كان قد تعامل مع الألمان بغير بيع السمك؟

تلفّت حوله بسرعة، وقال كلّا، بطريقة توحي بنعم.

قالت إنغريد إنه أغبى رجل صادفته في حياتها.

حملق فيها وقد استبدّ به الغيظ، ثم كشّر فجأة ورفع إحدى ذراعيه. تراجعت إنغريد إلى الوراء. وفي اللحظة ذاتها انفتح الباب ودخل رجلان، صحفي ومصوّر، كلاهما يلبس معطفاً وقبّعة. لقد نسي بنيامينسن اتفاقه معهما، وقد جاءا لكتابة تقرير مصوّر عن الدور المركزي الذي يلعبه المجمّع الصناعي الجديد في الحقبة الجديدة التي يشهدها البلد، وقد وصلا لتوّهما بسيارة ألمانية مغبرّة، لا تزال مركونة أمام المتجر ومحرّكها يدور. خرجت إنغريد حال دخولهما.

بقي الرجلان في سكوروفاس ثلاثة أيام. لكنّهما لم يلتقطا أيّ صورة لبنيامينسن، بناءً على رغبته. لكنّ إحدى الصور التي سترافق التقرير الشامل، لاحقاً، هي الدليل الوحيد الملموس على وجود إنغريد ماريا بارأوي وابنتها كايا في سكوروفاس في تلك الأيام. يظهر في الصورة امرأة وهي تصعد التلّة من شاطئ بحيرة سكوروفاس، إنها إنغريد التي لا يمكن أن تُخطئها العين، تمشي بخطوات كبيرة، وكايا بين ذراعيها، وهي تلبس فستاناً أخضر مخطّطاً طويلاً إلى ما دون الركبة، على المرء أن يخمّن لونه في الصورة. وتلبس في قدميها جزمة طويلة، من جلد البقر، تبدو كبيرة على قدميها، ووراءها صبيّان بشعر قصير جداً، يلبسان سروالين قصيرين، وفي خلفية الصورة يظهر رجل بقبّعة قماشية، وحمّالتي بنطلون، وقميص مطويّ الأكمام فوق الساعدين، وهو يقف بباب ورشة الإصلاحات الحديثة وينظر إليهم بابتسامة عريضة.

في الواقع، إنّ ورشة الإصلاح الحديثة هي موضوع الصورة الرئيسي. لقد اكتمل بناؤها الآن، ويمكن للمرء أن يرى في الصورة سبّاكَين واقفين على سلّم وهما يثبّتان أنابيب تصريف المياه عن جوانب سطح الورشة، وعلى أحد جوانب السطح توجد بقايا الزينة من حفل افتتاح الورْشة. ولا تنطوي الصورة على أدنى أمارة عمّا يجري في الواقع، عملية البحث عن العبد الروسي الهارب الذي لم يسمع به أحدٌ في النرويج الجديدة هذه.

# - 10 -

في اليوم التالي على حادثة الرسالتين، استيقظت إنغريد حاسمةً أمرها على عدم التعامل مع بنيامينسن، وشعرت بنُذر حنين إلى البيت، مثل رائحة البحر ومنظر الناس والطيور، والحيوانات في الحقول، في صيف السلام الثاني على الجزيرة، الذي كان مختلفاً جداً عن سابقه، وهي ليست هناك.

تأكّدت من أنّ كايا نائمة في الصندوق الكرتوني على الأرضية، كما تأكّدت أنّ جروح قدميها من رحلة الجبل قد شُفيت تماماً، ثم خرجت حافية القدمين في هواء الصباح البارد هذا، ووقفت مرتجفة وهي تشاهد نصف المدينة المكتمل يستيقظ أمام عينيها، وأعمدة الدخان تتصاعد من مداخن البيوت واحدةً تلو الأخرى، وكائنات سوداء تزحف صاعدةً التلّ إلى باب المنجم مثلما يزحف النمل إلى وكره. ومنازل كثير من الناس الذين تحدّثت إليهم وبوسعها أن تذكر أسماءهم واحداً واحداً، نساءً ورجالاً وأطفالاً، والذين بدؤوا يعاملونها على أنها واحدة منهم، كأحد أفراد المجتمع المعروفين، غير أنهم نسوا، ببطءٍ، وثباتٍ أيضاً، سبب وجودها هنا، هكذا مثلما تلتهمنا تفاصيل الحياة اليومية عاجلاً أم آجلاً، تجعلنا جميعاً عاديين ومغفلي الأسماء، وغير مرئيّين.

رائحة البحر. صوت الطيور المفتقد.

واليوم، على أيّ حال، كان بنيامينسن -هو الأكثر لامبالاةً بمغامرة إنغريد عديمة المعنى- هو من ساعدها على أن تبدأ من جديد، فقد عرّفها إلى فلّاح من الجبل كان يساعد الناس على عبور الحدود إبان الحرب. ربما يعرف شيئاً، قال ألفريد بنيامينسن فجأةً عندما دخلت إنغريد إلى المتجر لتقول له وداعاً وترحل، وأدركت إنغريد أنه قد قال ذلك على مضض كما لو أنه يتصالح مع شيءٍ ما، مع هزيمةٍ شخصية.

«اخرجي وتحدّثي إليه!».

خرجت إنغريد وقابلت هيرمان فولهايم للمرّة الأولى. وهو رجلٌ في العقد السادس من العمر، وجهه مربّع الشكل ولحيته رمادية متفاوتة النمو، كان يقف بالقرب من جرّاره وهو ينظر إلى إنغريد بارتياب بعينيه الزرقاوين الباهتتين، بينما هي تروي له قصّتها، وهي تتلعثم بكلمات لا نفع لها.

لم يُكثر هيرمان فولهايم من كلمات الاستفسار، والاستهجان؛ كما أنه أكّد ما كان قد قاله لها صديق كارل، غفل الاسم، مفتّش التفريغ في كونغسموين، أنّ المهاجرين كانوا يسلكون طريق التلفريك في الشتاء أيضاً، وكانوا يسيرون، في الليل، على خطا عمّال شركة بلايشيرت، وبذلك لا يتركون وراءهم أثراً.

هزّت إنغريد رأسها.

لقد ساعد فولهايم أكثر من مئة رجل وامرأة وطفل على العبور إلى السويد خلال سنوات الحرب، وبعضهم عبر طريق التلفريك، بالطبع، لكن روسيّاً؟!

في هذه النقطة كان فولهايم غامضاً وغير صريحٍ.

قالت إنغريد إنه لم يكن يبدو كروسيّ.

«كلّا، ومن يبدو روسياً؟!»، قال فولهايم وهو يضحك بخجلٍ، ولا حتى الطفلة التي بين ذراعيها أيضاً. رفعت إنغريد كايا أمام عيني فولهايم على أمل أن تذكّره عيناها بعيني الروسي.

«إنها طفلة»، قالت إنغريد.

«أجل، إنني أرى ذلك»، قال فولهايم.

أخبرته إنغريد عن يدي الروسيّ المتفحّمتين، فأغمض فولهايم عينيه وفكّر، ثم قال، وكأنّ شيئاً في أعماق ذاكرته قد أوحى له بشيء قصيّ وغير واضحٍ، إنه يمكن لإنغريد أن تأتي لزيارته في ستالفيكا بالقرب من بحيرة تونشوين بعد ثلاثة أيام، وتتحدّث إلى ابنته، فهي أيضاً كانت ساعياً ومرشداً خلال الحرب، وسوف تصل يوم السبت.

شكرته إنغريد. ثم نامت أربع ليالٍ أخرى في مخزن الثيلّا، وساعدت بنيامينسن في ترتيب المعلّبات والأطعمة الجافة في المستودع، ونظّفت له البيت، وبقيت بعيدة عن حياته الخاصة ما أمكنها ذلك. كما أنها ساومته في سعر حذاء، من النوع الذي يلبسه عمّال المنجم في المجمّع الصناعي، وهو نوع الأحذية الوحيد المعروض للبيع في متجر بنيامينسن، إضافةً إلى أحذية النساء، التي لم يبع منها أيّ زوج.

كما سُمح لإنغريد أن تستعير درّاجة، وعلّمها ابناه على ركوبها.

ابنا بنيامينسن في العاشرة والثانية عشرة من العمر، أحدهما يدعى ترونـد والآخر آرفي، وقد تناوبا على رعاية كايا أثناء تدرّب إنغريد على ركوب

الدرّاجة. وضحكا كثيراً من وقوعها المتكرّر عنها. كان شعرهما الحليق قصيراً جداً مثل شعر أطفال الحرب. وكان أنف تروند ذي السنوات العشر ينزف باستمرار، وهو يمرّغ وجهه بدمه، فيعلق عليه الغبار والأوساخ، وعندما سبحا لأول مرة في بحيرة سكوروفاس الصغيرة الباردة جداً بدا الشبه بينهما واضحاً.

سأتذكّر هذين الولدين، فكّرت إنغريد، التي كانت قد استعادت زمام الأمور، وكتبت اسميهما في دفتر رسوماتها، كما طلبت منهما أن يرسما لها شيئاً. رسم تروند حصاناً بقوائم مختلفة الطول وكتب اسمه تحت الرسم، بشكلٍ غير مقروء. بينما اكتفى آرفي بكتابة اسمه بخطّ جميل مثل خطّ الراشدين. سألتهما إنغريد ما إن كانا يفتقدان أمّهما.

تبادلا النظرات، ثم أجاب آرفي وبالنيابة عن أخيه إنهما يفتقدانها.

ندمت إنغريد على سؤالها هذا، ثم أخبرتهما عن مسقط رأسها، جزيرة صغيرة في البحر لديها سفينة صيد حيتان وعدد من القوارب الأخرى، وعددها أربعة بالضبط.

حملقا فيها مدهوشين.

أخبرتهما إنغريد أنّ في سفينة صيد الحيتان مدفعاً، بحربة باردة. هزّا رأسيهما. ثم قالت إنّ ربّان السفينة هو ابن عمّتها، واسمه لارس. طلبا منها التحدّث ببطء. سحبت إنغريد نفساً عميقاً وراحت تحدّثهما بهدوء عن طفولتها، وعن الأطفال الذين يكبرون الآن في بارأوي -والذين ينبغي ألّا تفقدهم بأيّ حال من الأحوال- قالت تلك العبارة على أمل أن يطلبا منها التوقّف، لكنّهما بقيا صامتين، فتابعت إنغريد حكايتها، وشعرت بالحنين إلى بارأوي. كم كانت بعيدة عن بيتها الآن؟

هذان هما الصبيّان اللذان صعدت معهما التلّة باتجاه ورشة الإصلاح الجديدة، عندما خلّدتها صورة في إحدى الصحف. وفي ذلك اليوم سبحت إنغريد أيضاً، وغطّست قدمي كايا في الماء العذب، وتعلّمت ركوب الدرّاجة، ويعود الفضل في ذلك على الأقل لآرفي، الذي منذ اليوم الأول لوصولها إلى البلدة كان يلاحقها بعينيه كما لو أنها أمه، أو على الأقل كما لو أنّ بنيامينسن لم يكن أباه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# - 11 -

نهار السبت، نهضت إنغريد ماريا بارأوي باكراً، ثم حزمت حقيبتها وزوّادتها، وثبّتتها على حامل الدرّاجة الخلفي، كما علّمها آرفي، ووضعت كايا في اللفافة التي ثبّتتها جيّداً على بطنها، وقالت وداعاً لبنيامينسن الذي بدا غير مرتاح، مثل إميل ريمالا وبحّاره ألف إيساكسين عندما ودّعتهما على متن السفينة مونكيفيورد، وصرّح لها بمنتهى الجدّيّة إنه يتمنّى لو يمتلك المقدرة على الخروج من ورطته اللعينة هذه.

نظرت إنغريد إلى حذائها الجديد، الذي يبدو أفضل بكثير من جزمتها الكاوتشوك التي تركتها في مخزن القيلّا.

قال بنيامينسن إنه في الواقع لم يكن راغباً في وصلها مع فولهايم، ويُفترض بها ألّا تقول له إنّ صاحب المتجر في سكوروفاس كان يتعامل مع الألمان إبان الحرب.

قالت إنغريد إنه زمان السلام الآن.

قال بنيامينسن «كلّا» قاطعة، وبدا أنه يريد أن يحتضنها ويضربها في الوقت نفسه، لكنّه بدلاً من ذلك استدار وغادر المكان، وتركها مع ابنيه اللذين كانا ينتظرانها بجانب الدرّاجة.

ركبت إنغريد الدرّاجة. دفعها الولدان في المرحلة الأولى من صعود التلّة، ثم راحا يركضان عن جانبيها بقدر ما تسعفهما طاقتهما، وكان آرفي متأخراً عن أخيه، لكنّهما صرخا معاً إنّ عليها أن تعود، والدرّاجة معها.

التوازن على الدرّاجة يشبه التوازن في القارب، لكنّ الهواء ليس ماءً، ولم تكن إنغريد مستقرّة فوق الدرّاجة، كما كانت مضطرة للنزول عنها والسير بها في المنحدرات الحادة، وعندما تكون التلّة قاسية أيضاً.

لكنّ كايا أحبّت ركوب الدرّاجة، وكانت تضحك من حركة الاهتزاز. فتلتها إنغريد ليكون وجهها في مواجهة هواء البرّ الجاف، والغبار، وغبار الطلع، لكنّ تأثيرها كان يتناقص عندما تتوقّف إنغريد، وفجأة دخلتا منطقة شديدة الحرارة، عندئذٍ عبّرت كايا عن احتجاجها بالرفس والبكاء، لكن سرعان ما عادت إلى الضحك في المنحدر التالي. وقابلتا في طريقهما ثلاث عربات تجرّها خيول، وجرّاراً، وكانت إنغريد تعدّها، كما مرّتا بمزارعٍ يعمل فيها الناس في الحقول، وجميعهم رفعوا أدواتهم عالياً في تحيّة صيفية لهما، وفي يوم مثل هذا اليوم يمكن لذلك كلّه أن يعني أنّ الإنسان مخلوقٌ سعيد في عالم جميل.

استراحتا على ضفة نهر يهدر مثل بحرٍ وماؤه بارد. أكلتا وشربتا، وجلستا ترميان أحجاراً في دوّامة مائية حتى ملّت كايا وأرادت ركوب الدرّاجة. غطّت كايا في النوم سريعاً، وكانت إنغريد متعبة ومتيبّسة بسبب ركوب الدرّاجة والراحة، فنزلت وسارت على قدميها، بحذائها الجديد، مسافة كيلومتر تقريباً، دون أن تستيقظ كايا، ووصلت إلى مزرعة فولهايم، التي بدت بنضارة مروجها وامتدادها مثل كفٍّ خضراء ترتاح فوق تلّة في

أقصى خليج تونشوين الغربي، وفيها بحيرة داخلية تتلألأ في ضوء العصر الخفيف الذي يحجب الضفة الأخرى من البحيرة. وفكّرت إنغريد أنه لا بدّ أنّ وراء هذه المزرعة مزيداً من الغابات ولا شيء سوى الغابات، وأشياء لا تنتهي أبداً في هذا البلد. وهي على الطريق على خطا ألكسندر.

استقبلها المزارع فولهايم، الذي كان يقف في فناء مزرعته بجزمة ساقاها ملوّثتان بالسماد الطبيعي، بسحنة تقول إنه لم يكن ينتظرها، أو إنه لم يحب أنها قد أخذت كلامه على محمل الجدّ.

وقفت إنغريد حائرة في ما تفعل، ونظرت إلى مشهد خلّاب، ما وراء بحيرته الداخلية، حتى قال لها انتظري هنا، ثم دخل إلى بيت المزرعة الكبير المطلي باللون الأبيض. لكنّه لم يخرج بعدئذٍ.

جلست إنغريد على المرج.

شاهدت هناك العديد من الورود التي لم ترَ مثلها من قبل، وأشجاراً عاليةً ساكنة. بدأت الشمس تغيب، وأصبحت قمم التلال أكثر حمرةً، وكايا لم تستيقظ بعد. فكّرت إنغريد في إيقاظها، لكنّها غيّرت رأيها. وسمعت صياحاً من داخل البيت، ثم حلَّ الهدوء، ثم مزيداً من الصياح ذكّرها بصراخ لا تريد أن تتذكّره. ثم انفتح باب بيت المزرعة أخيراً، وخرجت امرأة قصيرة ونحيلة، وقفت تحت سقف الشرفة ويدها فوق عينيها، وراحت تنظر باتجاه الشمس التي كانت في أخفض نقطة في غرب البلاد. نزلت الأدراج واقتربت من إنغريد بخطوات متردّدة، ثم وقفت على بعد ثلاثة أمتار منها.

شعرت إنغريد أنها قد تضطرّ للصراخ.

تخلّل حوارهما الكثير من كلمات الاستفسار والاستهجان قبل أن تستطيع إحداهما فهم الأخرى، وفي هذا الوقت كانت إنغريد قد اقتربت منها ووقفت بجانبها.

لم تكن المرأة صغيرة جداً، على أيّ حال، وكان على خدّها الأيسر ندبة تشدّ فمها وتجعله يبدو مبتسماً وهو غير مبتسم. نظرت إلى إنغريد نظرةً ثاقبة بعينيها الزرقاوين مثل عينَي والدها اللتين كان ينظر بهما إلى الغرباء عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. لكنّها لم تكن تتكلّم لهجته، كما لم تبدُ مثل زائرٍ في المزرعة. صافحت إنغريد، وبقيت ممسكة بيدها مما اضطرّ إنغريد أن تنظر بعيداً.

اسمها ماريان.

عرّفت إنغريد عن نفسها، ونظرت إليها ثانيةً، وأخبرتها عن سبب وجودها هنا، وعن المسار اللامرئي الذي مشته من الشاطئ، ووصفت لها كم كان طويلاً، كأنها تريد أن تحتفظ بالكلام، وقالت ماريان إنها لا تصدّق كل هذا الكلام.

«ماذا؟!»، قالت إنغريد.

استقرّت عينا ماريان على مؤخّرة رأس كايا النائمة، فقرّرت إنغريد أن تسألها ما إن كانت راغبة في حملها.

نظرت ماريان بسرعة إلى ما وراء البحيرة وقالت إنها لا ترغب في ذلك، ثم تمتمت إنه كان لديها أولاد ذات يوم، صبي وبنت، لكنّهما غرقا في البحر، فقد كان الجليد رقيقاً. وكان لديها زوج أيضاً، أعدمه الألمان في السنة الأولى من الحرب. وقالت ذلك كلّه دفعةً واحدة وبسرعة، مثلما فعل كارل صاحب الكلب عندما أخبرها عن الكارثة التي حلّت بهم في

البحر، كما لو أنه أراد أن ينفضها من رأسه، كأنها عملية تنظيف كبيرة في البلد، وعلى الجميع المشاركة فيها.

لم تجد إنغريد ما تقوله بشأن ما سمعته.

فبدأت تخبرها عن ريغيل، سفينة العبيد التي دمّرها الإنكليز قبل عام ونصف، وعن الروس الذين ماتوا، والذين نجوا، فقالت ماريان مرة أخرى إنها لم تسمع بتلك السفينة قطّ، وإنها لم تصدّق ذلك على الإطلاق.

«لماذا؟»، سألتها إنغريد مرة أخرى.

هزّت ماريان كتفيها، وشعرت إنغريد أنهما قد وصلتا إلى حالة غير سارّة، لكن بوسعها أن تطلب المبيت عندهما الليلة، وسوف تعود على درّاجتها إلى سكوروفاس في الصباح، كما أنها لا تحتاج إلى طعامهما، واعتذرت لأنها قد جاءت إليهما، وما كان ينبغي أن تأتي.

هزّت ماريان رأسها مرّتين، كأنها تريد لفكرة في رأسها أن تهدأ أو أن تخرج منه، ثم استدارت ومشت عائدة باتجاه البيت. لكنّ إنغريد شاهدت الدموع في عينيها. توقّفت ماريان تحت سقف الشرفة، ثم استدارت ووقفت بوضعية لا تسمح لإحداهما برؤية عيني الأخرى. وصاحت عبر ظلمة الليل الخفيفة إنّ بوسع إنغريد أن تنام في الكوخ هناك أسفل الهضبة، حيث كان ينام حصّاد التبن، فالباب غير مقفل.

دخلت ماريان وصفقت الباب خلفها.

استيقظت كايا، وبدأت تبكي. واستها إنغريد، ثم نزلت الهضبة ودخلت إلى الكوخ، بدّلت حفّاضة كايا، أطعمتها ولعبت معها حتى بدأت الظلمة خارج النافذة تزيح لون الغروب الأحمر. نامتا على سرير عريض وقصير جداً، واستيقظتا على زقزقة عصافير لم تسمع إنغريد مثلها من قبل قطّ،

لكن الاستماع إليها وهي مستلقية دون حراك كان نعمةً كبيرة. في الحقيقة، كانت تستلقي كالأموات ودون حراك خشية أن تكسر القشّة الأخيرة، أن تحطّم شيئاً ما وإلى الأبد، وكانت خائفة من أنها ربما ارتكبت خطأً أوصلها إلى نهاية مغامرتها هذه. وفي هذه اللحظة استيقظت كايا.

# - 12 -

نهضت إنغريد وأعدّت فطوراً من شرائح الخبز، والزبد، والمعلّبات الباردة ثقيلة الوزن عليها، سواء كانت ستتابع مغامرتها أم ستعود أدراجها. وبينما كانتا جالستين أمام الكوخ في شمس الصباح وتأكلان فطورهما، جاء المزارع هيرمان فولهايم ماشياً من بيته يحمل في يدٍ إبريق حليب صغيراً، وفي الأخرى ركوة قهوة، وضعها على درجات الكوخ، ثم أدار ظهره لهما، نظر إلى ما وراء البحيرة وقال: «لقد غَضِبَتْ، غضباً شديداً».

شمّت إنغريد رائحة الصابون التي تفوح منه، وقالت إنها ما كان ينبغي أن تأتي، وقد قالت هذا الكلام لماريان، أيضاً.

نظر كلاهما إلى البخار الذي يتصاعد من ركوة القهوة. شتم بصوتٍ منخفض، ثم عاد إلى بيت المزرعة وعاد يحمل كوبي قهوة، وسأل إنغريد ما إن كانت قد جلبت معها فنجانها الخاص في رحلتها.

قالت إنغريد كلّا، فقد كان معها بطّانية صوفية، حفّاضات، ملابس، طعام، وسكّين والدها...

قال إنّ بوسعها الاحتفاظ بهذا الكوب الذي تشرب به، كتذكار.

فكّرت إنغريد أيّ نوع من التذكار يفترض أن يكون هذا، كوب من

اللامكان، وقالت إنه لا ضرورة لذلك، فهي قادرة على شراء الكوب الذي تحتاجه، فلديها نقود الآن أكثر مما كان معها عندما غادرت بارأوي.

قال لا بأس ثم جلس بجانبها على صخرة دفّأتها حرارة الشمس. وشربا قهوتهما بصمت. ثم فجأةً بدا كأنه في عجلة من أمره، فقال إنّ الحرب هنا في المزرعة لم تنتهِ بعد، ثم نهض وعاد إلى البيت وفنجانه في يده. كان فولهايم في مزرعته شخصاً مختلفاً كلياً عن الشخص الذي قابلته إنغريد في سكوروفاس، إنهما شخصيتان منفصلتان كلّياً. وفكّرت إنغريد أنه هنا يعيش حالتَي الحرب والسلم، وهذا لن يفيدها أبداً.

الآن في ضوء النهار كانت إنغريد قادرة على رؤية الغابات على الجانب الآخر من البحيرة، وجداراً تغطّيه طحالب رمادية مسودّة. كانت الرياح قد سكنت، والبحر كالزجاج. ومع تقدّم النهار تحوّلت زقزقة العصافير المتواصلة إلى زقزقةٍ قصيرة وحادّة، ورأت جناحين أسودين يدوران فوق الحقول، بدَوَا لها مثل نسرين.

تهيّأت إنغريد للرحيل. حزمت حقيبتها وثبّتتها على حامل الدرّاجة، وكانت على وشك أن تمشي باتجاه البيت لتقول وداعاً، عندما ظهرت ماريان وراء سياج إلى يسار الطريق. وقفت مقاطعةً ذراعيها فوق صدرها، وصاحت إنّ والدها قد تحدّث عن روسيّ.

نظرت إليها إنغريد بحيرة، وصاحت هل هو ذاك الذي حدّثتها هي عنه؟

اقتربت ماريان وقالت إنها لم تفهم، وإنّ والدها قد نعت إنغريد بالخرقاء، وينبغي أن تعود إلى بيتها فوراً، ثم أضافت إنها هي نفسها قد ساعدت، في الحقيقة، روسيّاً في العبور عبر الجليد منذ سنة ونصف، وكان

برفقة ثلاثة مقاومين نرويجيين، بعد أن ناموا بضع ليالٍ في كوخ صيّادين هناك في الأسفل، وأشارت باتجاه البحيرة.

سألتها إنغريد عن يديه المصابتين.

لم تفهمها ماريان في البداية، لكنّها قالت إنّ الفصل كان شتاءً، وكانوا يلبسون قفّازات.

هزّت إنغريد رأسها، وبقيت واقفةً مكانها.

قالت ماريان إنهم ساروا في الثلج على طول الضفة الجنوبية باتجاه الحدود السويدية، وهي نفسها من رسمت لهم الطريق على الخريطة، لكنّها لم ترافقهم.

أفلتت إنغريد الدرّاجة لتسقط على الأرض، خطت فوق خندق، وتجاوزت السور، ثم رفعت كايا عالياً أمام وجه ماريان. تراجعت ماريان إلى الوراء قليلاً، لكنّها بقيت واقفة تحدّق في كايا طويلاً، حتى اضطرّت أن تخفض بصرها، كأنها صغير في مواجهة نظرة بالغ كبير. ارتجفت الندبة عند زاوية فم ماريان التي استدارت وعادت إلى البيت.

كرّجت إنغريد الدرّاجة وأسندتها إلى جدار الكوخ، ثم جلست تتفرّج على دجاجات تتبختر في فناء البيت. وكان بينهن ديكٌ أيضاً. وشعرت إنغريد أنّ الحشرات هنا تطير بطريقة مختلفة عن طيران الحشرات في بارأوي. بدأت كايا تزحف وراء الدجاجات التي كانت تنقنق وتهرب منها مثل طيور العيدر في بارأوي. جلست إنغريد وانتظرت. مضت ساعة، ثم أخرى. أخيراً عادت ماريان ومعها خريطة وركوة قهوة أخرى، وكانت الشمس حينئذٍ في الجنوب.

قالت إنغريد إنّ لديها خريطة.

«ليست كهذه»، قالت ماريان بفظاظة.

ثم قالت إنّ بوسع إنغريد أن تنام في بيت المزرعة هذه الليلة، ولديهم مهدٌ للصغيرة هناك.

شكرتها إنغريد، وأشارت لها أن تجلس. جلست ماريان بالقرب منها، ثم فردت الخريطة. نظرتا إليها معاً، وراحت ماريان تحرّك سبّابتها النحيفة بظفرها المطليّ باللون الوردي، على خطٍّ رفيع. توقّف إصبعها قليلاً عند صليب باللون الأسود يشير إلى كنيسة صغيرة في أقصى شرق تونشوين، ومن ثم على طريق صاعد عبر وادٍ باتجاه الحدود السويدية، حيث يمتدّ بحرٌ جديد داخل اليابسة، وهنا بدأت سبّابة ماريان ترتجف، وبدأت تلعن البحر، المحكوم عليها أن تحدّق إلى ما وراءه كلّ صباح، وكلّ يوم، وفي ليالي الصيف الطويلة أيضاً.

قالت إنغريد إنها ليست مضطرّة إلى ذلك...

قالت ماريان: «بلى»، وإنها لهذا السبب لم تعد تعمل مدرّسة في المدينة، كما كانت من قبل، وطلبت أن تحمل كايا.

أعطتها إنغريد كايا، التي نظرت إلى هذه الغريبة بقلق، ثم وضعت قبضتها في فمها.

«أنت شابّة صغيرة»، قالت إنغريد.

«كلّا»، ردّت ماريان دون أن ترفع نظرها عن كايا.

أصرّت إنغريد على أنّ ماريان لا يمكن أن تكون أكبر منها عمراً. لكن يبدو أنّ ماريان لم تسمعها. فقد نجحت في إضحاك كايا، وسألت كم تبلغ من العمر. أجابتها إنغريد، فقالت ماريان، أجل، كان ينبغي أن تقدّر ذلك، وسألتها عن حكاية السفينة ريغيل؟

أخبرتها إنغريد عن ريغيل، لكنّ ماريان قاطعتها في منتصف الحكاية، وقالت إنّ هذه قد تكون فرصة جيّدة لإخراج القارب إلى الماء من جديد، فهو يرقد تحت غطائه منذ أكثر من سنتين.

«القارب؟».

أومأت ماريان برأسها صوب سقيفة قارب في الخليج.

هزّت إنغريد رأسها أيضاً وكأنها فهمت، وسألتها كيف تأكّدت من أنّ الهارب كان روسيّاً، لا ألمانياً؟ رفعت ماريان كايا فوق رأسها، وأرجحتها إلى الأمام وإلى الوراء، بيدين أموميتين تعرفان ما تفعلان، وقالت إنها قادرة على التمييز بين اللغتين الألمانية والروسية. عندئذٍ لم يتبقَّ لدى إنغريد ما تسألها عنه. حدّقت صوب سقيفة القارب، الواقعة بين شجرتي بتولا كبيرتين تلقيان بظلّهما باتجاه المزرعة، مثل موشورين متناظرين، لونهما أخضر مائل إلى الرمادي، وفي أشعة الشمس بينهما تومض حشرات لم ترَ إنغريد مثلها من قبل.

## - 13 -

وقفت إنغريد في المطبخ تتفرّج على ماريان فولهايم وهي تقلي دجاجة في مقلاة من الحديد الأسود فوق موقد كهربائي بأربعة رؤوس مختلفة الأحجام، بينما كانت كايا تلعب على أرضية المطبخ بملعقة تطرقها على غطاء طنجرة. فكّرت إنغريد في رأي هيرمان فولهايم الذي يعتقد أنها حمقاء، وسألت ماريان ما إن كانت تعتقد أنّ الآخرين، الذين قابلتهم خلال رحلتها هذه، يشاركون والدها الرأي ذاته؟

لم تجبها ماريان.

أعادت إنغريد السؤال: ماذا يقول الناس عنها؟

لزمت ماريان الصمت مرة أخرى، وسألت إنغريد ما إن كانت قد تعرّضت لمضايقات أثناء رحلتها.

قالت إنغريد إنها لم تتعرّض لأيّ مضايقات، وإنّ الناس كانوا لطيفين معها، ما خلا بعض الأولاد الذين رشقوها بالحجارة يوم أمس، وهي على درّاجتها، ونعتوها بالغجرية، على حدّ فهمها.

لم تعلّق ماريان على ذلك أيضاً.

طلبت منها إنغريد أن تقول شيئاً.

استجابت ماريان بابتسامة سريعة، ثم قالت لو أنّ أحداً قد بحث عنها كما تبحث إنغريد عن ذلك الروسي، لاختلفت أمور كثيرة.

فكّرت إنغريد في هذا الكلام.

قالت ماريان إنه لا أهمية لما فكّرت فيه، لكن ما أرادت قوله هو أنّ ولديها لن يعودا أبداً. وأنها ترغب في نطق اسميهما بصوتٍ عالٍ، لكنّها لا تستطيع ذلك، حتى إنها لم تستطع ذلك منذ أن ماتا، ولا حتى في يوم جنازتهما.

سألتها إنغريد ما إن كانا قد ذهبا إلى المدرسة.

«بالتأكيد. فقد كانا في عمر السابعة والتاسعة. وقد وقعت حادثة غرقهما في عيد الميلاد قبل أربع سنوات، بعد فترة وجيزة من فَقْدهما لوالدهما». وبعد ذلك قرّرت ماريان الالتحاق بالمقاومة، مثل هيرمان، من أجل أن تبقى على قيد الحياة، وقبل ذلك لم تكن تعرف شيئاً عن نشاط والدها في المقاومة.

قالت إنغريد إنّ لديها طفلة وحيدة، كايا، ولم تردّ ماريان، أيضاً.

تناوبتا على تحريك لحم الدجاج في المقلاة.

ذاقته إنغريد، واقترحت إضافة بعض الملح.

«هناك»، قالت ماريان وأشارت بالملعقة صوب وعاء الملح.

«حسنٌ»، قالت إنغريد وسألتها من جديد ما إن كانت تعتقد أنها ينبغي أن تضيف المزيد من الملح؟

«نعم»، قالت ماريان، وجلست على كرسي. أضافت إنغريد قليلاً من الملح إلى الطعام، ثم حرّكته وذاقته. انحنت ماريان فوق سطح الطاولة

حتى التصق وجهها بمنديل تجفيف الأقداح، ثم وقفت ثانية، وضعت يديها على خصرها ونظرت عبر نافذة مفتوحة على هذا المساء الصيفي، وقالت إنّ اسمَيْ ولديها كانا هيرمان وسلمى.

جلسوا يأكلون بصمت حول طاولة طويلة في غرفة جلوس كبيرة تتسع لعددٍ كبير من الناس. كانت كايا تجلس في كرسي خاصّ بالأطفال، وماريان تُطعمها ممّا تأكلان. قالت إنغريد إنها يمكن أن تعطيها بعض الحليب إن وُجد. سألها المزارع هيرمان عن طول المسافة التي قطعتها حتى الآن. أخبرته إنغريد عن رحلة القارب من إن أوي، وعن سفينة مونكيفيورد، وعن الأميال التي قطعتها سيراً على الأقدام من كونغسموين إلى سكوروفاس. فاعتذر لها عمّا بدر منه.

رفعت ماريان بصرها عن زبدية طعام كايا، التي كانت مصنوعة من الخشب، خصيصاً للأطفال أيضاً، وقالت إنه هو الأخرق.

خبّأت إنغريد ضحكتها بظاهر كفّها، وسألت عن طريقة صنع الشراب الذي كانت تشربه. هل هو عصير الكشمش؟

«إنه توت العلّيق»، قالت ماريان، وراحت تسألها عن بارأوي، وعن ريغيل، وعن كلّ ما لم تفهمه عندما سمعت الحكاية منها أول مرّة. أخبرتها إنغريد بكلّ ما خطر لها، وختمت كلامها قائلة إنه لأمرٌ غريب أن تكون هنا الآن، وكانت كلّ النوافذ مفتوحة الآن والسكون مُطبِقٌ في الخارج.

على الفطور قدّما لها بيضاً مقلياً، ولحم خنزير، وخبزاً. وأطعمت ماريان كايا دقيق الشوفان مع اللبن والعسل. لكنّها نهضت وتركتهما في منتصف

الوجبة. لم تعرف إنغريد ماذا تقول لهيرمان، الذي أحنى كتفيه فوق بيضته المقلية في ما يشبه التركيز العميق. كان يلبس قميصاً أبيض، وحمّالتَيْ بنطلون مطرّزتين، في الحالات الأخرى يكون في ثياب العمل الخشنة. وكانت تفوح منه رائحة الصابون المعقّم أيضاً، ولاحت نظرة ارتباك في عينيه سماويتي الزرقة اللتين تجعلانه يبدو أصغر من عمره الحقيقي. وقال فجأةً إنه مسرور لوجود إنغريد بينهما، ولم ينظر إليها عندما قال ذلك، بل إلى جدار مغطّى بورق جدران بمنظر ريفي مليء بكروم متتالية بظلال من اللون الوردي الفاتح والأخضر، كما بدا أنه لا يعني ما قاله.

قالت إنغريد إنّ مزرعته جميلة جداً.

«أجل».

سألته إنغريد ما إن كان لديه أبناء آخرون غير ماريان.

«نعم، ولدان. أحدهما يعيش في مدينة تروندهايم، والآخر في أميركا، وهو جندي».

تابعا أكلهما، ثم فجأة وضع شوكته وسكينه بصخب يشبه ما كان يجري في بارأوي. نهض واتجه إلى الموقد الكهربائي، أحضر ركوة قهوة وسكب فنجاناً لإنغريد، ثم جلس وأخذ نفساً عميقاً بدا معه أنّ لديه خطّة ليبدأ حديثاً يستخدم فيه كل كلمات اللغة، غير أنّ شفتيه بقيتا مطبقتين.

عندما شبعت كايا، نظّفت إنغريد الطاولة كما لو أنها أحد أفراد العائلة، وتهيّأت لتجلي الصحون والملاعق. نهض هيرمان أيضاً وقال إنه لم يعش مثل هذه الحالة في حياته كلّها.

كانت نبرة صوته لطيفة هذه المرّة. وبيدٍ خشنة، واضحة العروق رغم سمرتها الشمسية الداكنة، ربّت بلطفٍ على وجه كايا، التي نظرت إليه

فورا، ثم قال مثل ربّ عملٍ يخاطب عامله، ينبغي أن أخرج إلى الغابة الآن وأقوم بعملٍ مفيد، فقد نما كلّ شيء من جديد هناك.

بعد أن حزمت إنغريد حقيبتها، وخرجت إلى الفناء وكايا بين ذراعيها، كانت ماريان في انتظارها. لقد كان الصيف في أوله والأعشاب والحشائش قصيرة جداً في هذه الجبال، وكانت ماريان تقف بالقرب من شابّين، بدا أنهما أخَوان ويشبهان شمعدانين لجنديين يرتديان سروالين قصيرين من الكاليكو الأسود وقميصين من الفانيلا الحمراء المنقوشة. سألتها ماريان ماذا تريدهما أن يفعلا بالدرّاجة. قالت إنغريد إنها لم تفكّر في ذلك، وإنها استعارت الدرّاجة من السمّان بنيامينسن في سكوروفاس.

«إذاً، أنت لا تفكّرين في العودة؟ أقصد إلى البيت!».

«كلّا»، قالت إنغريد.

فقالت ماريان إنّ أباها يمكن أن يعيد الدرّاجة، على جرّاره، إلى صاحبها في سكوروفاس، ثم أخذت كايا منها، وطلبت منها أن تلحق بها.

حمل أحد الشابّين حقيبة إنغريد، وسارت إنغريد خالية اليدين مثل ضيف شرف بين صفَّيْ أشجار البتولا التي تشبه غيوماً سوداء، ملأت بعد برهة السماءَ كلّها. كانت سقيفة القارب، المبنية بعيداً داخل الماء بطريقة خرقاء، أكبر مما بدت لها من المزرعة في الأعلى.

فتح الشابّان البوّابة، وأخرجا بالرافعة قارباً بطول عشرين قدماً تقريباً يشبه فردة حذاءٍ خشبيّ طويلة مطليّة باللون الأبيض، ووضعاه في الماء فوراً.

قالت إنغريد إنهما نسيا أن يضعا سدادة التصريف في مكانها.

ضحكت ماريان، وخطَتْ جانباً وكايا بين ذراعيها، وأشارت إلى بعض طيور البطّ التي كانت تدور حول القصب وسط الماء بالقرب من الشاطئ. نزح الشابّان الماء من القارب، وشغّلا المحرّك. أطلق المحرّك عاصفة دخان أسود ثم توقّف عن الدوران. جلست إنغريد على الحشيش وراحت تتفرّج على طيور البطّ، التي تشبه طيور العيدر، لكنّها أصغر منها ورؤوسها بنّيّة وزرقاء اللون، لكنّها لم تبطبط. وكانت بعض الورود البيضاء الكبيرة تطفو على سطح الماء، وعلى طول ضفاف البحيرة قصبٌ، وأوراق، وقطع خشب شبه متعفّنة تغرق وتطفو وقد غطّاها غبار أصفر.

جلست ماريان بالقرب من إنغريد وسألتها ما إن كانت تشتاق إلى بارأوي.

قالت إنغريد كلّا، لم يكن بوسعها أن تكون هناك الآن، فاجأها هذا الجواب الذي لم يكن بوسعها أن تعطي إجابةً أكثر وضوحاً وغموضاً منه في أيّ وقت سابق، ولا حتى عندما غادرت مالفيكا، على الأقل لم تكن قادرة أن تقول ذلك بصوتٍ عالٍ، كما قالته الآن.

«وماذا إن لم تجِدي أيّ شيء؟»، سألتها ماريان.

«أيّ شيء؟»، سألت إنغريد، وصمتتا.

نجح الشابّان في تشغيل المحرّك، الذي غصَّ مرّات عديدة وأطلق من عادمه دخاناً أزرق، ثم دخاناً أبيض وراء القارب. بعدئذٍ استقرّ هديره وأصبح خافتاً مثل خفقان قلب حيوان. وجاء هيرمان فولهايم نازلاً الهضبة بين ظلال أشجار البتولا وفي يده فنجان قهوة فارغ، وأعطاه لإنغريد كما لو أنه شيء عديم القيمة. تأملت إنغريد الفنجان، ولاحظت أنه أجمل من الفنجان الذي شربت به القهوة من قبل، عندما جلس بقربها أمام الكوخ.

شكرته إنغريد، ووضعت الفنجان في حقيبة ظهرها، حملت كايا وصعدت إلى القارب.

كان في القارب مقعدان طويلان على جانبيه. جلست إنغريد ووضعت قدميها على غطاء المحرّك، الذي كان يهتزّ. وشاهدت بالقرب منه صندوقاً خشبياً أزرق اللون يشبه صندوق لوفوتن في بارأوي، غير أنّ هذا مربّع الشكل وله مقبضان من الحديد اللدن.

صعدت ماريان أيضاً، وجلست على المقعد المقابل لتحافظ على توازن القارب. جلس أحد الشابين عند دفّة القيادة في مؤخرة القارب، بينما جلس الثاني على المقدّمة.

أدار رجل الدفّة ذراع علبة السرعة، فتحرّك القارب بلطف نصف دائرة في الخليج ثم انطلق باتجاه الشرق. لوّحتا لهيرمان فولهايم، وسألت إنغريد ماريان ما إن كانت رحلتهما طويلة.

قالت ماريان إنها أكثر قليلاً من ميلين. وكانت يداها تستقرّان في حضنها فوق الخريطة المطوية، ومن خيطٍ في رقبتها تتدلّى بوصلة. نظرت إنغريد إلى البوصلة مطوّلاً لكنّها لم تفهمها.

تونشوين بحيرة ضخمة، لكنّها لا تكشف عن حجمها الحقيقي إلا بعد أن يتجاوزها المرء ويرى الجبل الشاهق في منتصفها، جزيرة الله الشاهقة، جبل من الصخر الأزرق الغامق يرتفع خمسمئة متر فوق سطح البحيرة، جزيرة يزداد حجمها كلّما اقترب المرء منها، وفجأة تصبح عملاقة لدرجة أنّ المرء يستطيع أن يرى أشجار غابة الدردار على حافتها الجنوبية، ويشعر أنها ليست أكبر من أعواد كبريت.

صاحت ماريان من فوق غطاء المحرّك وأشارت بإصبعها. غيَّر رجل الدفّة الاتجاه واتّبع مسار الرؤوس الصخرية. وشاهدت إنغريد مزرعة صغيرة على سفح الجزيرة الجبلية، التي كانت في تلك اللحظة تشبه ضفة من الغيوم، ثم اختفت المزرعة فجأة. انحنت إنغريد فوق حافة القارب، غرفت بعض الماء بيدها وشربت، ضحكت ثم أعادت الكرّة. سألتها ماريان ما الذي تفعله. هزّت إنغريد رأسها ضاحكة، ورشّت الماء على وجه كايا التي كانت تضحك الآن، ثم غرفت لها قليلاً من الماء لتشرب، وكرَّت الساعات واحدةً تلو الأخرى دون أن يختفي هذا الجبل الصخري.

نزلتا على الشاطئ في أقصى شرق البحيرة، تركتا القارب بعهدة الرجلين، وتسلّقتا عبر غابة بتولا خفيفة الكثافة، ودخلتا فناء مقبرة كنيسة صغيرة، الكنيسة التي شاهدتاها على الخريطة، ويحيط بها جدار مغطّى بالأشنيات الخضراء والأعشاب المتعفّنة. كانت تفوح منها رائحة الغابة اللاذعة والتربة الحلوة. دفعت ماريان باب غرفة مطليّة باللون الأبيض، لكنّها وجدته مقفلاً. فقالت إنه كان مفتوحاً خلال سنوات الحرب، بحيث يستطيع السعاة واللاجئون أن يناموا هناك، وكان هناك موقد في مطبخ الكنيسة. وفجأةً سألتها ماريان ما إن كان لديها ساعة.

قالت إنغريد كلّا.

أخرجت ماريان من جعبتها صندوقاً من الورق المقوّى، فتحته وأخرجت بسبّابتها اليمنى سلسلةً تتدلّى منها ساعة رجالية، وناولتها لإنغريد، التي كانت تقف على بعد خطوة منها، وقالت إنها قد ملأتها في الصباح، وينبغي أن تملأها إنغريد كلّ يوم.

قالت إنغريد إنها ساعة ثمينة جداً، ولذلك لا تستطيع أن تأخذها.

«إنها ثمينة فعلاً»، قالت ماريان، ولذلك عليها أن تعيدها لها في طريق العودة، لأنها ساعة جدّها لأبيها.

ابتسمتا، ثم قالت ماريان إنها ستُريها الطريق بعد أن تأكلا.

جلستا على العشب، واستندتا إلى حائط المقبرة، ولاحظت إنغريد أنّ نبتة رقصة العجل الزاحفة قد نمت في الجدار، وهذه نبتة بحرية. وشرحت لها أنّ هذه النبتة، مثلها هي وكايا، لا تنتمي إلى هذا المكان. لم تفهم ماريان هذا التعليق أو أنها لم تسمعه، كما أنها لم تفهم شرب إنغريد للماء العذب أيضاً. كم هو غريبٌ أن يجد المرء نفسه مُبحراً في ماء يستطيع شربه.

قالت ماريان إنّ أمامهما بحيرة صغيرة أخرى، يسمّونها تونشوين الصغرى، بحيرة ضيّقة تمتد حتى الحدود تقريباً، وهناك يوجد كوخ صغير كان يستخدمه الجميع أيضاً أثناء سنوات الحرب.

«حسنٌ»، قالت إنغريد مترقّبة.

قالت ماريان إنه لأمرٌ غريب حقّاً أن تكون هنا ثانية، الآن حيث لا يوجد ما تخافه، وهذه هي المرة الأولى منذ سنوات طويلة تستطيع أن تسمع فيها صوت السكون في هذا المكان، السكون الذي تودّ بوضوح قول الكثير في وصفه، فقط لو تجد الكلمات المناسبة، أو القدرة على ذلك، وشعرت إنغريد بضرورة أن تقول إنها تفهم جيّداً ما قصدته.

نزلت ماريان أمامها إلى الضفة وطلبت من الرجلين أن يجرّبا العبور بالقارب عبر الممرّ المائي الضيّق. قالا بصوتٍ واحد إنّ هذا مستحيل، ولا بدّ أنها ترى ذلك بوضوح.

قالت ماريان إنه لا مشكلة، فهناك قارب آخر في تونشوين الصغيرة.

قادتهما عبر قناة ضيّقة، وهناك شاهدوا قارباً صغيراً تحت أيكة كثيفة، وكان مقلوباً رأساً على عقب. أنزلا القارب إلى الماء وركباه. جلست إنغريد وماريان على مؤخّرة القارب وهما تتناوبان على حمل كايا، بينما كان الرجلان يجدّفان في ماء أسود في مساءٍ أخضر، في قنال تضيق باستمرار، حيث كان مجدافاهما يجرّان وراءهما القصب وزنبق الماء، حتى وصلا منطقة أضيق حيث تتدلّى الأوراق بكثافة فوق سطح الماء لدرجة أنهم لم يستطيعوا رؤية الكوخ قبل أن تصطدم واقية مقدّمة القارب الحديدية بحصى الشاطئ.

لم يكن باب الكوخ مقفلاً، وكان فيه أسرَّة خشبية على طول الجدران، تغطّيها جلود الرنّة، وفي الوسط طاولة مثبّتة إلى الأرضية، وموقدٌ صغير، وبضعة أرفف صغيرة حُفِرت فيها أسماء بعض البشر. وكان هناك باب منخفض يفضي إلى غرفة داخلية. جلست ماريان، فقال أحد الشابّين إنهما لا يستطيعان البقاء هنا، فقد أصبح المساء قاب قوسين أو أدنى.

قالت ماريان إنهم سينامون الليلة هنا، فهناك بطّانيّات، ولديهم طعام في الصندوق، وغداً سترافق إنغريد إلى حدود السويد، وبعد ذلك تعود إلى فولهايم.

سأل الشاب الثاني بعصبية لماذا لم تقل هذا الكلام قبل أن يبدؤوا الرحلة، فليس أمامهما سوى هذا اليوم، وهما يعملان في بناء بيت في سكوروفاس. فقالت ماريان إنها لم تفكّر في ذلك من قبل.

تمتم الشاب الآخر متسائلاً لماذا إذاً جلبت معها كلّ ذلك الطعام، والبطّانيّات؟

التزمت ماريان الصمت. ثم أشارت إلى الباب الداخلي وقالت إنّ بوسعهما أن يناما هناك في الغرفة الداخلية، بينما تنام هي وإنغريد هنا بالقرب من الموقد، وسوف تكونان في أمان. نظر الشابّان أحدهما إلى الآخر باستسلام، وخرجا ليسحبا القارب إلى الشاطئ، ويُحضرا الصندوق الأزرق.

سألتها إنغريد متى قرّرت ذلك؟

«في مقبرة الكنيسة»، قالت ماريان.

فسألتها إنغريد ما إن كان ولداها مدفونَين هناك.

«أجل»، قالت ماريان.

فكّرت إنغريد في ذلك، وقالت إنها تودّ شكرها. لكنّ ماريان كانت قد أدارت لها ظهرها، وشرعت في ملء الموقد بالعيدان، وورق جرائد قديمة، وقطع حطب، من قفّة بجوار الموقد، ثم جثت على ركبتيها أمام الموقد، بينما مدّدت إنغريد كايا فوق جلد رنّة وبدأت تغيّر لها حفّاضتها، ثم استلقت بقربها وأغمضت عينيها. وعرفت أنّ كايا قد أغمضت عينيها أيضاً. وسمعت فرقعة النار في الموقد، كما سمعت ماريان تطلب من الشابّين إحضار المزيد من الحطب، وأن يملأا سطل الماء.

ودون أن تفتح عينيها، سألت ماريان ما إن كان ألكسندر قد نام هنا أيضاً؟

سألتها ماريان: «أتقصدين هنا أم في الكنيسة؟»، ثم أضافت إنهم استغرقوا أربعاً وعشرين ساعة في السير على الجليد، وكان الثلج كثيراً. لكنّها تعتقد أنّ المرحلة الثانية من العبور كانت أكثر صعوبة، وسيعرفان ذلك كلّه غداً.

سألتها إنغريد ما إن كان بوسعها الحصول على ماء للشرب.

قالت ماريان إنّ بوسعها الشرب إن أرادت، فسطل الماء والطاسة على المقعد بجانبها.

«كلّا»، قالت إنغريد، ثم نامت.

# - 14 -

من على وسادة القش التي تنام عليها، كانت إنغريد ترى خصلات شعر كايا الأسود، التي تنام بقربها تحت بطّانيّة صوف رمادية وضعها فوقهما شخصٌ ما. وتحت ضوء الشمس المتدفّق عبر شقوق ذلك الباب الأسود رأت حركة الغبار ورقصة الحشرات فوق أرضية الغرفة، وفأراً صغيراً يتجوّل بحرّيّة. وكانت دعامات السقف فوق رأسها مليئة بنقوش أسماء كاملة، والأحرف الأولى من أسماء عديدة. لكنّها لم تجد ما كانت تبحث عنه، وتساءلت ما إن كانت هي نفسها، مكان ألكسندر، فهل تترك وراءها أثراً هنا، أثراً يستطيع أن يتتبّعه الصديق والعدوّ، هذا السؤال ذاته الذي سألته لنفسها كلّما التقت شخصاً لا يتذكّر شيئاً يخصّ ألكسندر، هل تعمَّد ألّا يترك وراءه أدنى أثر يُقتفى؟ كما تساءلت عن حقيقة أنها استمرّت في البحث، دون سابق قصدٍ وتصميم، بصرف النظر عن الإجابات التي حصلت عليها. وخلصت إلى أنّ عدم وجود أيّ أثر تتبعه كان أمارة جيّدة، لكنّها كانت ستحفر اسمها في أحد هذه الرفوف، وتجعل مرورها هنا مرئيّاً، وربما أضافت بضع كلمات مهمّة، كأن تكتب: لقد كانت الطريق إلى الحرية قصيرةً جداً، إشارة لا لبس فيها ولا غنى عنها لمن كان سيتقفّى أثره.

لكنّها خلصت أيضاً إلى أنها ربما ليست مثله، وشعرت بخيبة أمل غريبة عندما تمتمت ماريان من حيث تستلقي: «أنت مرهقة جداً، هل تستطيعين متابعة الرحلة اليوم؟».

«نعم»، قالت إنغريد.

«تذكّري أن تملئي الساعة إذاً، واجعلي ملأها عادة يومية، أول شيء تفعلينه كلّ صباح!».

انقلبت إنغريد على ظهرها، وجدت الساعة، ملأتها، ثم سألت ماريان ما إن كانت قد تواصلت بعد ذلك مع أحد الثلاثة الذين عبروا الحدود مع ألكسندر، كما سألتها لماذا لا تسمّيه باسمه، ألكسندر، ما دامت تعرف اسمه؟

«كلّا»، قالت ماريان.

«لماذا؟»، سألتها إنغريد.

قالت ماريان إنها لم تلتقِ قطّ أيّاً ممّن ساعدتهم خلال السنتين الماضيتين، لكنّها تلقّت رسائل شكر من أربعة، أما الثلاثة والعشرون الآخرون فلم تسمع منهم، وربما نسوها هي والحرب أيضاً.

«أو ربما ماتوا»، قالت إنغريد. مكتبة سُر مَن قرأ

لم تجب ماريان. فسألتها إنغريد ما إذا كانت قد تذكّرت أيّاً من الأسماء المحفورة في خشب السقف، أو الرفوف. جاءت ماريان، واستلقت بالقرب منها وقالت نعم، ذلك الاسم، وذاك الاسم هناك، وذاك هناك لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من العمر، وأحد الأربعة الذين كتبوا لها رسالة شكر. ثم قالت إنها فهمت ما الذي كانت إنغريد تفكّر فيه وإنها كانت ستفكّر بشيء آخر.

أعدّتا طعاماً وأكلتا على أنغام الشخير الذي تسمعانه من الغرفة الداخلية، والتي اعتبرت إنغريد أنها كانت ستكون أصواتاً محبطة لولا وجود كايا، الجالسة على الطاولة بينهما، وهما تضحكان من حركة أصابعها، المرمر الأبيض السعيد غير العابئ لا بالحرب ولا بالسلم. فتلك الأصابع جعلت إنغريد تدرك بعمق، مرة أخرى، أنّ هذه المغامرة لم تكن من أجل عيون ريغيل فقط، بل إنها ما كانت ممكنة دون وجودها، ما كان ممكناً أن تستمرّ دون هذه الطفلة الصغيرة، أقدس الأعباء الإلهية.

غادرتا الكوخ دون أن توقظا الرجلين. حملت ماريان حقيبة إنغريد، وحملت إنغريد كايا، وسلكتا طريقا ريفياً، متعرّجاً ومغبرّاً، باتجاه الشرق، دون أن تلتقيا أحداً قبل أن تخبرها ماريان أنهما قد أصبحتا الآن داخل الحدود السويدية.

تلفّتت إنغريد حولها وقالت إنها ليست حدوداً كبيرة.

أومأت ماريان برأسها باتجاه شاخصة صفراء، بدا أنها قد تعرضت لإطلاق خردق غزير.

تابعتا سيرهما، خمسة كيلومترات أخرى، في الطريق ذاتها، ولم تَرَيا أحداً، ثم توقّفتا أمام بيت مطليّ باللون الأحمر، وله رواق مسقوف، وسقف جملونيّ، وعلى الدرجة الأولى من العتبة توجد خمسة أحذية، مختلفة المقاسات، مرتّبة بطريقة أنيقة.

طلبت ماريان من إنغريد أن تنتظر، ثم دخلت إلى البيت.

سارت إنغريد حول البيت فوق ممرّ مفروش بالحصى، واستمعت إلى أجراس الأغنام وهي ترعى، ولفت انتباهها وجود بحيرة كبيرة، بحجم

بحيرة تونشوين تقريباً، لكن دون جبل ساحر الجمال في منتصفها. خرجت ماريان ثانية، برفقة شابّ ناعس الوجه وحمّالتا بنطاله من الحبال. لبس في قدميه العاريتين أكبر الأحذية الخمسة، تمخّط بيده، وتنحّى جانباً عندما تقدّمت ماريان وأخبرتها أنّ عقبةً غير متوقّعة قد طرأت على مخطّطهما، فالرجل الذي كانت هي ووالدها تتعاونان معه، قد توفّي في الشتاء الماضي، وهذا ابنه، نيلس.

سألتها إنغريد: ما الذي يترتّب على ذلك؟

قالت ماريان إنهما لن تستطيعا أن تلتقيا الرجل الذي كانت هي ووالدها تتعاونان معه. لكنّهما الآن بالقرب من ضفة بحيرة كفارنبيرغ، وقد أبدى نيلس استعداده للعبور بها إلى جوديدّي، على الضفة الأخرى، المنطقة الأكثر كثافةً سكّانية، حيث كان يقيم الهاربون أثناء الحرب، وهناك أيضاً يقيم الرجل الذي استقبل الهاربين الأربعة، والذي تأمل أنه قد نجح في مساعدتهم على متابعة رحلتهم، لكن عليها أن تدفع مبلغاً صغيراً، عشرين كروناً نرويجياً.

شهقت إنغريد عندما سمعت رقم المبلغ الذي عليها دفعه.

«إنه سويدي»، قالت ماريان.

سألت إنغريد ما إذا ما كان بوسعها أن تعبر سيراً على الأقدام؟

فقالت ماريان إنّ الطريق شاقّ، وطوله أكثر من خمسين كيلومتراً، علاوةً على المطر في الطريق.

فكّرت إنغريد ثم سألت ماريان ما إذا كانت قد جاءت معها كل هذه المسافة إلى هنا من أجل أن تقنعها بالعودة إلى المنزل ثانية، أن تتخلّى عن مغامرتها، فهذا ما يبدو لها الآن.

قالت ماريان بتعابير ملتبسة إنّ هذا ما أمله والدها على الأقل.

«ماذا؟»، صاحت إنغريد.

قالت ماريان إنها فكّرت في إعطاء إنغريد تكلفة العبور، أوفي مرافقتها، لكنّها لم تستطع احتمال ذلك.

«ما الذي لم تستطيعي احتماله؟».

غمغمت ماريان شيئاً لم تفهمه إنغريد. فقالت إنغريد بسرعة إنها لم تستهلك الكثير من النقود التي كسبتها من بيع لحف العيدر، علاوةً على أنها قد كسبت بعض الكرونات مقابل العمل في متجر بنيامينسن، إضافةً إلى ثمن الحقيبة الجلدية.

التزمت ماريان الصمت، مرةً أخرى.

فتولّد لدى إنغريد انطباع بأنّ الخيار ليس خيارها فحسب، بل إنه ينبغي ألّا يكون أيضاً خيار ماريان في أيّ حال.

«لديّ كايا»، قالت إنغريد.

«نعم، أعرف ذلك»، قالت ماريان وهي مطرقة أرضاً.

سألتها إنغريد ما إن كانت واثقة من نيلس.

قالت ماريان إنّ والده كان رجلاً موثوقاً. ثم سألتها: «ما هو قرارك النهائي؟».

بالطبع، ستتابع إنغريد رحلتها، فلا شيء ينتهي بهذه الطريقة.

ذهبت ماريان، وتهامست هي ونيلس، ثم عادت وقالت لإنغريد إنه يريد أن يحصل على الأجر مقدّماً، لكنّها ينبغي ألّا توافقه.

ذهبت إنغريد إلى نيلس وقالت له، إنها ستدفع له نصف المبلغ مقدّماً، والنصف الآخر في نهاية العبور.

تضرّج وجه نيلس حمرةً، ونظر إلى ماريان مستنكراً، لكنّ ماريان لم تهبّ لنجدته.

قالت إنغريد إنه يمكن أن تُريه النصف الثاني من المبلغ كي يطمئن، ويضمن حصوله عليه في نهاية المطاف.

قال نيلس بلهجته إنه لا يفهمها. فصاحت ماريان بشيء لم تفهمه إنغريد أيضاً، وازدادت تعابير الريبة على وجه نيلس.

فسألت إنغريد: لماذا عليها أن تثق به، بينما هو لا يثق بها؟!

ضحكت ماريان، وترجمت له، فوجدها فرصة لينحني ويقطف عشبة، ويضعها في فمه ويمصّها.

سألته إنغريد ما إذا كان سيلبس جوارب.

نظر إلى ماريان مستفهماً، لكنّها لم تترجم له، بل أدارت ظهرها لهما وضحكت، فاستطاعت إنغريد أن ترى ظهرها من تحت الكنزة، التي أخبرتها في اليوم السابق أنها حاكتها لوالدها لكنّها كانت صغيرة عليه. كما لاحظت، في الضوء الذي وصلهما عبر الغيوم الداكنة التي تعبر فوق البحيرة وأحالت لونها إلى الرمادي، أنّ لديها بعض النمش على جانب عنقها. كما لاحظت أيضاً أنها رغم الندبة الصغيرة في وجهها فهي جميلة، امرأة جميلة لا تدرك جمالها ولن تدركه أبداً.

«هل ننطلق؟»، قالت إنغريد مخاطبةً نيلس.

# - 15 -

هطل المطر عليهم مثل هدير الرعد. رفعت إنغريد فوق رأسها مشمّعاً كبيراً، كان كافياً لحمايتها هي وكايا من المطر، ضمّت ركبتيها بقوّة إحداهما إلى الأخرى، وجلست تهمهم برتابة مع نغمة هدير محرّك القارب، الذي يجاهد لدفع القارب في ماء البحيرة. وكان نيلس يلبس كنزة صوفية سميكة فوق معطفه، وحذاؤه دون جوارب، والتصق شعره الرطب بجمجمته غريبة الشكل، ولم يتفوّه بكلمة واحدة.

كانت البحيرة الضخمة مندمجة مع الغابة، التي تظهر وتختفي مثل ملاءات رمادية، بعيدة، بينما تفكّر إنغريد في لحظة فراقها مع ماريان، حيث كانتا واقفتين على ضفة البحيرة، وفي لحظة خاطفة قرّرت ماريان، التي من الواضح أنها لم تكن معتادة على لمس الناس، أن ترفع يدها وتضعها على كتف إنغريد، وكان يفترض أن تتلقّى تلك اللمسة، في تلك اللحظة الحرجة، كتحذيرٍ أخير، لكنّ إنغريد تجاهلتها.

وجدت إنغريد نفسها جالسة ترتجف في قارب سويدي أبيض اللون بخدوش بنّيّة على حوافه ومقاعده العرضية، ومحرّك مكشوف يهدر بأعلى طاقته ويعنُّ وهو يشقّ طريقه بصعوبة عبر المطر الغزير، الذي ينهمر مثل

ستارة حبال رمادية من كلّ الجهات في بريّة لا نهائية. ورأت الماء يعلو ويطفو فوق مقدّمة القارب، لكنّها لم تتفوّه بأيّ كلمة، كما لم يُبدِ نيلس أيّ ردّ فعل. كما سمعت ماريان تصرخ، عندما انطلق القارب، باسم رجل ينبغي أن تسعى للقائه في غوديدي، في سولفاين، بيته أخضر اللون وفي نافذته الأمامية ورود، وهي لا تتذكّر رقم البيت، لكنّها تتذكّر الورود، كما أوصتها أن تقرأ الورقة التي أعطتها لها.

بعد أن قطعوا قرابة نصف المسافة في البحيرة بدأت كايا تعنُّ. وبدا أنّ نيلس قد اعتبر ذلك نذير شؤم، ففتح فمه وصاح ببضع كلمات، ربما قال إنّ ذلك لا يجوز. وفي اللحظة التالية أوقف المحرّك فتوقّف القارب ساكناً تحت مطر يبدو أنه لن يتوقّف.

صاحت إنغريد بلغتها إنّ هناك مضخّة عند مقدّمة القارب.

وضع يده على الأسطوانة النحاسية وقال إنه من المفترض أنها لا تعمل.

أحنت إنغريد جذعها إلى الأمام، وسحبت مسكة سيخ المضخّة، فلم تجد عليه أيّ أثر للوقود. ولم تكن هناك ريح، ولا أصوات نسورٍ، ولا يابسة في مرمى البصر. أعاد نيلس تشغيل المحرّك وغيّر المسار. بعد بضع دقائق دخلا خليجاً صخرياً، حيث لاح لهما في الغابة كوخٌ خشبيّ لتخزين التبن، بحجم أعلى البيوت التي شاهدوها في الجزر الصغيرة في البحيرة. نزل نيلس إلى الشاطئ وتناول من إنغريد الحقيبة وكايا، التي كانت تصرخ ملء حنجرتها.

لم يكن في الكوخ موقد، بل بعض التبن الجاف نسبياً، وركوة قهوة،

يغطّيها السخام، متدلّية من مسمار في الجدار، وبعض جلود الرنّة القديمة فوق دكّة سوداء تبيّن أنها بقية باب، وكان السقف في مؤخرة الكوخ يدلف.

بدّلت إنغريد ثياب كايا المبلّلة، وهدهدتها قليلاً، وبعد فوات الأوان سمعت هدير محرّك القارب مرة أخرى. لم تخرج لترى القارب يختفي عن النظر، لأنها أدركت لسببٍ ما أنه لن يعود أبداً.

أخذت إنغريد بعض التبن الجاف وخرجت، جمعت بعض الأغصان من تحت الكوخ، وانتقت مكاناً تحت إفريز السطح بعيداً عن الباب. تأكّدت أنّ الدخان لن يدخل إلى الكوخ، ثم أشعلت ناراً. ولأول مرة منذ مغادرتها بارأوي، شعرت إنغريد بالخوف.

لقد خافت من قبل، في البحر، مرّات عديدة، لكن كان هناك سببٌ وجيه لخوفها، أما هنا فلا يوجد سوى المطر والبريّة الساكنة.

أخرجت دمية كايا، التي كانوا يسمّونها بونكين، على اسم إحدى القطط التي اقتنوها في بارأوي، ووضعتها في حضنها. أشرق وجه كايا، وأمسكت الدمية بكلتا يديها. ثم صنعت ما بدا أنه سرير في التبن، وغطّتها بالتبن، أم أنها كانت تدفنها؟

أبقت إنغريد النار متّقدة لتنشيف الثياب، سخّنت ماءً في ركوة القهوة، وأعدّت طعاماً، ثم جلست تنظر إلى الخريطة التي أعطتها لها ماريان، وكذلك الورقة، التي كتبت فيها بخط واضح جداً اسمَيْ شخصين، وأين يمكن أن تجدهما إنغريد في تلك البلدة ذات الاسم المستحيل. وكتبت أيضاً عنوانها الشخصي، ولا شيء آخر. شعرت إنغريد أنّ ذلك لا يكفي. أعادت قراءة الورقة ثلاث مرات، لكنّها لم تجد أيّ معلومات أخرى.

# - 16 -

استلقت إنغريد مستيقظة حتى حلّ الهدوء قرابة منتصف الليل، هدوء لا يبعث على طمأنينة النفس أكثر من الصخب. ألقمت النار مزيداً من الحطب، ثم نامت قلقة، تحت أغطية رطبة، واستيقظت عندما سقطت أشعة الشمس على وجهها. قرّبت وجهها من أنف كايا، وعندما شعرت بأنفاسها على وجهها، نهضت، ملأت ساعة هيرمان فولهايم ثم أعدّت طعاماً ريثما استيقظت كايا. تمطّطت طويلاً، ثم بدأت تمشي في المكان.

اختارت إنغريد درباً على الخريطة يصعد من شاطئ البحيرة إلى الطريق الرئيس. انتظرت مؤشّر البوصلة المرتجف حتى استقرّ في مكانه، عندئذٍ انعطفت باتجاه الشرق دون أدنى فكرة واضحة، وأمضت بقية النهار تمشي في طريق حصوي تحوّل تدريجياً إلى طريقٍ مغبرّةٍ، تحفّ بها عن الجانبين غاباتٌ كثيفة، منخفضة، ثم عبرت نفقاً من أوراقها إلى طريق سقفها السماء الزرقاء.

لم تكن تمشي بخفّة الآن، بل كهاربةٍ مسعورةٍ يصعب إرضاؤها. ولم تعد كايا ذلك الحمل الإلهي المقدّس، بل غدت عواءً لا يتوقّف. ودخلتا عبر نفق أشجار مستقيم بدا لا نهائياً، كما بدا أنّ الخطوات لا تقودهما إلى

الأمام ولا إلى الوراء. توقّفت إنغريد، نظرت في الأدغال حولها، ثم تابعت سيرها، توقّفت مرة أخرى، وغسلت حفّاضة كايا في جدول ماء أسود، لكنّها لم تستعد طمأنينة البال.

علّقت الحفّاضة مثل راية على حقيبة ظهرها، وتابعت سيرها حتى لاح لها هدف غائم الملامح في المدى. لكن تبيّن أنه مجرّد زاوية حادة تُفضي إلى نفق آخر لانهائي أيضاً. جلست مرة أخرى وأكلت بسرعة كأنها تسابق الزمن. بدأت كايا بالبكاء من جديد. حزمت إنغريد أشياءها وتابعت سيرها وسط أسراب من البعوض، واختارت بنوع من التحدّي أن تسير في متاهة مستقيمة كالسهم، وكلّ دروبها تفضي إلى نهايات مفتوحة. كان نبضها يسابق ذاته. وعرقها يتصبّب بغزارة. هشّت البعوض عن كايا بواسطة حفّاضة رطبة. وكانت الطريق المستقيمة أمامها مثل التي وراءها. سارت والهلع يرافقها خطوة بخطوة، وكانت على وشك أن تنفجر باكية عندما لاح لها فجأةً بيتُ مزرعةٍ منعزل، أحمر الطلاء، ثم بيتٌ آخر. لكن لا أثر لبشر في المكان.

واصلت سيرها ومرّت بمنعطفين آخرين، ثم شاهدت مزرعة أخرى أكبر من الأولى، ولاحت لها أشكال بشر، غير واضحة المعالم، على أطراف الغابة أمام حظيرة غير مطليّة. تابعت سيرها، وسمعت صوت منشار شجر، كانت الغابة تتضاءل من حولها ثم حلّت محلّها حقولٌ. رأت فوقها طيوراً محلّقة، وشاهدت حصانين يرعيان عبر مرج زهور، توقّفا ومدّا رأسيهما من فوق سياج مهدّم، بحيث استطاعت إنغريد أن تلمسهما وتشعر بدفء الحيوانات، عرفت أنها قد وصلت، وكانت كايا قد توقّفت عن البكاء.

مضت أكثر من ثماني ساعات على إنغريد وهي تسير، وكانت قدماها تؤلمانها، ووزن كايا يثقل ركبتيها، عندما دخلت مترنّحة بين مجموعة بيوت على شكل صندوق مفتوح حول طريقين تتقاطعان بزاوية قائمة، لكنّها لم ترَ بشراً هناك. وعلى تلّة مرتفعة غرب التقاطع شاهدت برج كنيسة مهيباً، تحفّ بها أشجارٌ مهيبة أيضاً، وبدا كل شيء هاجعاً في سبات عميق، عند قدمي هذا النصب السماوي الذي جذب إنغريد مثل مغناطيس.

صعدت التلّة بما تبقّى في جسدها من طاقة، ودخلت المقبرة فرأت مشهداً لم تكن لتحلم به من قبل، أحواض زهور بديعة ومقلّمة ببراعة، وأسناناً حجرية سوداء وبيضاء، وصلباناً، وأسماء بلا وجوه أو تواريخ. جلست وأسندت ظهرها على لوح إردوازي، فتلت كايا كي تتجنّب نظراتها، ثم أغمضت عينيها.

عندما فتحت عينيها ثانية، كانت الشمس منخفضة فوق رؤوس الجبال في مسقط رأسها، وتحوم فوق سياج الكنيسة الغربي المقلّم. وكانت هناك شاخصة بيضاء تحمل اسم الأبرشية والبلدية معاً «فروستفيكن»، فالخلاص ليس فقط لإنغريد وكايا، بل لثلاثة مقاومين نرويجيين، وأسير حرب روسيّ ذي يدين محروقتين، مهندس من لينينغراد. لقد مضى الآن خمسمئة وتسعة وسبعون يوماً على تلك الليلة عندما استلقت إنغريد في الصالة الشمالية وهي تحتضن يديه المحروقتين بين يديها، لقد كانت فكرة مشجعة هنا في أول مكان تلتقط فيه أنفاسها في هذه الرحلة الطويلة، والآن بوسعها أن تنظر في عيني كايا من جديد، إضافةً إلى أنها لاحظت أنّ كايا قد نامت دون أن تلاحظ ذلك.

نهضت ونزلت إلى البلدة، طرقت أول باب، لم يُفتح. طرقت الباب

الثاني وسمعت أين يمكن أن تشتري طعاماً، لكن غداً لأنّ المتجر قد أقفل اليوم. تابعت سيرها حتى رأت ورداً في نافذة بيت من الطوب الأخضر، وكان سقفه وجدرانه بحاجة إلى ترميم. طرقت الباب، لم تسمع ردّاً، فطرقت مرة أخرى، وسمعت صوت خطوات ثقيلة، ثم رأت النور من شقّ الباب، وعينين على مستوى ركبتيها تحدّقان فيها، وسمعت كلاماً لم تفهمه. عرّفت بنفسها وشرحت سبب وجودها هنا. انصفق الباب وسمعت بعض الصراخ في الداخل، كان صوت رجل. ثم خيّم الصمت. طرقت الباب مرّةً أخرى، بقوّة وشراسة وبكلتا يديها، حتى لم تعد تعرف نفسها، بعدئذٍ عادت إلى البيت الذي عرفت من سكّانه أين تشتري طعاماً، وسألتهم أين يعيش الطبيب ديفيد هوبنر، والاسم الثاني المكتوب في ورقة ماريان.

دلّوها على تقاطع طرق عند نهاية الشارع، هناك يوجد بيت من طابقين، مطليّ باللون الأحمر، نوافذه وسور سطحه الجملوني حديثة الطلاء، أمامه جدار حجري نمت عليه الحشائش، وفوقه شاخصة طرقية تشير إلى الطريق إلى النرويج. في الداخل بالقرب من البيت توجد شجرة كبيرة تدلّت أغصانها بكثافة فوق المنزل، فبدت كأنها تضع يدها عليه.

طرقت إنغريد على الباب.

فتحت الباب امرأة كبيرة، خمسينية، تلبس الأبيض وكأنها ممرّضة أو طبّاخة، عيناها كبيرتان وودودتان، وفي عينها اليسرى حَوَلٌ طفيف. وتظهر خصلات شعر أحمر فاتح من تحت قلنسوتها الأكثر بياضاً من زيّها.

لم تفهم المرأة ما قالته إنغريد، لكنّها قالت بضع جمل كرّرت فيها عبارة أنّ الدكتور مشغولٌ، وسألتها ما إن كانت الطفلة مريضة. فهمت إنغريد سؤالها وأجابت: «كلّا، كلّا». أغلقت المرأة الباب، وغابت.

سمعت إنغريد صوت دوران مفتاح في قفل الباب، فعرفت أنها قد وصلت إلى نهاية الطريق. نزلت الدرج وجلست على مقعد تحت شجرة، وكايا في حضنها. أطعمتها، وأعطتها ما تبقّى لديها من حليب. لكنّ إنغريد لم تأكل، بل لعبت مع كايا ودميتها القماشية، يونكين، حتى غطّت في النوم بين ذراعيها.

بدأ المطر يهطل من جديد.

رفعت إنغريد المشمّع المطري فوق رأسيهما، وبقيت جالسة على المقعد، ممتنّةً لكلّ لحظة تمضي دون أن تستيقظ كايا. سمعت نافذة تُفتح خلفها، وصوتاً ينادي. لم تلتفت إنغريد، ولم تردّ. بعد قليل، انفتح الباب، وسُمِع وقع خطوات ثقيل على العشب. توقّف أمامها رجلٌ متوسط العمر يلبس بزّةً صوفية رمادية، وقميصاً أبيض، وربطة عنق زرقاء، كان يضع يداً في جيبه، واليد الأخرى في حالة استعداد لمصافحتها. سألها باللغة النرويجية عن حاجتها، وكيف يستطيع أن يساعدها.

بدأت إنغريد تروي حكايتها من جديد، لكنّها تعثّرت في البداية، ثم صمتت، وأشاحت بوجهها خشية أن تنفجر بالبكاء أمامه. بقي الرجل واقفاً ثم قال بعد قليل: «حاولي، مرّةً أخرى!».

حاولت إنغريد ثانية. أخيراً وضع يده الأخرى في جيبه، وتنقّل في وقفته على قدميه، ريثما انتهت إنغريد من حكايتها، ثم رفع يده إلى ذقنه وقال إنها ينبغي أن تدخل معه إلى البيت.

«سأحمل الحقيبة».

دخلت إنغريد إلى ممرّ مظلم تتدلّى من سقفه ثريّا، وعلى جدرانه صور في إطارات، سوداء بيضاوية، ومن ثم إلى ممرّ مكسوّ بورق جدران، يفضي

إلى غرفة ثلاثة من جدرانها مغطّاة بأرفف الكتب، وفي الجدار الرابع مدفأة حجرية نارها متّقدة.

طلب منها هوبنر أن تجلس، وقال إنّ سابينا ستأتي بالطعام قريباً، ثم جلس في كنبة، بجانب طاولة دائرية، وبقي جالساً يتطلّع أمامه في الفراغ، فشعرت إنغريد بضرورة أن تقول شيئاً ما، حتى لو من أجل أن توقظه.

سألته عن البيت الأخضر ذي الزهور في نافذته.

قال هوبنر: «هناك كان يعيش نيكولاس، المسكين التعس»، ثم عاد إلى صمته حتى جاءت سابينا بصينية فيها شرائح خبز بالزبد، فناجين، وركوة قهوة يتصاعد منها البخار، وقالت إنّ على إنغريد أن تخلع معطفها المطري، وكنزة الصوف، التي كانت تلبسها تحت المعطف، ثم ناولتها جوربين صوفيين وطلبت منها أن تلبسهما، وسألتها، باللغة السويدية، ما إن كانت كايا تريد شرب بعض الحليب؟

قبلت إنغريد العرض ممتنّة، وشاهدت ملابسها تختفي مع سابينا التي خرجت وأغلقت الباب وراءها، كأنها تُغلق علبة مجوهرات. فتح هوبنر فمه وقال إنه ربما لن تحبّ إنغريد ما سيفصح عنه، غير أنه سيقوله على أيّ حال، ما جعل قصّته تبدو أكثر أهمية بعد تعبير الريبة هذا.

ما حدث هو أنه عندما استعدّ الرجال الأربعة لمغادرة بيت فولهايم عبر بحيرة تونشوين، هطل ثلجٌ غزير، فوصلوا متأخرين عن موعدهم مع نيكولاس على الجانب السويدي من الحدود، فما كان منه إلا أن عاد إلى بيته.

نظرت إليه إنغريد متلهّفة لسماع المزيد.

قرّر الرجال النرويجيون متابعة طريقهم، على الرغم من أنهم لا يعرفون

المنطقة، حتى وجدوا كوخاً بجانب بحيرة كفارنبيرغ. وهناك وجدهم نيكولاس في اليوم التالي، في حالة يرثى لها. لكنّ نيكولاس شكّ في أنّ أحدهم عميل ألماني، ولذلك رفض مساعدتهم في العبور.

حدّقت إليه إنغريد.

قال هوبنر إنّ النرويجيين غضبوا جداً، وهاجموا نيكولاس، لكنّه استطاع أن ينجو منهم.

«ثم؟»، قالت إنغريد.

أخذ هوبنر نفساً عميقاً وقال إنه لم يعلم بما حدث إلا بعد نهاية الحرب، لأنّ نيكولاس لم يقل عن ذلك الأمر أكثر من أنّ الرجال النرويجيين لم يأتوا في موعدهم المحدّد.

أرادت إنغريد أن تقول «ثم» مرة أخرى.

وذات يوم في الخريف الماضي جاء أحد المناضلين النرويجيين إلى جودّيدي وقتل نيكولاس في بيته، بمطرقة، لأنه اعتبره مسؤولاً عن خسارتهم لأحد الرفاق المقاومين. لأنه بعد الخلاف عند بحيرة كفارنبيرغ عاد الرجال الأربعة إلى تونشوين، ومن هناك انطلقوا إلى الجنوب على طول الحدود الجبلية على الجانب النرويجي، حتى وصلوا إلى مزرعة تدعى كلايفا، حيث حصلوا على مساعدة من سكّانها النرويجيين.

«لكن عندما وصلوا إلى هناك، كانوا ثلاثة فقط»، قال هوبنر برصانة، ونظر إلى إنغريد بصمت ثم ختم كلامه بدعوتها للهدوء، لأنّ روسيّها كان أحد الناجين الثلاثة، وأنه لا يعرف أكثر من ذلك.

مضغت إنغريد بهدوء شريحة الخبز بالزبد، وأطعمت كايا، ثم سألت هوبنر عن مدى معرفته لماريان وهيرمان فولهايم.

«أعرفهما جيّداً»، قال هوبنر، لقد عملنا معاً طيلة فترة الحرب، وقد قام هيرمان بأكثر من خمسين رحلة في تونشوين، وأغلبها بقارب تجديف، وأنقذ حياة الكثيرين، وماريان أيضاً.

سألته إنغريد ما إن كان يعتقد أنّ هيرمان وماريان قد عرفا بسوء التفاهم هذا بين الفارّين ونيكولاس.

«أشكّ في ذلك» -قال هوبنر بالسويدية- «لكنّي لست متأكّداً».

سألته إنغريد، ما إن كان يعتقد أنها، مع كل هذه الإجابات المراوغة، قد تستطيع معرفة الحقيقة؟

تفاجأ هوبنر، وصمت مفكّراً في كلامها، كأنه يعطيها فرصة لتندم على ما قالته، لكنّه لم يرَ في تعابيرها ما يوحي بذلك، فقال بنبرة قاطعة: «أنت تمشين على طريق ضمير سيّئ، يا صديقتي الصغيرة!».

«ماذا؟»، قالت إنغريد.

قال هوبنر، على حدّ فهمها، إنّ احتلال النرويج كان ذا طبيعة خاصة جداً، وكان هناك متعاونون في أماكن كثيرة، وقد لطّخ ذلك التعاون سمعتهم، والآن يحاول الناس أن يمحوا تلك الوصمة، البلد يغسل يديه من تلك الوصمة. نعم، والكثيرون ممن قاوموا الاحتلال يعرفون أنه كان بوسعهم فعل المزيد، ولذلك لا يرغبون في أي شيء يذكّرهم بذلك.

فكّرت إنغريد في ما سمعت وشعرت أنه كلام منطقي. قالت إنها سعيدة لأنه أخبرها بما كان يعرفه.

فقال هوبنر إنها لا تبدو سعيدة.

تجاهلت كلامه، وقالت إنها كانت خائفة اليوم، لكنّها لم تعد خائفة الآن، وسألت ما إن كان هوبنر قد سمع أيّ شيء آخر عن روسيّها؟

«في الواقع، كلّا»، قال هوبنر مراوغاً. ثم أضاف إنّ الناجين الثلاثة الذين ذهبوا جنوباً إلى قرية نوردلي، تلقّوا مساعدة من ساعٍ آخر، ويمكن أن يعطيها اسمه وعنوانه. كما أنه يمكن أن يساعدها في الذهاب إلى هناك، غداً صباحاً.

«في النرويج؟».

«أجل، في النرويج».

شكرته إنغريد وسألته ما إن كان يعتقد أنّ كلّ الذين التقتهم في طريقها، كانوا يلقون الغلالة فوق عينيها بهذه الطريقة؟

حدّق فيها بدهشة، لكنّه لم يسعَ إلى انتزاع ندمٍ منها، هذه المرّة، بل صاح: «أنت غير معقولة!».

سألته إنغريد ماذا يقصد بقوله: أنت غير معقولة؟

قالت إنغريد إنّ الناس كانوا يخبرونها ترّهات لا معنى لها، وسألته عن رأيه في ذلك؟

ابتسم ولوّح بذراعيه، ثم قال: «أعتقد أنك على حقّ».

سألته إنغريد كم يُريد مقابل مساعدتها على العبور إلى نوردلي، وسألته ما إن كانت تستطيع أن تمضي الليلة في بيته، وكم يكلّفها ذلك أيضاً. وعندما لم يُجِبها، سألته ما إن كان قد سمع بالسفينة ريغيل. وهذه لم يسمع بها هوبنر، لم يسمع بها على الإطلاق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# - 17 -

صباح اليوم التالي، لم تسنح الفرصة لوداع الطبيب الذي كان مشغولاً بمعاينة مرضاه. استيقظت إنغريد مرتاحة ومتيبّسة قليلاً، لكن مع بقية خوف بسبب الغابة والمطر، فكانت بحاجة إلى أن تقف وتشعر ببرودة أرضية الغرفة في أخمصَيْ قدميها.

كانت كايا مستيقظة في مهد الأطفال متقن الصنع وتلعب مع دميتها. رفعتها إنغريد بين ذراعيها وقالت لها: بعد شهرين من الآن تُتمّين عامك الأول، يا طفلتي، وعليك أن تتعلّمي المشي الآن، فقد تعلّمته أنا عندما كنت في شهري العاشر، وتعلّمه لارس في شهره السابع!

كان للغرفة المليئة بالأثاث ستائر سميكة مربوطة من وسطها، الأمر الذي جعل إنغريد تفكّر بوجود نساء أخريات غيرها هنا، وتسمح الستائر برؤية محدودة لمرجٍ عشبيّ قد جُزَّ حديثاً، وصفَّين من شجيرات الفاكهة على مدّ النظر، ولم يتبقَّ أمامها سوى أن تبدّل حفّاضة كايا، وتُلبسها ثيابها، وترتدي هي ثيابها، ثم تملأ ساعة هيرمان فولهايم.

كانت سابينا قد أعدّت الفطور، وجلست تأكل معهما. لم تتوقّف عن

الكلام، حتى وهي تمضغ طعامها، بصرف النظر عمّا إذا كانت إنغريد تفهم أم لا، فالأمر الأهمّ، على ما يبدو، أنّ هناك شيئاً قد قيل. وفكّرت إنغريد أنّ سابينا لم تكن سيّئة، لكن لها عيوبها أيضاً، وبدا لها أنها كانت تتكلّم ما تتكلّم عنه لتتجنّب الكلام عن شيءٍ آخر، كانت كلماتها تشبه صخوراً داعمة أُلقيت في سدّ كي تحول دون انهياره في أيّ حال من الأحوال.

أظهرت سابينا اهتماماً متزايداً بكايا أثناء الفطور، لاغتها ودغدغتها، وعندما حان وقت رحيلهما، لأنّ وسيلة النقل بانتظارهما، قالت إنها لم ترَ قطّ مثل هاتين العينين الجميلتين، كما فهمت إنغريد. وبدا أنها قالت ذلك بارتياح عميق، كما لو أنه كان الأمل الوحيد الذي استطاعت منحه لإنغريد قبل أن تغادر هذا المكان غير الواقعي، حيث تعلو أولوية الموت على الحياة.

صعدت إنغريد إلى صندوق الشاحنة، وجلست تغمرها أشعة الشمس البيضاء، وكايا في حضنها، ومن حولها صناديق خشبية مليئة بطعام سويدي معلّب، وأكياس سكّر، وصناديق كرتونية فيها ستائر مخازن. وعلى يسار الشاحنة المهتزّة تخيّلت أربعة هاربين يشقّون طريقهم عبر برّيّة يغطّيها الثلج، بينما كلّ شيء أخضر الآن، وكانوا بلا طعام، وقد مات أحدهم، وكان نرويجياً، بينما تابع روسيّ ونرويجيان آخران طريقهم، ثلاثة رجال من المفترض أنهم لا يستطيعون التواصل في ما بينهم، بالأحرى النرويجيان لا يستطيعان التواصل مع الروسي، فكيف استطاعوا بناء الثقة في ما بينهم، وكيف نجحوا في الاتفاق على قراراتهم؟

مرّت الشاحنة بجوار مرعى مسيّج بأسلاك شائكة، وكان السائق يقود

بتهوّر، ولم تستطع إنغريد أن تعرف ما إذا كان يشتم أو يصيح مبتهجاً، بينما كانت كايا تنظر إليها بابتسامة حيرى. لقد دخلوا حدود النرويج، وحاولت إنغريد أن تشعر بذلك، لكنّها لم تشعر بشيء، وأدركت أنّ عليها أن تعتاد من جديد ألّا تفهم، دون أن يقلقها ذلك، وكأنه كان من الممكن أن تفكّر في ما لا يمكن تصوّره. أو أن تكفَّ عن الشعور بما شعرت به. ما الذي تفعلينه بي يا صغيرتي؟ قالت وضمّت كايا إلى صدرها بقوّة.

وصلوا إلى قرية نوردلي تحت رذاذ مطر خفيف. أشار السائق إلى مزرعة راؤولد هوغمو، الذي كانت إنغريد قد سجّلت اسمه أثناء حديثها مع هوبنر في غودّيدي. ولأول مرة شعرت، دون أدنى شكّ، أنها لم تُستقبل كمفاجأة غير مفهومة، بل كشخصٍ مُنتظرٍ، وكان مضيفها رجلاً بسّاماً في أواخر أربعينياته، لحيته سوداء مُشذّبة بعناية، عيناه تفيضان حيوية واهتماماً، وقد فقد زرّاً وسط قميصه الفانيلا ذي المربّعات، الذي كان قد حشره تحت خصر سرواله كيفما اتفق.

عندما قادها عبر مدخل معلّق على جداره هاتف، لم تفكّر إنغريد قطّ أنها قد شاهدت مثله أيضاً في بيت فولهايم، وأنّ الطبيب لديه تلفون في بيته، طبعاً. بل خطر لها ذلك لأول مرة عندما شاهدت ماريان، وهيرمان فولهايم والطبيب هوبنر الذي غادرت منزله قبل بضع ساعات فقط، جالسين حول طاولة طعام في غرفة معيشة فلّاحية مكتظّة بالعديد من الخزائن المنقوشة بالورود، والأواني المنزلية، وقطع الأثاث المكدّسة على طول الجدران مما جعل الغرفة تبدو مثل مخزن لأشياء فاخرة خرجت من الخدمة.

كانت زوجة راؤولد هوغمو، كاتينكا، موجودة أيضاً، ورحّبت بها

بلطف، وكان هناك ولدٌ صغير، قدّرت إنغريد أنه طفلهما، ربما في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر، نهض عندما دخلت إنغريد وغادر وعلى وجهه ابتسامة ساخرة.

طلبت كاتينكا من إنغريد أن تجلس. تردّدت إنغريد كما لو أنها تتجنّب الوقوع في فخّ، رغم أنها لم تستطع أن تخمّن ماذا يمكن أن يكون، لكنّها جلست، على أيّ حال، وأجلست كايا أمامها على الطاولة، مثل حجّة، مع شعورها أنها أمام محكمة وجوهها تلبس أقنعة مألوفة لها، رغم أنها أقنعة مراوغة وكلٌّ منها يحاول عبثاً أن يجعلها تشعر بالراحة.

لم تنظر ماريان في وجهها مباشرة، رغم أنه لم يكن لدى إنغريد حرجٌ من النظر إليها. اصطنع هيرمان فولهايم ابتسامة جديدة، لم تناسبه، رغم أنّ نظرة عينيه الزرقاوين الصبيانية بقيت هي ذاتها. وبدا أنّ الطبيب هوبنر يستأنف تفحّصه الصامت الذي بدأه ليلة أمس، فحص قضية إنغريد ماريا بارأوي. فقط الوجهان الجديدان، راؤولد وكاتينكا هوغمو - كانا غير معروفين لها.

وهما أيضاً من افتتح الجلسة، إذ سألتها كاتينكا ما إن كانت جائعة، وأخبرها راؤولد أنهم قد اجتمعوا هنا لمساعدتها، لأنها تهدر حياتها، وحياة ابنتها أيضاً، في التجوال في البرّيّة بهذه الطريقة. وبدا أيضاً أنها تدمّر حياة راؤولد هوغمو أيضاً، وفهمت إنغريد أنّ هذا الاجتماع كان من ترتيب هوبنر، وأنّ هيرمان فولهايم وابنته ماريان قد جيء بهما من مزرعة فولهايم خلال الليل.

فتحت ماريان فمها وكرّرت كلام هوغمو حرفياً.

سألتها إنغريد لماذا لا تنظر إليها عندما تتحدّث إليها، وهذا ما كانت

ترغب في أن تسألها عنه منذ أن كانت عندهما في فولهايم، وقد سألتها الآن.

لاذت ماريان بالصمت.

كانت ترتدي ملابس مختلفة عن ملابسها عندما افترقتا بالقرب من بحيرة كفارنبيرغ، كما لو أنها قد تجمّلت، وكانت الكنزة التي حاكتها لوالدها تتدلّى الآن فوق كتفي الرجل القلق الذي لا يتوقّف عن اللعب بلحيته المشذّبة. قرّرت إنغريد أن تقبل عرض الطعام - وفي اللحظة التالية انهالت عليها التحذيرات من حول الطاولة:

عندما تنتهي الحرب، والحمد لله أنها انتهت ويجب نسيانها، تستمرّ الساعة في الدوران، وما ضاع لا يمكن استعادته... وتكرّرت مراراً عبارة أنها ينبغي أن تفكّر بابنتها.

كانت إنغريد عاجزة عن الكلام.

قال فولهايم بشيء من الخجل إنّ الروس ما عادوا حلفاءنا، أما البريطانيون فما زالوا، وتحدّث عن معاناة الروس الكارثية، وعن خمسة عشر مليون أوروبي ما زالوا مشرّدين حتى الآن... لاجئين.

لم يكن لدى إنغريد ما تقوله حول ذلك أيضاً.

«ينبغي أن نتعلّم النسيان»، قال فولهايم.

«ماذا؟»، قالت إنغريد ونظرت إلى ماريان، ثم قالت إنها تتذكّر اسمَيْ ولدَيها، ولن تنساهما أبداً.

نهضت ماريان وصرخت إنّ هذا لا علاقة له بما يقال الآن، وإنه لا أحد منهم، ربما باستثناء هوبنر، يعلم ما هو الحزن.

لم توضح لماذا وحده هوبنر يمكن أن يفهم الحزن أكثر من الآخرين،

لكنّ الطبيب اعتبر كلامها تشجيعاً له وبدأ يتكلّم عن طبيعة الحزن، كما سمّاه، مصاعب المصالحة داخل النفس البشرية، وجعل كلامه يبدو كوعظ إنجيليّ وإرشادات تعليمية.

ردّت إنغريد قائلة إنها كابدت الحزن وتعرفه، وهذا لا علاقة له بالقضية الآن، وإنّ ألكسندر ما زال حيّاً.

«كيف عرفت ذلك؟!»، صرخت ماريان، وركضت خارجة من الغرفة.

تبعتها إنغريد بنظراتها، وشعرت بوخزة في أسفل ظهرها، وحدّقت في وجوه الحاضرين واحداً واحداً، وسألتهم ما إن كانوا يحتجزونها باعتبارها حمقاء؟ وما هو الشيء الذي يخفونه عنها؟

ردَّ هوغمو بسرعة: كلّا، كلّا، وأكّد لها أنّ الروسي قد غادر من هذا المنزل برفقة أحد المقاومين، الذي عرض أن يخبّئه في مزرعته.

«أين تقع تلك المزرعة؟»، سألت إنغريد.

«ممم... بالقرب من رووروس».

«وأين تقع رووروس؟».

تبادل الآخرون النظرات، وسألت كاتينكا لماذا عرّض هذا النرويجي حياته للخطر من أجل الروسي.

«لأنه شيوعي»، أجابها هوغمو وهو مستاء من سؤالها الذي بدا أنه أجاب عنه سابقاً، وأضاف إنه فقد الاتصال مع الرجل، ولم يردّ على رسائله.

أطلق هيرمان فولهايم ضحكة ساخرة. فالتفتت إليه إنغريد، وقالت: «ألم تنعتني بالمجنونة؟!».

«هوّني عليك، لقد غيّر رأيه!»، قالت ماريان التي كانت قد عادت الآن.

جلست على كرسي بجوار إنغريد، فأصبحتا الآن جالستين كتفاً إلى كتف. «ولهذا السبب هو الآن هنا. أنت...».

«أنا ماذا؟»، قالت إنغريد.

«أنت طبيعية» -قال فولهايم- «لكن هناك شيء غير صحيح...».

سألته إنغريد ماذا يقصد.

حاول بصوت خجول أن يشرح لها كيف شعر بالقلق عندما وصلت إنغريد إلى مزرعته، لكنّه أضاع الفكرة، وحدّق الآخرون، مُحرَجين، كلٌّ في اتجاه.

انحنت ماريان فوق الطاولة، ووضعت يدها على يد والدها، ثم سحبتها فجأة، نهضت واقفة، وأدارت ظهرها للجميع لكن دون أن تغادر الغرفة. نهضت كاتينكا أيضاً، وتمتمت ببعض الكلمات عن الليفسر بالزبد الذي أعدّته لإنغريد، لكنّها بقيت واقفة مكانها. قال هوبنر إنّ الصدمات مكافِئة للذاكرة مفرطة النشاط، إذ يعتقد المرء أنه يتذكّر جيّداً، لكنّ الحقيقة بخلاف ذلك، هذا وهْم، هنا في الداخل، قال ووضع إصبعه على صدغه.

سأله فولهايم بعصبية، ماذا يقصد بكلامه هذا.

قالت إنغريد إنه ينقصهم الآن، نيلس، الذي أنزلها على الشاطئ في منتصف البحيرة، وتركها هناك، وهرب بالكرونات العشرة التي أخذها منها.

سأل هوبنر من يكون نيلس، وبعد شرح متعثّر من ماريان، قال إنه لا يعرف نيلس، لكنّه يعتقد أنّ أباه كان شخصاً جيّداً، أليس كذلك؟ أما بالنسبة لنيكولاس...

«أو، نعم، وهذا غائب أيضاً!».

«ماذا تقصدين؟»، قال هوبنر.

«لا أعرف»، قالت إنغريد وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

قالت ماريان: «ماذا قلت أنا؟!».

نهض هوبنر وراح يمشي في الغرفة وهو يتكلّم ويؤشّر بيديه معبّراً عن شكّه في وجود سفينة سجناء -عبيد- روس تعرّضت للقصف من قبل البريطانيين، وتسبّبوا بكارثة بحجم كارثة التايتانيك...

سألت كاتينكا ما هي التايتانيك.

فهمس هوبنر في أذن كاتينكا كلمة، من الواضح أنها أهانتها.

قال هوبنر إنه لا أحد من الموجودين قد سمع عن ريغيل، وهي قصة غير قابلة للتصديق، ثم قطّب جبينه وسأل إنغريد ما إن كانت قد بنت قصتها ومغامرتها على وهمٍ؟

«كلّا، كلّا، الروسي موجود!»، قاطعه هوغمو مستاءً.

«كيف عرفت ذلك؟ هل تتحدّث أنت اللغة الروسية؟!».

لقد دحض هوغمو حجّة هوبنر، وقالت كاتينكا انتظروا، ثم ذهبت إلى المطبخ تاركةً وراءها صمتاً مكهرباً، دام حتى عادت وبين يديها صينية عليها أقداح وزّعتها على الطاولة.

تناولت إنغريد قطعة ليفسر، وقصمت لكايا بضع لقيمات، وسألت الطبيب لماذا تجشّم عناء السفر إلى نوردلي كي يقول لها ما كان بوسعه أن يقوله عندما كانت في بيته ليلة أمس؟

تنهّد هوبنر وقال إنّ إنغريد لفتت انتباهه، بالطريقة التي تطارد فيها شيئاً لا وجود له.

«الروسيّ حيّ يُرزق»، قالت إنغريد.

«وهي جميلة أيضاً»، قالت ماريان ساخرة وهي تنظر إلى هوبنر.

رفع هوبنر عينيه إلى السماء، وصمت.

مضغت إنغريد لقمتها بسرعة، ثم نهضت وسألت كاتينكا ما إن كان لديها بعض الحليب من أجل كايا. «طبعاً»، قالت كاتينكا. ثم سألت إنغريد عن اسم ذلك الرجل، الذي تطوّع لإيواء ألكسندر في روروس.

صمت الجميع.

أعادت إنغريد سؤالها، الذي بدا واضحاً أنه أحرج كاتينكا - التي راحت تتجوّل في الغرفة وهي تُري كايا المخزن اللامتناهي للذكريات التاريخية لعائلة هوغمو، ولفت انتباه إنغريد وجود زهور في النافذة هنا أيضاً، في أصص رمادية وزرقاء، من النوع الموجود في بارأوي أيضاً. فسألتها ما إن كان هذا من النوع الذي يُزرع في السويد والنرويج أيضاً.

قالت كاتينكا إنّ الزهور يجب أن تُسقى وتبقى في الخارج، غير أنّ راؤولد يعتقد أنّ وجودها في الداخل أجمل.

سأل هوبنر، مستاءً، ما الذي تتحدّثان عنه الآن. استدار هوغمو نحو الزهور، متجاهلاً كلام هوبنر، وقال إنّ والدته أحبّت أن تحتفظ بالزهور في النافذة، ثم انتقل دون توقّف إلى ذكر اسم رجل مقاوم كتب له العديد من الرسائل، رجل صعب المراس، كان رجلاً حزبياً في فينمارك، وسجّلت إنغريد اسم الرجل.

«لكنّ الروسي كان رجلاً لطيفاً» -أضاف متفكّراً- «فهو لم يتذمّر قطّ».

«كلّا، لم يشتكِ قطّ» -قالت كاتينكا- «وكان يأكل بلباقة».

«كان يحب الوافلر»، قال هوغمو بابتسامة عميقة.

«كان يحب كلّ شيء»، قالت كاتينكا.

«هكذا كان الثلاثة»، قال هوغمو. فسأله فولهايم مغتاظاً ما إن كان حزيناً لأنّ الحرب قد انتهت، ولماذا على وجهه تلك الابتسامة البلهاء؟

«كلّا، كلّا، هل أنت أحمق؟!» ردَّ هوغمو بسرعة، فنظر هيرمان فولهايم إلى إنغريد وقال لها بيقين قاطع إنها لا يمكن أن تثق بذلك الرجل الحزبي، ثم التفت إلى هوغمو ثانيةً وصرخ محتجّاً: «لذلك تخلّصت منهم بسرعة إذاً!».

«كلام فارغ»، صاح هوغمو.

«وأيَّ طريق سلكوا؟!».

نظر هوغمو إلى زوجته مستنجداً.

«سلكوا الطريق إلى الجنوب على طول الحدود»، قالت كاتينكا.

«ولماذا لم يذهبوا مباشرة إلى السويد؟».

بدا هوغمو مشتّتاً، وقال: «لا أعرف».

«بلى، تعرف جيّداً».

«أبي!»، صاحت ماريان.

«وكيف سافروا؟».

«على الزلّاجات».

«وهل يستطيع ذلك الروسي التزلّج؟!».

«لقد درّبناه على التزلّج في الليل، وقد تعلّم بسرعة وبراعة».

هزّت كاتينكا رأسها مؤكّدة كلام زوجها، الذي نظر إليها بازدراء، فارتدّت إلى الوراء بارتباك، أعادت كايا إلى إنغريد، ثم خرجت.

تابع هيرمان فولهايم قائلاً: «وهل عبروا عشرة أميال على الزلّاجات، قبل العبور إلى المرحلة الثانية؟».

«أبي!»، صاحت ماريان مرّةً أخرى.

«هناك كوخ في الغابة»، قال هوغمو بتحدٍّ.

«لا تتغابَ! لقد أرسلتهم إلى الموت».

«هذا غير صحيح!»، قال هوغمو.

«والرجل الثالث في المجموعة، ما الذي فعلتما به؟».

تطلّع هوغمو بنظرة معذّبة إلى هوبنر، الذي أخذ المبادرة ثانيةً وقال باللغة السويدية: «نعم، لقد جاء إلينا الرجل.. أليس كذلك؟».

لاذوا جميعاً بالصمت، فنهض هيرمان فولهايم، الذي كان قد استنزف كلّ طاقته، واتجه إلى النافذة وحدّق عبرها من فوق أصيص الزهور الأزرق، بينما كانت ماريان تنظر إلى ظهره نظرة فولاذية. همست إنغريد: «وكنت تعرفين هذا كلّه، طيلة الوقت؟!».

«كلّا»، قالت ماريان.

«أوه، اخرسي!»، قال فولهايم وهو ينظر إليها في زجاج النافذة.

«ربما نجحوا في العبور»، قالت ماريان وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

«اخرسي!» -صاح فولهايم مرة أخرى- «لقد ماتوا بالتأكيد. ولهذا السبب لم تتلقَّ ردّاً على رسائلك، يا راؤولد. لا بدّ أنهم مدفونون في مكان ما في الجبال، أقصد ما تبقّى منهم».

ارتجفت ماريان وبكت أمام الجميع. نظرت إليها إنغريد بدهشة، ثم نهضت وفتحت باب المطبخ وسألت كاتينكا، بصوتٍ عالٍ، ما إن كان

بوسعها أن تغسل حفّاضات كايا؟ طبعاً، قالت كاتينكا، ثم جاءت وأخذت بيدها كملاكٍ مخلِّصٍ، سارت بها إلى خارج المنزل ثم عبر مرج أخضر يشبه كثيراً المرج المجزوز الذي شاهدته في مقبرة الكنيسة في السويد، بينما كانت إنغريد تتساءل ما الذي أصاب ماريان، وفكّرت أنها ينبغي أن تتذكّر هذا، وكلّ تعبير، وكلّ كلمة، وكلّ صوت، مثل كلّ تلك الحروف في كتاب ما زالت غير قادرة على فهمه.

دخلتا ما سمّته كاتينكا حمّاماً، غرفة بجدران بيضاء، بجانب كوخ قطراني اللون، كوخ التقاعد الذي كان يعيش فيه والدا راؤولد هوغمو، كما فهمت إنغريد من كاتينكا التي كانت تتكلّم دون توقّف. كان في الغرفة حوض غسيل، لوح غسيل خشبي، ولوح من الألمنيوم، وآخر من الزجاج، معلّقين على الجدار مثل لوحات فنية فوق مِرجل فيه ماء ساخن. حملت كاتينكا كايا، بينما كانت إنغريد تغسل الحفّاضات، وقالت من ضمن كلامها المتدفّق إنها ينبغي ألّا تأخذ بكلام الرجال.

سألتها إنغريد: لماذا؟

بدا أنّ كاتينكا قد اعتبرت السؤال غير جدير بالإجابة.

فسألتها إنغريد ما إن كانت تعتقد أنّ كايا تشبه الروسي؟

«أجل»، قالت كاتينكا، فقد كان في عيني كايا ما يجعل المرء يعرفهما، سواء كان قد رآهما من قبل أم لا.

سألتها إنغريد بنفاد صبر: ماذا تعني؟ فقالت كاتينكا إنها لا تزال تستطيع أن ترى في مخيّلتها ابنتها هناك على العشب، أوضح بكثير مما رأت الأطفال الآخرين، وإنّ الوضع لم يكن كذلك من قبل.

«قبل ماذا؟».

«قبل الحرب». وكأنّ الحرب قد غيّرت أيضاً كل ما حدث قبلها. سمعت إنغريد ضربات أجنحة الطيور، وشعرت بيدي الروسي المعطوبتين فوق ردفيها، وعلى ظهرها وذراعيها، وشمّت رائحة البحر في البخار المتصاعد من حوض الغسيل، ورائحة القرّيص، وأعشاب البحر، والمستنقع... بينما همهمات الجلسة المروّعة في المنزل الرئيسي لا تزال تدوّي في أذنيها. ثم سألتها ما إن كان ألكسندر قد استطاع الإمساك بعصيّ التزلّج؟

أومأت كاتينكا برأسها بقوّة، ثم وضعت كايا على طاولة الكوي، وشرحت لإنغريد كيف ربطت يديه إلى عصاتي التزلج، وأنه ذهب وبحوزته زوجان من الأحزمة، وكان قويّاً. ثم أضافت إنه كان صغيراً جداً، وقالتها بلهجة تشي بأنه كان أصغر كثيراً من إنغريد.

حملت كايا ثانية، وضحكت كما لو أنها كانت ابنتها هي، أو كأنّ كل الأطفال أطفالها، وسمعتها إنغريد تقول إنها يمكن أن تعطيها بعضاً من مدّخراتها الشخصية، بحيث تستطيع أن تتابع رحلتها، وإنها يمكن أن تعدّ لها زوّادة للطريق.

«إذاً، أنت لا تعتقدين أنه ميت؟!».

«كلّا، بالتأكيد». وهذا ما قصدته بقولها إنّ على إنغريد ألّا تأخذ بكلام الرجال.

سألتها إنغريد ما إن كانت قد أمضت الكثير من الوقت في الجبال في فصل الشتاء.

لم تجبها كاتينكا، وسألتها إنغريد ما إن كانت تستطيع أن تنام هناك، وحدها دون أن تضطرّ للتحدّث إلى أحد. قالت كاتينكا إنها تفهم، وبدا أنها

شعرت براحة عميقة، فبيت والدَيْ هوغمو فارغ، والآن تشرق الشمس، وهكذا ستجفّ الملابس. وسمعتا هدير محرّك سيارة الطبيب هوبنر، بدا الصوت قوياً في البدء، ثم أصبح بعيداً واختفى. تهاوت إنغريد فوق كرسي محفور في جذع شجرة، واسترخت بلا حراك. سألتها كاتينكا ما إن كانت بخير.

أكّدت لها إنغريد أنها على ما يرام.

وشعرت أنها قذرة من كلّ هذا الماء الذي لا يُنظِّف.

# - 18 -

كانت ساعة هيرمان فولهايم تشير إلى الرابعة صباحاً، عندما نهضت إنغريد ماريا بارأوي في الكوخ في مزرعة هوغمو، نارٌ في عينيها، ورملٌ في فمها، وما تزال أصوات هوبنر وهوغمو وفولهايم تصمُّ أذنيها.

لبست بصمتٍ، لم تأكل، وخرجت من الكوخ بالحقيبة على ظهرها وكايا، النائمة، في اللفافة على بطنها - ووجدت نفسها أمام ماريان فولهايم الواقفة حافية، وكبيرة، في مرج الحشيش النديّ، مرتديةً فستاناً صيفياً خفيفاً لم ترَه إنغريد من قبل، وفي يدها صرّة رمادية تشدّها إلى بطنها، وكانت تسدّ الطريق عليها.

قالت إنغريد إنها كانت تتوقّع أن ترى والدها.

قالت ماريان لو كان الأمر متروكاً له، عندئذٍ... حسناً.

أعطتها الصرّة وقالت إنه فستان، كي لا تبدو متشرّدة عندما تصل إلى البيت، لأنك ذاهبة إلى البيت. أليس كذلك؟

«نعم».

عرضت ماريان أن تسوق بها إلى البيت.

لاحظت إنغريد، مرّة أخرى، النمش على عنقها وكتفيها، وفكّرت ثانية أنها امرأة جميلة لن تعرف أبداً أنها جميلة. قالت لها إنها لا تريد أن يسوقها أحدٌ إلى أيّ مكان، لا هي ولا والدها، وكل ما ترغب فيه هو أن ترحل، وبقيت ماريان واقفة، تنظر كعادتها إلى مكانٍ آخر.

سألتها إنغريد ما إن كانت تريد أن تستعيد ساعة والدها؟

«لا بدّ أنك تمزحين!».

ربّتت ماريان على أنف كايا بخفّة كي لا توقظها.

سألتها إنغريد ما هي إشكالية ذلك الرجل الذي أخذ معه ألكسندر؟

قالت ماريان على مضض إنّ كلّاً من الألمان وعميلهم رينان قد اخترقوا صفوفهم، وهكذا كان من الحكمة أن يشكّ المرء في الناس أكثر ممّا يثق بهم، لكن ربما أصبحت تلك عادة من الصعب التخلّص منها.

قالت إنغريد إنها فهمت الأمر.

قالت ماريان إنها تشكّ في ذلك، وإنه ربما عرف الألمان كيف يستغلّون مشكلة انعدام الثقة تلك.

«أفهم ذلك»، ردّت إنغريد وقالت: «على الأرجح إنّ هوبنر قد سلّم بوجود ألكسندر، لكنّه يشكّ في أنه روسي ومن سفينة ريغيل، وإنّه كان يعتقد أنه ألماني. أليس كذلك؟».

هزّت ماريان رأسها ببطءٍ.

«وهل صدّقه نيكولاس؟»، سألت أنغريد.

«أعتقد ذلك».

قالت إنغريد شيئاً أملت أن يكون آخر ما تقوله، وهو أنه ليس كلّ

الآخرين مثل ماريان ووالدها، وأنها في بداية مغامرتها سافرت مع رجل لديه كلبٌ كبير جداً، وبدا أنه كان يتكئ عليه ليرتاح عندما يشعر بالتعب.

قالت ماريان إنّ إنغريد قد أخافتها الآن بهذا الكلام.

قالت إنغريد إنه كان الرجل الوحيد الذي قال لها بصراحة إنّ ألكسندر قد مات، وإنه من غير المحتمل أن يكون قد عبر الجبال في الشتاء، وتبيّن أنه كان مخطئاً.

«حسنٌ، لكنّ هذه الجبال أكبر بكثير»، قالت ماريان.

سألتها إنغريد ما إن كانت هي أيضاً تعتقد أنه قد مات؟

أطرقت ماريان أرضاً، قالت إنها تعتقد ذلك، ثم أضافت إنها لا تستطيع أن تجزم بذلك، وإنّ كلّ ما تعرفه هو أنّ ألكسندر قد غادر هذه المزرعة مع ذلك الرجل المتطوّع، ومنذ ذلك الوقت لم يسمع أحدٌ عنهما خبراً.

كان لدى إنغريد سؤال آخر، عن الرجل الذي مات في الطريق من تونشوين إلى هنا، كيف مات؟

«لا أعرف»، قالت ماريان.

شكرتها إنغريد ماريا بارأوي، ودون أن تقول أيّ كلمة أخرى، غادرت فناء المزرعة، كايا على بطنها، الحقيبة على ظهرها، والفستان تحت إبطها، ونزلت طريقاً مغبرّاً، قذراً، تغطّيه قطرات الندى المتلألئة، انعطفت باتجاه الغرب دون أن تنظر وراءها، ولم تسمع أيّ صراخ أو احتجاج. كسرت الصمت زقزقةُ عصفور. وسقطت أشعة الشمس على وجهها عند قمّة أوّل تلّة. ورأت أمامها في الأسفل امتداد منظرٍ طبيعي لغابة صغيرة وبحيرة ساكنة مثل بلاطة في الأرض.

عندما غابت العينان اللتان كانت تشعر بهما في ظهرها، ولجت أول

دربٍ في الغابة وجلست على جذع شجرة، وبكت حتى رأت في ساعة فولهايم أنه قد مضت ست عشرة دقيقة. صمتت الأصوات. سقطت الصور وتكدّست واحدةً فوق الأخرى. التفاصيل. الرموز. نظرت في الخريطة وعرفت مكان وجودها. رفعت كايا أمام وجهها، نهضت ثم سارت عائدة إلى الطريق، وأحسّت بالارتياح عندما شعرت بثقل الحقيبة التي وضَبتها لها كاتينكا.

# - 19 -

تجري الأنهار في شبه الجزيرة الإسكندنافية منحدرةً من العمود الفقري بين مملكتي السويد والنرويج، وتفصلهما بما يشبه شكل عمود فقري مُعوَجٍّ لسمكة. نزلت إنغريد الطريق على طول مجرى نهر ساندولا النرويجي، هسهسة بعيدة لمياه زجاجية خضراء على طول الجذور الغليظة لغابة تنّوب تشبه أسنان منشار متدلّية من جبال شديدة الانحدار. وعبر هذا الوادي ذاته يمتدّ طريقٌ كثير المنعطفات لدرجة يبدو معها أنه غير جديرٍ باسمه. وكانت إنغريد تختبئ عند سماعها هدير محرّك، ثم تعود ثانيةً للسير على الطريق الحصوية بعد أن يسود الهدوء. وقد أحصت ستّ سيارات، وباصين فارغين، غير أنها لم تنتبه إلى عربة خيل يركبها رجلٌ عجوز، محنيّ الظهر، صاح من بعيد إنه من غير المفيد أن يعرض على السيّدة خدمة توصيل، لأنه ذاهب إلى تلك الأرض هناك. وعندما تجاوزها، شكرته إنغريد وتمنّت له يوماً طيّباً. كان حصان العربة يمشي الهوينى، واختفى عن ناظريها ببطءٍ قبل أن يسود الهدوء مرة أخرى.

شاهدت قليلاً من الطيور التي التفتت ولاحقتها بنظرها، لكن لم يكن بينها نوارس، أو طيور خرشن، أو غاق، فقد كانت تسير في مملكة صامتة.

لكن كان هناك ذباب، وبعوض، وذباب الخيل، وغبارٌ، وغبار طلع تحت غيوم خفيفة كالريش لا يمكن أن توجد إلا في مناطق جافة كهذه. واستعادت قدماها زخم الرحلة - فسارت واستراحت، ثم سارت حتى انعطفت عن الطريق وجلست على بقعة حشيش لم يجلس عليها أحدٌ قبلها. وسألت كايا ما إن كانت جائعة، وما رأيها بهذا الصمت، وما إن كانت تريد العودة إلى بارأوي أو أن تبحث عن والدها؟ أسئلة كان من الضروري طرحها على طفلة لا تستطيع الإجابة عنها - لقد وصلتا إلى جزء سحريّ من رحلتهما، منطقة بيضاء على الخريطة.

سارت إنغريد ثلاثة كيلومترات أخرى، ثم جلست تحت شجرة تنّوب تشبه خيمة لم يجلس فيها أحدٌ قبلها، فرشت بطّانيّة صوفية على الأرض، وجلست تنظر إلى كايا وهي تحبو، وأطعمتها خبزاً وحليباً، وسجقاً، وسمكاً مدخّناً... وكان هناك قطرميز مربّى يشبه جوهرة، وكأس فولهايم الذي لا يشبه شيئاً. خلعت حذاءها ودلّكت قدميها، ثم انقلبت على ظهرها ورمشت بعينيها في هواءٍ عابق برائحة تراب الطريق وصمغ الأشجار، ثم حملت كايا من تحت إبطها الأيمن وقالت لها من جديد إنّ عليها أن تتعلّم المشي، لتركض وراء والدها، وراء الطيور، والخراف، والعجول.

ضحكت كايا واستلقت بجانبها وحدّقت عالياً في إبر الصنوبر حتى انطبقت جفونها. عندئذٍ استطاعت إنغريد أن تنام أيضاً، دون أحلام. واستفاقت من شدة البرد، فوضعت فوقهما البطّانيّة الأخرى. كانت الشمس حينئذٍ منخفضة في الشمال الغربي، وقد هجعت الحشرات، وأصبح صوت النهر أقرب، ثم عادت إنغريد إلى نومها دون أحلام.

كان وزنا كايا والحقيبة متقاربين، وهكذا اضطرّت إنغريد أن تسير مشدودة الظهر، وهي أثقل بخمسة عشر كيلو غراماً من وزنها، وكان عليها أن تتوقّف للاستراحة على طول التسعة وستين كيلومتراً المتبقّية إلى مفترق الطريق الثاني، سكّة الحديد الأسطورية تلك، التي عمل فيها والدها عندما عصف الفقر بالجزيرة.

مثل كلّ المتسكّعين، وجدت إنغريد أنّ أولئك الذين جاؤوا إلى مكان واستقرّوا فيه، يخافون أكثر ممّن يأتي بعدهم، لأنهم قد بنوا شيئاً يخافون الآن فقْده. لكنّ إنغريد امرأة أيضاً، إضافة إلى أنها تحمل طفلة فوق بطنها. وهكذا حصلت على حليب في مزرعة، وخبز في أخرى. وفي منتصف الطريق كان هناك بيتٌ صغير، وكانت مضطرّة لعبور فنائه، عندما خرج منه رجلٌ عجوز وقال لها: «ماذا تفعلين؟!».

«أنا أمشي»، قالت إنغريد.

«إلى أين؟».

وهكذا اضطرّت أن تحكي حكايتها لشخصٍ آخر لا تعنيه، شخص أعمى، أراد أن يعطيها هدية، سكّيناً هي نسخة طبق الأصل من السكّين التي وجدها كارل تحت جذع شجرة في جبال كونغسمو.

لكنّ إنغريد لم تكن بحاجتها، فهي لديها سكّين والدها.

«انتظري، انتظري!»، قال الرجل وسحبها من يدها إلى غرفة صغيرة معتمة حيث تستلقي زوجته العجوز فوق سرير كبير مربّع الشكل، التي حدّقت إليهما بعينين صغيرتين، متوهّجتين، وكأنها تفتّش عن حياة، ومدّت صوبها يداً معروقة جدّاً.

لم تضطرّ إنغريد لقول من تكون ولماذا كانت هناك، واكتفت بإمساك

يدٍ بشرية معروقة وباردة مثل جذور شجرة، وأرتها كايا التي ضحكت للعجوز، فابتسمت العجوز لها كاشفةً عن فم أدردَ، بعدئذٍ تابعت إنغريد رحلتها سالكةً الطريق المتعرّج ذاته، ونامت تحت شجرة تنّوب أخرى تشبه خيمة.

استيقظت كالعادة، وقد تعافت من النعاس وتعب الرحلة، وسارت الكيلومترات الأخيرة المتبقّية والغبار يتطاير من حول حذاء عمّال المناجم الذي تلبسه، ووصلت إلى محطة السكّة الحديد، التي تغيّر اتجاهها هنا في هذا المكان -فورموفوس- بعد مبنى مطليّ باللون الأحمر وعلى جداره الجنوبي كومة من الحطب.

وهنا يفرض الواقع نفسه على الرحلة مرة أخرى.

فالسكّة الحديد لا تعترف بالشكّ، ولا بالمساومات، فهي تذهب إمّا شمالاً وإمّا جنوباً، وتقدّم لإنغريد فقط هذه المعضلة المستحيلة، فإمّا أن تسافر عائدةً إلى البيت خائبة الرجاء، وإمّا أن تتابع مغامرتها في ساحة معركة السلام المُربكة هذه، مدفوعةً بأمل كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد ذلك الاجتماع العاصف في مزرعة هوغمو.

لكنّ إنغريد لا يزال لديها التحدّي، الذي استمدّته من البحر، في مواجهة كلّ أولئك الناس الذين يريدون الخير لها، أو لأنفسهم، ومن الصعب أن نقول إنّ التحدي هو كتلة غضب صغيرة قاسية تغلّفها كتلةٌ من الأفكار الصوف، والسؤال الوحيد الآن هو ما إن كان ذلك كافياً.

بجوار كومة الحطب يوجد مقعد. وهناك رجلٌ ببزّة رسمية ينام جالساً على ذلك المقعد في الشمس، وهو يقاطع ذراعيه فوق صدره، ورأسه بنّيّ

الشعر متكئٌ فوق كتفه الأيمن، واللعاب يسيل من زاوية فمه، وقد شمّت إنغريد رائحة الكحول المنبعثة منه.

فتح أولاً إحدى عينيه، ثم الأخرى، وقفز واقفاً وهو يشعر أن ليس بوسعه أن ينتزع النوم من وجهه بطريقة لبقة كفاية، ثم نظر إلى الساعة على جدار المحطة، فسألته إنغريد ما إن كان القطار يذهب إلى رووروس. فتمتم بنعم وكلّا، وبدا فجأة أنه قد لاحظ وجودها ثانية، فأضاف: لكن عليها أن تبدّل القطار في مدينة تروندهايم، وهذه عقبة غير قابلة للتذليل.

«حسنٌ»، قالت إنغريد.

فسألها ما إن كانت حقاً تعرف أين هي ذاهبة، فحدّقت فيه بنظرة تساؤل متردّدة، ولاحظت وجود لوحة سهمية بجوار شاخصة المحطة، وقد كُتب عليها: فورموفوس 64 متراً فوق مستوى سطح البحر، وسألته ما إن كان في المحطة تليفون.

«أجل، وتلغراف أيضاً».

سألته ما إن كان أحدٌ قد هاتفه مؤخّراً.

فبدا عليه الارتباك.

جلست إنغريد على المقعد، أخرجت كايا من اللفافة فوق بطنها، وسألته ما إن كان يعرف أحداً في نوردلي.

«نعم»، قال دون تفكير، وبدا أنه قد ندم على إجابته، فسألها مرة أخرى ما إن كانت ستذهب فعلاً إلى رووروس.

«كم ثمن التذكرة إلى هناك؟».

قال إنه سيتأكّد من الثمن، لا أحد يسافر إلى رووروس، لكنّه بقي واقفاً

مكانه، يتنقّل فوق قدميه وقال ما زال هناك وقتٌ طويل على وصول القطار، وإنّ القطار المتجه شمالاً يصل أولاً، وسألها ما إن كانت لا تفضّل ركوبه؟

ابتسمت إنغريد وسألته عن اسمه.

قال إنّ اسمه هانس كفولي.

قالت إنّ اسمها إنغريد. أنهى الحديث وقال: «لا أحب أن أحشر أنفي في ما لا يعنيني». ثم انفتح بابٌ وانغلق. وكذلك توقّفت إنغريد، أو ربما وجدت شيئاً آخر تفكّر فيه، رغم أنه لم يكن واضحاً تماماً بعد، لكنّه سرعان ما يَتبلْوَر.

# - 20 -

بُنيَت محطة السكّة الحديد بفنّ سحرٍ سياسيّ وإرادة لا تُقهر، بطموح وطنيّ مخطّط، على الغطرسة والإرهاب، وقد كلّفت أموالاً باهظة وجهوداً لا إنسانية خلال عهدَي السلام والحرب والسلام مرة أخرى. لقد بُنيَت على ظهور آلاف العمّال النرويجيين، ومثلهم من جثث الروس واليوغسلافيين، الذين هلكوا تحت وطأة هذا العمل، لدرجة استحقّت معها اسم سكّة الدم، لأنّ تلك هي الحقيقة. وقطار الشمال الذي يقترب من المحطة الآن، يمكن سماع صوته من مسافة بعيدة جداً وخارج مجال العين البشرية، مثل هسهسة، أو هدير جرف جليدي في الأفق، مترافقاً مع صفرات بوقه، ووميض أضواء تحذيرية وقعقعة عجلاته الحديدية التي لا مكان لها بين تلك الجبال عن جانبيه، خاصةً عندما يقترب من المحطة هادراً، وتعنّ مكابحه، وينشر عن جانبيه الشرر وعصف الدخان الأسود.

ما عادت المحطة مهجورة، فقد امتلأت بهمهمات رجال ونساء وأطفال، جاؤوا فرادى وزرافات على أقدامهم، بالسيارات، بعربات الخيل، وعلى الدرّاجات، تجمّعات صغيرة بهيئات وثياب نظيفة وقفوا

متعرّقين تحت أشعة الشمس الحارقة، وبدا أنهم ينتظرون وصول قطار يغيّر مجرى حياتهم.

نزل من القطار رجلٌ عجوز، بقبّعة قماشية على رأسه، وحقيبة على ظهره. لم يحظَ بأيّ تحيّة أو عناق. فقط أمٌّ وطفل صغير سارا وراءه في ثياب الأحد النظيفة أيضاً، وكان يحيط بهم رهطٌ من الكبار والصغار، الذين كتموا ترحيبهم به قدر الإمكان، كما لو أنهم خجلوا من البوح به.

يصعد القطار شخصٌ واحد فقط، رجل كبير يلبس بزّة سوداء، يخلع قبّعته، عند أعلى الدرج إلى القطار، ويلوّح بها مرة واحدة، دون أن يلتفت إليه أحد. يبتلعه باب العربة الأخيرة في القطار. ويتبادل مدير المحطة هانس كفولي بضع كلمات مع زميله المرافق للقطار، الذي يقف على الدرجة الأولى من سلّم العربة الأخيرة ويلوّح بعلم أخضر لسائق القطار كي ينطلق من جديد. ينطلق خارجاً من المحطة ويبتعد بعرباته في الأفق، بزئيرٍ أقصر وأسرع بكثير مما أحدثه لدى وصوله. عندئذٍ يبدأ الناس بالانسحاب من المحطة مع أصوات الهمهمة ذاتها وبالترتيب الذي جاؤوا به. تجلس إنغريد، من جديد، وحدها في صمت، على المقعد بالقرب من كومة الحطب، وتفكّر في أنها لم تركب القطار الذاهب إلى الشمال، هذا ما كان ينبغي أن تفعله، وما كان بمقدورها أن تفعل العكس.

تنتبه إلى وقع أقدام على الحصى، وتجد هانس كفولي يقف أمامها، ويقول: «لا تزالين هنا، إذاً؟!»، ثم يكرّر عبارته: «لا أريد أن أحشر أنفي في ما لا يعنيني».

لكنّه يمدّ يده بقطعتي ورق صغيرتين، يبدو أنهما بطاقتا ركوب قطار،

الأولى إلى تروندهايم، والثانية من تروندهايم إلى رووروس، الطفلة تسافر مجاناً. يتمتم بسعر البطاقتين، ثم يستدير عائداً إلى مكتبه قبل أن تُخرج إنغريد النقود، كما أنها ليست متأكّدة ما إن كان قد قال لها إنّ القطار لن يصل قبل منتصف الليل، وتشعر بحاجتها إلى أن تغتسل.

تفتح الصرّة التي أخذتها من ماريان قبل أن تفترقا في نوردلي، وترفع بين يديها فستاناً معرّقاً بورود خضراء وبيضاء، وتدرك أنها ليست بحاجة إلى تجريبه لأنه على مقاسها بالضبط. تنهض وتدخل إلى غرفة الانتظار في مبنى المحطة، تدفع ثمن التذكرتين وتسأل هانس كفولي، عبر فتحة في حاجز زجاجي، ما إنْ كان هناك ماءٌ جارٍ في غرفة المرحاض. يقول «نعم» مرّتين، وكأنه يؤكّد ذلك لنفسه، وترى إنغريد زجاجة كحول نصف مليئة على مكتبه وبجانبها كأسٌ كبيرة فارغة تقريباً.

# - 21 -

عندما صعدت إنغريد ماريا بارأوي إلى القطار في محطة فورموفوس بفستانها الجديد كانت الساعة تقارب الثالثة فجراً، وكان مدير المحطة هانس كفولي قد اعترف لها أنه، بدواعي الأمان، كان على علاقة جيّدة مع كلا المعسكرين خلال الحرب. لم يكن ضدّ أيٍّ منهما. وعلى الرغم من ذلك، فقد عمل حارساً في معسكر العبيد في بوتن في نوردلاند، لأنّ عائلته كانت بحاجة إلى النقود، لكنّه ما كان ينبغي أن يقوم بذلك العمل، لأنه كان أفظع من أن يُنسى. كما أخبرها عن أولاده الثلاثة، الذين ذهبوا كلٌّ إلى مدرسته في ثلاث مدن مختلفة في جنوبُ النرويج، كأنهم كانوا متوارين عن الأنظار، أما زوجته فقد كانت تعيش في جيوفيك مع ابنتهما ذات الثمانية أعوام.

اعترف لها أيضاً أنّ وجوده في هذه المحطة هو عقوبة مقصودة من قبل إدارة السكّة الحديد، التي وضعته في هذه المنطقة التي نسيها الله، ولا يفيده شيئاً أنّ المحطة قد أُلحِق بها شقّة من أربع غرف ومطبخ، وفيها كهرباء، وماءٌ جارٍ بارد وساخن، ما دام يعيش هنا وحده، رجلٌ وحيد في

شقّة من أربع غرف ومطبخ، والأكثر إحباطاً هو أنه لا يرى سوى غابات الصنوبر الكئيب من كلّ نوافذ البيت، هذه مزحة، قال بلكنة محليّة بدت في تلك الليلة شبيهة جداً باللكنة التي عادت بها سوزانا، من العاصمة، إلى بارأوي في السنة الأخيرة من الحرب.

ولمس هانس كفولي ركبة إنغريد اليسرى بيده اليمنى ثلاث مرّات، وقد أبعدت إنغريد يده في كلّ مرة. وسألها ما إن كانت تريد أن تستعير منه كيس نوم، فراشاً، بطّانيّةً، وكان قد شرب كلّ زجاجة الكحول، ونام مرّتين، وصحا مرّتين، وقال ستّ مرّات إنها ينبغي أن تعود إلى بيتها بأسرع ما يمكن، رغم أنه لا علاقة له بالأمر، لأنها لن تجد أبداً ما تبحث عنه.

إضافةً إلى ذلك، فقد أشعل المدفأة الدائرية في غرفة الانتظار في المحطّة، وأعطى إنغريد وسادة نوم كبيرة بغطاء أزرق كحليّ، يمكن أن تضعها بينهما كحاجز على المقعد، كما يمكن أن تستخدمها كفراش لكايا. وعندما قاربت الساعة الثالثة فجراً، ووصل القطار المتجه جنوباً مع هديره التاريخي المزلزل، حمل كايا النائمة إلى عربة فارغة في القطار، وترك الوسادة مع إنغريد، كما أعاد لها ثمن التذكرتين إضافةً إلى خمسة كرونات من جيبه الخاص، دون أن ينظر في عينيها، وكانت كلمة وداعه الوحيدة لها: «أعتذر!».

خرج من عربة القطار ولوّح بالراية الخضراء في الظلمة البيضاء، وكانت تلك آخر مرة ترى فيها إنغريد هانس كفولي. وبما أنه لم يكن شاهداً يتمتّع بالمصداقية، ولا رجلاً موثوقاً أخلاقياً، ولا شخصاً يعتقد أنّ الحقيقة ستظهر ذات يوم، أو شخصاً صنع لنفسه اسماً بطريقة يرغب دوماً في تذكّرها، بل على العكس، فهو يعمل بلهفة على محو نفسه من

أيّ ذاكرة، لذلك لا غضاضة من وجود اسمه في دفتر رسومات إنغريد، في إحدى الصفحات الأربع الأخيرة، بعد المقطع الذي تحاول فيه وصف أسراب البعوض في وادي ساندول، وعدد اللسعات التي تلقّتها كايا، لأنّ إنغريد لن تفكّر أبداً في إفشاء أيٍّ من تلك المعلومات.

جلست هامدة في مقعد بارد من الجلد البنّيّ القاسي، واستمعت إلى صوت الدواليب المعدنيّ الرتيب، وشمّت رائحة الحديد، والتراب، والغابات والقطران، ورائحة اليابسة في ليلٍ برّيّ. أحصت محطّتين جديدتين، حيث لم يصعد أحدٌ القطار أو ينزل منه، وفي الثالثة، صعد عدد كبير من البشر واستقرّوا في المقصورة المجاورة، وكانت ساعة هيرمان فولهايم تشير إلى الخامسة إلا ثلثاً فجراً.

صعد مفتّش القطار، وثقب تذكرة الذهاب إلى تروندهايم، وقال إنهم في الطريق إلى محطة التبديل مع القطار الثاني إلى روروس، وابتسم لكايا النائمة على وسادة كفولي الزرقاء، ثم ذهب إلى المقصورة الثانية وطلب من الناس خفض أصواتهم، لأنّ طفلة صغيرة تنام في المقصورة المجاورة، هذا ما تناهى إلى سمع إنغريد خلال الضوضاء قبل أن ينغلق الباب الفاصل بين المقصورتين، وتسقط أشعة الشمس على منتصف المقعد المقابل مشكّلةً مثلثاً ذهبيّ اللون.

انطبقت جفونها مرّة أخرى.

وفكّرت: إن كان ألكسندر قد نجح في عبور الجبال من كونغسموين إلى سكوروفاس، فمن الممكن أن يكون قد نجح في تجاوز سلسلة جبال أخرى، مهما كانت كبيرة، ولسبب غريب اتضحت كلّ هذه الأمور لها

الآن، وهي جالسة هنا في القطار، بعد أن حسمت أمرها، أكثر مما كانت عليه عندما أدارت ظهرها لوجه ماريان فولهايم وهي تغادر مزرعة هوغمو.

في الساعات الأخيرة قبل الوصول إلى المدينة شاركت إنغريد المقصورة مع جنديَّين صغيرين يلبس كلٌّ منهما بزّته الرسمية، وامرأة متوسطة العمر، وخامرها شعورٌ قويّ بأنّ هؤلاء الثلاثة يحدّقون فيها باستغراب.

تساءلت في البدء ما إن كان بسبب رائحتها، لكنّها عندما رفعت كفّها إلى أنفها لم تشمّ سوى رائحة صابون محطة هانس كفولي. حاولت جهدها أن تنظر عبر النافذة، فرأت في انعكاسها أحد الجنديين يرفع بصره عنها، كما شاهدت المرأة الجالسة قبالها تضمّ ركبتيها بقوّة، وهي تحيك كنزة صغيرة وقالت دون مقدّمات، وهي تنظر في حضنها -كما لو أنها تريد أن يسمعها الجميع- إنّ هذه الكنزة لأصغر أحفادها، الذاهبة لزيارته في ترونديهايم، والذي لم ترَه منذ عيد الميلاد.

انتفضت إنغريد كما لو أنه قُبض عليها متلبّسة، وقالت إنّ الكنزة جميلة جدّاً، لكنّ نمطها صعب.

رفعت المرأة الكنزة عالياً، وقالت كلّا، النمط ليس صعباً، ودون أن تنظر إلى إنغريد، عادت إلى حياكتها، وتمتمت فجأة إنه يجب أن تكفَّ إنغريد عن التحديق إليها.

«إني أعدُّ»، قالت إنغريد.

«ماذا؟».

«أعدّ الغُرز».

نظرت عبر النافذة، ورأت الجندي يهرب بعينيه بعيداً عن عينيها مرّةً

أخرى، ثم نظرت إلى كايا التي كانت ما تزال نائمة، ووضعت يدها تحت رأسها، فقالت المرأة إنها طفلة جميلة، وسألتها ما إن كان لديها أطفال غيرها؟

«كلّا».

«أنا لديّ خمسة».

وقف أحد الجنديين وحشر نفسه بين ركبتي المرأتين وانحنى صوب النافذة.

«نحن في ستيوردال الآن»، قالت المرأة، دون أن ترفع بصرها عن حياكتها.

شكرها الجندي وجلس في مقعده، وبدأت إنغريد تتعرّق، وشمّت ظاهر كفّها مرّةً أخرى، وفكّرت في أن توقظ كايا، بينما أطلق الجندي الآخر أنيناً طويلاً ثم نهض وخرج إلى الممرّ، أما الجندي الذي كان قد جلس في مقعده للتوّ، فكان يحدّق في أرضية العربة كأنه في امتحان من المستحيل أن يجتازه.

قالت المرأة التي تحيك كنزة لحفيدها، إنه ربما ينبغي أن تشربا بعض الحليب الدافئ، وأخرجت ترمساً معدنياً لامعاً، ثم وضعت كوبين على الطاولة الصغيرة -القابلة للطيّ- المعلّقة على جدار المقصورة تحت النافذة، والتقت عيناهما فوق البخار المتصاعد من الحليب، فكرّرت إنغريد إنّ كايا هي طفلتها الوحيدة.

«أجل، لقد قلتِ لي ذلك»، قالت المرأة، ثم سألتها من أين جاءت وإلى أين هي ذاهبة. فقالت إنغريد، ويداها في حضنها، إنها لا تقوى على الحديث في هذا الأمر. سألتها المرأة ما إن كان هناك ما يقلقها. حدّقت

إنغريد في الفراغ أمامها وقالت إنها كانت راغبة في العودة إلى المنزل، لكنّها ركبت القطار الذاهب في الاتجاه الآخر.

زرّت المرأة عينيها ولمست ركبة إنغريد. نهض الجندي الآخر وخرج إلى الممرّ. أنزلت المرأة الستارة السوداء فوق زجاج باب المقصورة. فانحنت إنغريد إلى الأمام، ثم وضعت وجهها بين يديها وانفجرت بالبكاء، بكت حتى تباعدت شهقات نشيجها، عندئذٍ مسحت خدّيها بأصابعها، ولم تحاول أن تفسّر سبب بكائها، فهي لم تكن تعرف ما بها.

شربت المرأة الحليب الدافئ. نظرت إنغريد عبر زجاج النافذة القذر وسألتها كم عمر حفيدها، الذي تحيك له الكنزة.

«عامان».

سألتها إنغريد عن عدد أحفادها.

«اثنا عشر حفيداً».

ابتسمت إنغريد، وطلبت منها أن تعلّمها طريقة الحياكة بخيطين، هذا النمط الذي تحيكه الآن.

سألتها المرأة ما إن كانت تريد أن تستلقي على المقعد وتنام قليلاً، فهي تبدو منهكة. فقالت إنغريد إنها لم تتعب قطّ. قهقهت المرأة ضاحكة، وهزّت كتفيها، ثم قالت إنّ كأس حليب إنغريد قد برد الآن. شربت إنغريد الحليب الفاتر، وقبلت شاكرةً شرب المزيد، ثم راقبت المرأة واستمعت إليها وهي تشرح لها طريقة الحياكة تلك. كما سمحت لها المرأة أن تحيك تحت إشرافها، وصحّحت لها أخطاءها، وفهمت إنغريد كلّ كلام المرأة الغريبة. عاد أحد الجنود وحشر نفسه بينهما مرة أخرى، ثم سحب عن رفّ الأمتعة حقيبة ظهر كبيرة، ثم اعتذر لهما واختفى.

# - 22 -

نزلت إنغريد من القطار في تروندهايم وهي عازمة على أمرين: أن تبقى صاحية، وألّا تخرج من المحطة، لأنّ مجرّد فكرة المدينة كانت ساحقة بالنسبة لها. وجدت مقعداً فارغاً في صالة انتظار عالية السقف وصاخبة أكثر من صدى البحر، وفيها ناسٌ أكثر مما شاهدت في سكوروفاس عصر يوم السبت. جلست على المقعد وتأملت وجه كايا التي كانت مستيقظة، وقد أكلت، وهي تتلفّت حولها وفي عينيها الروسيَّتين هدوءٌ غير إنساني.

وقف بجانبهما شابّ وسألها بصوتٍ عالٍ ما إذا كانت تريد أن تشتري جريدة.

قابلت صوته العالي بـ«لا» تكاد لا تُسمع، ورأت المرأة التي كانت معها في مقصورة القطار تتحدّث مع رجلٍ ببزّة رسمية. التفت الرجل صوب المقعد، وهو يستمع إلى ما تهمس به المرأة في أذنه، ثم انطلق صوب إنغريد، والمرأة وراءه، توقّف أمامها وسألها ما إن كان كلّ شيء على ما يرام، وطلب منها ما يثبت شخصيتها، ومن أين جاءت، وإلى أين هي ذاهبة، أربعة أسئلة مع توقّف قصير بين السؤال والآخر.

لم تُجب إنغريد على أيٍّ من هذه الأسئلة.

«انهضي، لو سمحتِ!».

نهضت إنغريد، وسألها الرجل ما إن كانت على ما يرام.

«نعم»، قالت إنغريد.

«أنت ترتجفين»، قال الرجل.

«كلّا»، قالت إنغريد، ومشت خطوة غير متوازنة إلى اليمين. أمسك الرجل بذراعها، وساعدها على الجلوس ثانية، وسألها بصوتٍ محايد ما إن كانت قد أكلت.

هزّت إنغريد رأسها وشعرت بضربة جناح فوق جلدها، حتى إنها شعرت بشيء مثل الغثيان، ورائحة نتنة. وسمعت صوتاً قال إنّ هذه الرحلة لا وجود لها، وإنها حلم لا يمكن أن ينتهي على ما يرام، حتى إذا كانت محظوظة كفاية لتستيقظ، فمن المحال أن تستيقظ.

لكنّها نجحت في أن تأخذ نفساً عميقاً، وقالت متجاهلة المرأة والرجل ذا البزّة الرسمية، إنها قد سمعت مؤخراً خبر موت أحد أفراد أسرتها، لقد توفيت إحدى أخواتها.

مسحت عرقها بظاهر كفّها وجدّقت إلى كايا، التي كانت تنظر إليها مذهولة، وأمسكتها من تحت إبطها كي تستطيع أن تقف بثبات في حضنها، فوق ساقيها الرخوتين، ثم ضحكت وقالت إنها سرعان ما ستكون قادرة على المشي. قالت دون أن ترفع بصرها، إنهما يجب أن تسافرا إلى رووروس، وسألته ما إن كان يعرف متى يغادر القطار؟

قطّب جبينه، ثم استدار ونظر إلى لوحة كبيرة معلّقة فوق الباب الذي يفضي إلى الرصيف، لوحة كُتبت عليها مواعيد القطارات التي كانت إنغريد قد حفظتها عن ظهر قلب، وقال إنّ القطار سينطلق خلال نصف

ساعة. لكنّه بقي واقفاً، وتمتم إنّ على إنغريد أن تعتني بنفسها، فهي الآن موجودة في مدينة.

تلقّت إنغريد هذه الحقيقة بهزّة من رأسها، رغم أنه كان من المستحيل أن تفهم مضمونها الفعلي، فهزّ الرجل رأسه أيضاً، ثم اختفى. لكنّ الغثيان والرائحة النتنة بقيا. صاحت إنغريد بأعلى صوتها، عبر حشد البشر في الصالة، فظهر ثانيةً وحدّق مستفسراً.

قالت إنغريد: «شكراً»، ثم لوّحت له بيد كايا.

رفع يده إلى قبّعته بتحيّة ثابتة، ثم اختفى نهائياً. طوّفت إنغريد بصرها في الصالة بحثاً عن تلك المرأة من المقصورة، لكنّها كانت قد اختفت أيضاً. شعرت أنها قد بدأت تستعيد توازنها، الذي اختفى تدريجياً خلال ساعات الرحلة في القطار دون أن تلاحظ ذلك.

عندئذٍ بدأت تتساءل ما إن كانت قد شاهدت ذلك الرجل ذي البزّة من قبل، وما إن كانت قد شاهدت امرأة المقصورة من قبل، وما إن كانت قد قابلت هانس كفولي من قبل؟ وماريان ووالدها، وهوبنر؟

لكنّهم اختفوا جميعاً، وجهاً بعد الآخر. أخرجت دفتر رسوماتها، تجاهلت رسومات الطفولة، كالعادة، وسجّلت مواعيد القطار، وقصة الرجل العجوز الذي أراد أن يعطيها سكّيناً، وزوجته طريحة الفراش في ذلك البيت مدقع الفقر، إضافةً إلى الأسماء التي كان ينبغي أن تكتبها من قبل، أسماء من قابلتهم في مزرعة هوغمو، واسم الرجل الحزبي في فينمارك، لكنّها استطاعت أن تتذكّر كلّ شيء.

# - 23 -

في القطار الثاني، جلست إنغريد في مقصورة مفتوحة كأنها في باص، كان هناك ثلاثة عشر راكباً آخرون، وجميعهم ينظرون في اتجاه واحد، ولا أحد منهم ينظر إلى الآخر. شاهدت من النافذة وادياً جديداً، ونهراً يشبه نهر ساندولا، منظراً طبيعياً لغابة تنّوب ثم غابة صنوبر كانت كثافتها تخفّ تدريجياً إلى أن اختفت نهائياً، بعدئذٍ راح القطار يهدر بصوته الرتيب عبر أرضٍ صيفية مفتوحة، تحفُّ بها الجبال في المدى، نسخة طبق الأصل من المشهد الطبيعي الذي مشاه ألكسندر، وتبعت هي خطواته من البحر إلى سكوروفاس، مع فارقٍ وحيد وهو أنها عبرتها في الصيف، بينما عبرها هو في الشتاء، ثم قالت بصوتٍ عالٍ، إنه قد كان هنا أيضاً، لقد أيقنت ذلك هنا في هذا القطار، ثم صمتت خجلة عندما رماها الرجل الجالس أمامها بنظرة توبيخ من فوق كتفه.

أكلت، وأطعمت كايا، من زوّادة كاتينكا. وأفرغتا قطرميز المربّى، وشربتا ماءً من زجاجة كبيرة معلّقة بجانب باب المقصورة، رأت إنغريد الركّاب الآخرين يشربون منها. وجاء مفتّش جديد، ثقب تذكرتها الثانية. وشاهدت عبر النافذة نهراً يزداد عرضاً، بينما كان القطار يتباطأ لدخول

محطة حيث نزل منه أربعة ركاب. فانحنت إنغريد إلى الأمام لتطرح سؤالاً على الرجل الجالس أمامها، لكنّه كان قد استدار نصف استدارة إلى الوراء وقال: «يجب أن تنزلي في المحطة التالية!».

سألته إنغريد مدهوشة كيف عرف ذلك؟

فأجابها وهو ينظر إليها في زجاج النافذة، إنه قد سمع كل حديثها مع مفتّش القطار.

«والمحطة القادمة هي روروس».

اعتذرت إنغريد، وتركت كايا تحبو على أرضية المقصورة تلعب بأوراق جريدة تركها شخصٌ ما وراءه. أغمضت عينيها وفتحتهما قليلاً عندما سمعت خشخشة تمزيق أوراق الجريدة. بعدئذٍ أبطأ القطار وصرَّت مكابحه فوق السكّة الحديد وهو يدخل المحطة. وشعرت ثانيةً أنه قد كان هنا، أيضاً. لكنّها فكّرت أنها لم تعد تستطيع أن تثق بنفسها، كما فكّرت في الأشياء التي لم تفهمها، وكيف أنّ الرحلة قد استنزفت طاقتها بطريقة لم تعهدها من قبل.

نزلت إنغريد ماريا بارأوي من القطار في روروس ودخلت مبنى المحطة، وسألت رجلاً ببزّة رسمية، زميلاً صغيراً لهانس كفولي -جالساً وراء حاجز زجاجي، في وسطه فتحة دائرية الشكل ليتحدّث عبرها إلى المراجعين- ما إن كان يعرف أحداً في المدينة يدعى آرنه موين يوفيت، وقرأت من دفتر رسوماتها المعلومات التي زوَّدها بها راؤولد هوغمو.

«كلّا، هذا ليس من هذه المنطقة».

حدّقت فيه إنغريد، وقالت: «ما الذي ليس من هذه المنطقة؟».

«الاسم».

«هل أنت متأكّد؟».

نظر إليها باستهجان.

خرجت إنغريد من المحطة، وراحت تسأل سكّان البيوت المجاورة واحداً بعد الآخر، والمتاجر أيضاً، كما سألت موظّف الاستعلامات في فندق، وأوقفت راهبة في الطريق وسألتها، كما دخلت مشغل صانع أحذية وسألته، وجميعهم قالوا إنّ الاسم ليس من سكّان المنطقة.

عندما حلّ المساء، دخلت إلى مقبرة الكنيسة في أعلى المدينة، وبحثت عن ملاذٍ وراء الجدار الحجري، ثم استلقت ونامت وكايا فوق بطنها.

حلمت إنغريد، وجاءها الصوت من ورائها، لكنّها لم تلتفت. كانت بارأوي بيضاء وخضراء، وكان الفصل شتاءً وصيفاً، وبجانبها يجلس ألكسندر، هناك حيث تنحدر الأرض نحو البحر في الجنوب، وكان يرتدي ثياباً كأنه من سكّان الجزيرة الأصليين، وكانت ثيابه هو لا ثياب والدها التي ألبسته إياها أثناء الحرب. كان يجلس مُسنِداً مرفقيه على ركبتيه ويتفحّص أصابعه السليمة. ولم ينظر إليها وهو يتحدّث - عن التبن، والثلج، وعن سلسلة الشِّباك التي فقداها في البحر... كانت المسافة الفاصلة بينهما قليلة، وغير ملحوظة تقريباً؛ وإنغريد تنظر مبتسمةً إلى جانب وجهه، وتجيبه بلكنتها اليومية المعتادة. وعندما تابع حديثه، فكّرت أنها تستطيع أن تلتقط كلّ كلمة تخرج من فمه، مثل حصى صغيرة، وتزنها في يدها. لأنه كان يتحدّث لغتها وهي تتحدّث لغته. تلك كانت الصورة الأولى في الحلم، ولم تلتفت إلى الوراء.

في الصورة الثانية، كانت كايا تجلس أمامهما وهي تلعب بين نبات الخلنج بشيء لم تستطع إنغريد أن تراه، فوّاشة شبكة، بيضة نورس، محارة...، شيء أصغر من يديها البيضاوين. ولم يكن بالإمكان أن ترى كم هو عمرها، أو ما إن كانت قادرة على أن تنهض، تقف، أو تركض، لأنها كانت جالسة وظهرها لهما، كما كانت شديدة التركيز في لعبها. غير أنّ إنغريد لاحظت أنّ ألكسندر كان في عمرها، وقد أسعدها ذلك.

في الصورة الثالثة كان رأس ألكسندر في حضنها، وهو مغمض العينين. لكنّه لم يكن نائماً، وفهمت كل كلمة قالها؛ ثم لاحظت أنّ جديلة شعرها بيضاء اللون المنسدلة من رأسها، وتتأرجح فوق وجهه، مربوطة بخيط من الصوف الأحمر، أو الأخضر، أو الأسود. في هذه الصورة كانا وحدهما، وكانا كبيرين في السن. وكان الوضع مثالياً، ولم تلتفت إلى الوراء.

جفّفت الشمس قطرات الندى عن نصف البطّانيّة الصوف. تمطّطت إنغريد في أشعة الشمس، ثم جلست وظهرها إلى الجدار، واستطاعت أن ترى رؤوس المارّة في الطريق خارج المقبرة، شارع في مدينة رووروس، أهل البلدة ذاهبون إلى أعمالهم، الأعمال ذاتها وفي التوقيت ذاته، وإنغريد لم يعد لديها خبز.

الغريب في الأمر أنّ إنغريد لم تكن قلقة عندما حزمت أشياءها، ولم يكن لهذا الإحساس أثرٌ حقيقي عليها إلا عندما وجدت نفسها في المخبز، حيث سألت هناك عبثاً عن اسم يوفيت، ووجدت نفسها فجأة مجبرة على الاعتراف بأنّ هذا الرجل غير موجود، ولم يكن له وجود قطّ.

لقد شعرت بذلك يوم أمس. وتأكّدت منه الآن.

دفعت ثمن رغيف الخبز، أخذته وخرجت من المخبز خفيفة الخطوات والقلب، نزلت الشارع الرئيسي في هذه المدينة الكبيرة وتساءلت لماذا لم يزعجها الأمر، لماذا لم يخامرها أيّ شعور بالإحباط لأنها تعود إلى البيت ثانيةً خائبة الرجاء، لأنها استسلمت، والآن تستطيع أن تسمع زعيق النوارس، والريح، أوركسترا داخلية في هذا الصمت غير الطبيعي الذي يسود مدينة تضجّ بالحياة.

دخلت إلى مبنى المحطة لتشتري تذكرة، من الموظّف ذاته، الذي تذكّرها فوراً وسألها ما إن كانت قد وجدت من تبحث عنه. قالت إنغريد كلّا، وأخبرته أنها ستعود إلى الشمال، لكنّها تذكّرت، في تلك اللحظة، دليل الهاتف الذي رأته في مكتب استعلامات الفندق، الهاتف والسكّة الحديد، اللذان يربطان كل أجزاء البلد بعضها بالبعض الآخر، فسألته ما إن كان لديهم في المحطة هنا دليل هاتف، أيضاً.

«بالطبع».

لكنّه كان قد بحث فيه يوم أمس.

«ماذا؟».

«نعم، بعد أن غادرتِ المحطة. بحثت عن الاسم. لكنني لم أجده... ماذا كان اسمه...؟».

«هل يمكنني أن ألقي نظرة؟»، قالت إنغريد.

نهض الرجل متبرّماً واختفى في غرفة من الواضح أنها مكتب التلغراف، ثم عاد مع دليل هاتف مهلهل. لم تجد إنغريد اسم آرنه موين يوفيت، لا في باب الميم ولا في باب الياء، وبقيت واقفة تتساءل لِمَ تفعل ذلك في الوقت الذي قرّرت أن تعود فيه إلى البيت؟

رفعت رأسها ورأت موظّفاً آخر، لكنّه أكبر عمراً، كان يقف متكئاً على إطار الباب ويدخّن سيجارة. نظر إليها، ثم دخل غرفة أخرى وعاد ثانيةً وفي يده دليلٌ آخر أكثر اهتراءً من الأول، كان مكتوباً فيه بخطّ اليد ما يزيد على ثلاثين اسماً على ظهر كلّ ورقة. وانزلقت إصبعه المصفرّة من نيكوتين السجائر نزولاً فوق أسماء تبدأ بحرف الباء، وتوقّفت عند اسم.

«بيلترين...؟»، قرأت إنغريد من الأسفل إلى الأعلى.

«الرجل الذي تبحثين عنه ليس لديه تليفون. يمكن الوصول إليه عبر الاتصال بهذا الرقم، مزرعة بيلترين، إذا ما أراد أحد الوصول إليه».

«وكيف عرفت ذلك؟»، قالت إنغريد.

تحرّكت الإصبع إلى ظهر الصفحة ثم صعوداً إلى عمود في الصفحة المقابلة، وتوقّفت عند آ.م. يوفيت وبعض الرموز التي لم يستطع فهمها.

«من الذي كتب هذا؟»، سأل الموظّف الشاب.

«أنا»، قال الرجل ذو السيجارة. ولهذا وجدته. وقد تذكّرته يوم أمس.

دخل إلى مكتب التلغراف، ثم عاد ومعه خريطة فرشها على الطاولة تحت النافذة، التي تطلّ على رصيف المحطة، حيث وضعت إنغريد حقيبة ظهرها وكايا. وانحنوا فوق الخريطة، لكنّهم لم يجدوا شيئاً.

ابتسمت إنغريد.

«ربما بوسعنا الاتصال بهم؟».

صفع الرجل جبهته ثم عاد إلى غرفة التلغراف. سمعت إنغريد، والموظّف الآخر، نصف ما دار في المكالمة القصيرة، ثم عاد الموظّف الكبير في العمر وقال متردّداً إنهم لا يعرفون أحداً بهذا الاسم أيضاً.

«ماذا يعني ذلك؟»، قال الموظّف الشاب منزعجاً.

«لقد قال شيئاً لم أفهمه. ثم أنهى المكالمة».

عاد ثانيةً إلى الطاولة وانحنى فوق دليل الهاتف، وحاول فهم الرموز المكتوبة أمام اسم يوفيت.

«اسمح لي أن أسألك!» -قال زميله مقهقهاً- «كيف لا تستطيع أن تفهم شيئاً أنت كتبته بخطّ يدك؟!».

«أنا كتبت الاسم فقط، ولم أكتب هذه الرموز. هذه لها علاقة بزمن الحرب. وإن لم أكن مخطئاً، فقد كتبت الاسم هنا قبل سنتين أو ثلاث سنوات، هذا ما كنا نفعله. لكنني لم أكتب هذه الرموز».

بدأا يناقشان حدود المقاطعات، وأسماء الأشخاص الذين عملوا في المحطة، اسماً، اسماً، ويستبعدونهم ثانيةً، ومرةً أخرى بدا أنّ الرجل ذا السيجارة قد تذكّر شيئاً ما، فدار حول الطاولة ووضع إصبعه المصفرّة تحت اسم يكاد يكون غير مقروء بجانب رمز مربّع صغير.

«مزرعة بيلترين».

«ماذا يعني ذلك؟»، قالت إنغريد.

«كانوا بين أول من حصلوا على تليفون».

من الواضح أنّ هذا قد حفّز ذهنه على التفكير أكثر. فقال: «أستطيع أن أرى ذلك من خلال رقم التليفون». فسألته إنغريد كيف يمكن أن تصل إلى هناك، إلى ذلك الوادي حيث توجد مزرعة بيلترين. فقال: «بالقطار، أو بالباص».

ثم صحّح المعلومة: «تركبين باصين. ثم تسيرين المسافة المتبقية على قدميك، وهي ليست قليلة».

هزّت إنغريد رأسها.

عاد إلى غرفة التلغراف، وترك سيجارته المشتعلة في نفّاضة السجائر، المصنوعة من زجاج أخضر مثل ثقّالات شبكة الصيد، ثم عاد وقال إنّ الباص الأول ينطلق بعد قرابة ساعة من الآن، وأرى إنغريد على الخريطة أين ينبغي أن تركب الباص الثاني. وعندما شكرته إنغريد، سألها ما إن كان لديها خريطة.

«أجل».

طلب أن يرى الخريطة. أخرجت إنغريد خريطتيها، خريطة أدولف مالفيك، وخريطة ماريان فولهايم. وضع علامة بقلم أزرق على خريطة ماريان في المكان الذي لا يوجد فيه اسم ولا مربّع.

طوت إنغريد الخريطتين معاً، وشكرته مرة أخرى. سألها زميله ما إن كانت ستعود إلى الشمال؟

«كلّا»، قالت إنغريد، وشكرته هو أيضاً، ثم خرجت من المحطة براحة البال نفسها التي كانت ستعود بها إلى البيت من جديد، ووجدت موقف الباص الذي سيأخذها أبعد في مغامرتها، لكن الآن مع شيء من الإثارة في كيانها كلّه. وجدت هناك صندوقاً خشبياً فجلست عليه، وشمّت من حولها رائحة التراب، والغابة والمزارع. وفكّرت في أن تسجّل مزيداً من الملاحظات، في دفتر رسوماتها، ربما عن موظّفي المحطة. لكنّها لم تتذكّر اسميهما، ولا حتى وجهيهما تقريباً، وكانت الشمس عندئذٍ لاهبة أكثر من أيّ وقت مضى.

وجدت إنغريد ماريا بارأوي نفسها في وسط البلد، نحو سبعمئة كيلومتر

بعيداً عن بيتها. كانت جالسة على صندوق رمل خشبي تحصي السيارات، والدرّاجات، وسمعت هدير محرّكات، وأصواتاً عالية وخفيضة، حتى أصبح العدُّ أيضاً أحد أهداف الرحلة. حتى إنها أحصت عربات الأطفال، والأمهات، كما شاهدت قطار شحن يسحب وراءه عدداً لا نهائياً من قاطرات الأخشاب. ورأت ثلاثة أولاد صغار يركضون في منطقة مليئة بالغبار ونشارة الخشب ويركلون كرة ثقيلة بنّيّة اللون يكاد ارتفاعها يصل إلى منتصف أرجلهم العارية. وعندما رأت الباص كانت على وشك أن تضمّنه ما تحصيه من الأشياء. وخطر لها أنها خلال النصف ساعة الأخيرة قد نسيت كلّ شيء، وأنها لم تفكّر في أين هي ولا أين تذهب، ولم تفكّر في ألكسندر، أو أبيها، وأمها، وباربرو... صعدت درج الباص وصدمتها رائحة العرق الثقيلة للأشخاص المحاصرين في جوّ شديد الحرارة، أخذت نفساً عميقاً، وجلست على مقعد التصق بفخذيها، أجلست كايا في حضنها أمام نافذة ضيّقة يمكن فتحها من الجهة العلوية تحت رفّ أمتعة المسافرين، وسمعتها تضحك، ورأت الريح تُطيِّر خصلات شعرها عندما انطلق الباص.

# - 24 -

عصر ذلك اليوم، كانت إنغريد ماريا بارأوي الراكب الوحيد الذي نزل من الباص المغبرّ عند مفترق طريق مهجور. متعرّقة، نعسانة، ومنهكة جداً، مشت خمسة كيلومترات بين أسراب من الحشرات الطائرة وسط مروج متموّجة ومزارع زاهية الألوان، واضطرّت أن تستعين بالخريطة وهي تحاول أن تتذكّر حركة إصبع موظّف السكّة الحديد وهو يضع العلامة على مزرعة بيلترين، فقد بدا لها أنها تقع بين طريقين، ولم تستطع أن تعرف في أيٍّ منهما هي الآن.

مرّت بمزرعة كبيرة، كان البيت فيها خالياً، ومرّت بكنيسة قديمة، مغلقة، ومرّت بشاخصة طرقية صدئة، على تقاطع طرق، عليها أحرف استطاعت بنيَّتها الحسنة أن تفهم منها أنّ بيلترين على مسافة كيلومتر واحد.

صعدت الطريق المجاور لجدول ماء على طول فُرجة بين غابتين، وأفضى بها إلى طريق بين حقلين تحت سماء صفراء عسلية. هناك رأت ستّة مبانٍ، وحقول بطاطا واسعة، وأبقاراً بنّيّة وبيضاء ترعى، وسقالات تجفيف تبن أكثر وأطول من كل ما رأته في حياتها.

خرج شخصٌ من بيت المزرعة، واستطاعت أن تقدّر من حركته أنه

شابّ، وسار في طريق تتقاطع مع طريقها عند الطريق العام، لا بدّ أنه قد رآها قبل أن تراه.

سردت إنغريد حكايتها مرّةً أخرى، وكان هذا الشخص الجديد يكرّر ببرود، ولا مبالاة، كلّما توقّفت لتأخذ نفساً، أنها قد جاءت إلى المكان الخطأ.

«لكنّ هذه المزرعة تُدعى مزرعة بيلترين، أليس كذلك؟».

«نعم».

كان بجوار الطريق مصطبة، وضعت إنغريد كايا عليها، وغيّرت لها حفّاضتها. بينما كان هو واقفاً يتفرّج عليها. انتظرت على أمل أن يعود إلى بيته. لكنّه بقي واقفاً هناك. فأخرجت دفتر رسوماتها وأرته الاسم المكتوب بخطّ اليد.

«كلّا، لا أحد يُدعى يوفيت هنا».

نظرت إليه، فنظر إليها. تنهّدت إنغريد وتلفّتت حولها، ثم ألبست كايا من جديد، ووضعتها في اللفافة أمام بطنها، وبقيت واقفة كأنها تمنحه فرصة أخيرة. شابّ يرتدي قميصاً من الفانيلا، وبنطالاً قصيراً إلى الركبتين، وساقاه العاريتان بنّيّتا اللون، ويلبس في قدميه قبقاباً أسود. كان وسيماً، حليق الذقن، عاديَّ القسمات، يداه في جيبيه، ونظرة فولاذية في عينيه الرماديتين الكبيرتين. لكن، من جديد، لا شيء يمكن أن ينتهي بهذه الطريقة.

قالت إنغريد إنها قد قطعت مسافة طويلة إلى هنا.

لكنّ هذا لم يؤثّر فيه أيضاً.

فتّشت عن شيء تقوله لتكسر هذا الجدار بينهما، لكنّه سبقها وقال

إن كانت لا تصدّقه، فبإمكانها أن تتابع طريقها إلى تلك المزرعة الأخيرة، وأشار بإصبعه، وتسأل هناك في برينيت، عندئذٍ يمكنها أن تغادر متأكّدة.

«أنت شخص فظيع!»، قالت إنغريد.

هزّ كتفيه.

استدارت إنغريد وبدأت تمشي عائدة في الطريق التي جاءت منها، لكنّها توقّفت بعد عشرين متراً. وكان هو لا يزال واقفاً يحدّق إليها.

«ألن تدخل إلى بيتك؟!»، صاحت إنغريد.

ضرب الهواء بيده ومشى باتجاه مزرعته، ببطء. انتظرت إنغريد حتى ابتلعته ظلال بيت المزرعة، واتخذت قراراً ارتجالياً، فعادت وتجاوزت المزرعة، وبعد مئتين أو ثلاثمئة متر التفتت وشاهدته واقفاً في المسافة الفاصلة بين الشمس والظل يحدّق إليها. بعدئذٍ تابعت طريقها صعوداً في ضوء المساء الذي أصبح أكثر صُفرةً، الآن.

كانت مزرعة بيرنيت على السفح الجنوبي من التلّة، عند كتف طريق العربات المغبرّ الذي يتوغّل عميقاً في الداخل حتى يختفي نهائياً، وتحيط بها غابات بتولا منخفضة وسهولٌ فسيحة بإطلالات ساحرة لانهائية على الجهة الشرقية والجنوبية، غابات جبلية كحلية اللون، وصحراء قاحلة ساكنة، وقد أصبح الوقت أواخر المساء.

كان بيت المزرعة مبنيّاً من الخشب المقطرن، ومزيَّناً بزخرفات زرقاء على إطاراته وألواح السطح، وله مدخلان متشابهان تحت مصدّتَيْ رياح منفصلتين مما جعله يبدو مثل بيتين في بيت واحد. وعلى أحد جانبي السطح يقف مؤشّر الرياح ساكناً بلا حراك. لم تسمع إنغريد صوت أيّ

حيوان، ولم ترَ أحداً أيضاً، غير أنّ الأرض كانت محصودة، ونصف سقالات تجفيف التبن تنحدر متعرّجة مثل أسيجة فارغة نحو وادٍ ضحل، حيث استطاعت أن تلمح هناك لألأة ساقية ماء.

سمعت صوت فأس فسارت حول البيت، ورأت ظهر رجلٍ يقطع حطباً في شمس المغيب. توقّف الرجل عن العمل وشدّ قامته، لكنّه لم يلتفت إلى الوراء. صاحت. فالتفت الرجل ببطءٍ وحدّق إليها، واكتشف وجود كايا، ثبّت الفأس في القاعدة، وسار نحوهما بخطوات سريعة.

«هل يمكن أن أرى الصغيرة؟».

رفعت إنغريد كايا عالياً. تفرّسها الرجل، ثم مسح خدّه بيده، التي يلبس فيها قفّازاً أسود طويلاً يغطّي معظم ساعده القوي الذي تظهر فيه ثلاثة عروق زرقاء وثلاث ندب عند المرفق.

«بالتأكيد».

لم تتمكّن إنغريد من قول أيّ شيء. فكرّر الرجل: «بالتأكيد»، ونظر إلى إنغريد، وقال: «أنت موجودة إذاً!».

حاولت إنغريد أن تبتسم.

كان يلبس سروالاً بحمّالات فوق الكتفين، وقميصاً ذا مربّعات، مثل قمصان الفلّاحين، وجزمة بنّيّة كبيرة، لكنّه يعطي انطباعاً أكبر بأنه طبيب أو قسّ، رجلٌ أربعينيّ حليق الذقن، شعره أجعد خطّه الشيب، وعينان بنّيّتان صافيتان تحدّقان فيها. شعرت إنغريد بقشعريرة، ورأت شيئاً ينبض تحت بشرة خدّه الأيسر، واضطرّت أن تشيح بصرها بعيداً عنه.

«دعينا ندخل إلى البيت!»، قال ثم حمل حقيبتها ومشى، وعندما لاحظ أنها لم تستجب، استدار ونظر إليها متسائلاً.

تبعته إنغريد إلى مطبخ أكبر وأكثر فخامة من غرفة الجلوس في بيت هوغمو، كانت النوافذ عالية والمنظر فسيح جداً. لم يطلب منها الجلوس، بل سألها كيف وجدته، كأنه لم يكن بالإمكان طرح السؤال في الفناء. ذكرت له إنغريد ذلك الشابّ غير المتعاون في بيلترين، ومزرعته التي تستطيع أن تراها الآن من إحدى النوافذ، ذلك البيت الأعلى في هذه البلدة بين مجموعة الأبنية التي تتعرّج نزولاً وينخفض أحدها عن الآخر شيئاً فشيئاً حتى تختفي في الضباب الأزرق.

«آه، بيرنهارت!»، قال وهزّ برأسه، ثم سألها: «وقبله؟».

أخبرته إنغريد قصّتها، ولاحظت أنها كانت تنسى شيئاً، لكنّه فهم كل ما قالته وكان يومئ برأسه لكلّ معلومة تنزل في مكانها الصحيح، كأنها كانت تُختبر في درس يعرفه أفضل منها، وعندما ذكرت له تلك الرموز في دليل الهاتف في محطة رووروس، ابتسم نصف ابتسامة وقال إنّ اسمه ليس موين ولا يوفيت، لكن كل من يريد الاتصال به ينبغي أن يُسقط «موين» عندما يتصل مع بيرنهارد.

«ماذا؟»، قالت إنغريد.

هزَّ كتفيه وقال إنّ ذلك كان إجراءً منذ أيام الحرب، وإنه لا يحبّ الزيارات، ولا بدّ أنهم أخبروها بذلك.

«مَنْ؟».

«أعتقد أنّ راؤولد هوغمو في نوردلي، هو الذي أرسلك إلى هنا، وإلا فلا بدّ أنه فولهايم. أليس كذلك؟».

«كلّهم يعتقدون أنك ميت»، قالت إنغريد.

«هذا خبر جيّد، أيضاً» قال، وشرع يقطع رغيف خبز طازجاً كان

موجوداً على لوح تقطيع فوق مقعد مقابل النافذة. وصمت كلاهما بينما كانت السكّين تقطع رغيف الخبز. أحصت إنغريد شرائح الخبز ولم تجرؤ على طرح سؤالها المصيري، سؤالها عمّا إذا كان ألكسندر على قيد الحياة، وما الذي أخبره عنها، هذا إن كان هو وألكسندر قادرين على التحدّث معاً.

أمسكت إنغريد بيد كايا وتركتها تمشي متعثّرة. نظر إليهما من طرف عينيه وسألها عن أحوال هيرمان وماريان، وما إن كان لدى ماريان أولاد.

قالت إنغريد إنّ ولديها قد ماتا.

«نعم، هذا صحيح. يا لها من مأساة!»، قال، ثم سأل إنغريد ما إن كانت ترغب في الشاي.

قالت إنها لم تشرب الشاي قطّ من قبل.

«إذاً، إنه الوقت المناسب لتشربيه».

سألته إنغريد ما إن كان يعيش وحده.

«نعم».

قال -وعاد إلى تقطيع الخبز- إنه هو وأخته قد ورثا هذه المزرعة عن أمّهما، غير أنه قد ترعرع في فينمارك، مع والده، وإنّ أجيالاً عديدة من عائلته قد عملت في التجارة مع الروس، من فاردو، وكيبرغ. قالت إنغريد إنّ لهجته لا تشبه لهجة الفينماركيين.

قال بضع كلمات باللهجة الفينماركية، فبدا أنه يغنّي، فقهقهت إنغريد ضاحكة، ثم سيطرت على نفسها وقالت إنها تعرف بعض الناس في سكارسفوغ.

فقال: «لقد دُمِّرت سكارسفوغ بالكامل».

«لكنّهم يعيدون بناءها الآن»، قالت إنغريد.

نظر إليها متسائلاً وقال بلهجته الأولى، إنه كان ينتظرها. فسألته ما إن كان ألكسندر لا يزال على قيد الحياة؟

«نعم، نعم».

طبعاً ألكسندر حيٌّ، ولا أحد يمكن أن يكون حيّاً أكثر منه. لكن ولخشيتها من أن تكون قد أخطأت السمع، قالت إنغريد إنها مسرورة جدّاً لوجودها هنا. وعندما لم يردّ عليها، أخبرته بعجالة عن الدوخة التي شعرت بها في القطار، وكيف شعرت أنها كانت طافية في الماء.

قال إنه تعبير غريب، وسألها منذ متى وهي مسافرة. أحصت إنغريد الأيام إضافةً إلى ذينك الأسبوعين في سكوروفاس، فكانت شهراً تقريباً، فقال إنّ الوحدة الطويلة تجعل المرء يشعر بخواء في الرأس، إني أعرف ما أتحدّث عنه.

«لا!»، قالت إنغريد ضاحكة.

حدّق إليها مرّةً أخرى.

رأت إنغريد سيارة خشبية صغيرة بجانب قفّة الحطب، وسألته ما إن كان بوسع كايا أن تلعب بها. فقال: طبعاً تستطيع. سألته إنغريد ما إن كان لديه أولاد. فقال إنّ لديه ولدين، شابّين يعيشان في أوسلو، لكنّ العربة تعود لابن أخته، التي كانت تعيش هنا قبله، أما هو فقد جاء إلى هنا بعد اندلاع الحرب، وبقي.

ثم أضاف: «يمكنك أن تثقي في بيرنهارد».

«أوه، حقاً؟!»، قالت إنغريد.

«وكان موضع ثقة إبّان الحرب، أيضاً، رغم أنّ والديه كانا مسجونين».

«أوه، حقاً؟!»، قالت إنغريد مرة أخرى.

«بتهمة خيانة الوطن».

وضع على الطاولة لوح تقطيع الخبز، وجبناً، وشرائح لحم، وزبدةً، وكأسين، وأدوات المائدة. قالت إنغريد إنّ الأكل كثير. ضحك فجأةً بصوتٍ عالٍ، وقال إنه غير معتاد على استقبال ضيوف، وإنه ليس لديه حليب، فماذا ستشرب الصغيرة؟ قالت إنغريد إنها تشرب الماء إلى جانب الخبز، ثم وضعت كايا في حضنها، ووضعت السيارة الخشبية على الطاولة أمامها، وتلفّتت حولها باحثةً عن شيء ما تتحدّث عنه، لكنّها لم تجد شيئاً، وكان صمته لا يُحتمل.

قالت إنّ الطعام شهيّ، والشاي أيضاً. فقال إنها ينبغي أن تحلّي الشاي بالسكّر. أضافت سكّراً إلى الشاي وحرّكته بملعقة صغيرة وأعطت كايا ملء ملعقة، ثم أخرى... فسألها ما إن كانت تريد أن تضع الصغيرة في الفراش أولاً.

«لماذا؟»، سألت إنغريد.

ضحك، كاشفاً عن أسنان بيضاء منتظمة، وقال إنه قطع الخشب، في الوقت الخطأ من العام، لأنه لم يكن لديه ما يفعله، وإنه حصد التبن في الوقت المناسب، رغم أن ليس لديه حيوانات، لكنّه يخطّط لبيع المزرعة، ربما سيبيعها لبيرنهارد.

لم تفهم إنغريد ماذا أراد من كلامه ذلك، وشعرت بالارتباك نفسه الذي كان ينتابها إبّان الحرب، عندما كان الناس يفقدون لغة التفاهم، أو يتشرذمون، وشعرت باللعاب يتجمّع في فمها.

«يوجد سرير أطفال في الغرفة العليا»، قال لها، ستجدين الطريق إليها بنفسك، بينما أُنهي ما كنت أفعله.

حملت إنغريد كايا، ومشت إلى باب الغرفة، ثم استدارت وسألته لماذا كان ينتظرها.

قال: «لأنه قد أخبرني عنك».

«وكيف استطاع أن يخبرك؟».

«أنا أتكلّم اللغة الروسية».

«وأين تعلّمتها؟».

«في تسيب نافالوك».

شعرت إنغريد برغبة في السؤال أين تقع تسيب نافالوك، لكنّها بدلاً من ذلك سألته ما الذي أخبره ألكسندر عنها.

«أنت تعرفين ما أخبرني»، قال ذلك وصمت.

فكّرت إنغريد في أنها قد حصلت على إجابة، على الأقل، وسألته عن اسمه.

قال: «أنا اسمي هنريك. وأنتِ اسمك إنغريد بارأوي».

سرت قشعريرة في جسدها، وتمتمت بشكرٍ غير مسموع وصعدت إلى الغرفة، ووقفت مضطربة وسط غرفة كبيرة جيّدة التهوية، حتى دهمها البكاء، كانت تبكي لأنها لم تعد لديها طاقة لأيّ شيء آخر، لأنّ ما تبحث عنه لا يمكن العثور عليه، مهما أوغلت في بحثها.

وكان في الغرفة وعاء فيه ماء دافئ على طاولة بجوار النافذة، كأنه كان ينتظرها أيضاً، وبجانبه منشفتان نظيفتان. نزعت إنغريد ثياب كايا، وضعتها في السرير وغنَّت لها. وعندما نامت كايا، لم تجرؤ إنغريد على النزول ثانيةً، كما لم تستطع أن تنهض من السرير. لقد وصلت إنغريد ماريا بارأوي إلى وجهتها الأخيرة، وقد كانت أسوأ بكثير مما تجرّأت أن تعتقد.

# - 25 -

صباحٌ جديد ترك فوق زجاج النافذة طبقةً من الغبار، غبار المنطقة الداخلية الأصفر الذي تراكم فوق العيون، والزجاج، والبشرة، والملابس، لا بدّ أنّ شخصاً ما قد فتح النافذة. رأت على جدران الغرفة جنّة أطفال من الصور، صور حيوانات واقفة. وكانت الظلال مثل ريش في الزوايا. شعرت إنغريد بالبطّانيّة التي تغطّيها، وعرض السرير، سرير زوجي، وهذا ما لم تلاحظه في الليلة الماضية، وسمعت بالقرب منها أنفاس كايا النائمة في مهدٍ أخضر، وضعتها فيه الليلة الماضية، لقد تذكّرت ذلك، وفي الخارج كانت طيور السنونو والحشرات تلعب. لكنّ إنغريد لم تتغطَّ بالبطّانيّة، وكانت ترتدي ثيابها، وقد انفلتت جديلة شعرها الذي يتشابك الآن فوق هذه الوسادة العريضة، التي تفوح منها رائحة الصابون والتبن الجاف. بقيت مستلقية، عالقة في تلك الوضعية، وفكّرت أنّ ألكسندر على قيد الحياة.

سمعت هدير محرّك يتوقّف. ثم سمعت أصواتاً. نهضت ومشت على رؤوس أصابعها إلى النافذة، ورأت رجلين يتحدّثان بصوتٍ خفيض، كان بيرنهارد جالساً على جرّاره وهنريك واقفاً بالقرب منه، وهو يشير بقفّازه

الأسود ناحية السقالات التي لا تزال مليئة بالحشيش نزولاً إلى أسفل الوادي، والساقية التي يمكن سماع صوت جريانها من النافذة أيضاً.

ضحكا من أشياء قالاها، وكان ضحك بيرنهارد أعلى. ثم أدار بيرنهارد محرّك الجرّار وساقه خارجاً من الفناء. دخل هنريك الحظيرة ثم خرج وفي يده مذراة ومشى في الاتجاه ذاته واختفى.

مشّطت إنغريد شعرها وضفرته، ثم نزلت إلى المطبخ، الذي بدا أنه قد جرى تنظيفه للتوّ. رأت على الطاولة إناء حليب بقبضة نحاسية، وقد تكثّفت على سطحه الخارجي قطرات بخار الماء. وجدت ركوة قهوة في خزانة المطبخ بجانب الموقد، ووقفت تحدّق في مقابضه الستّة ورؤوسه الكهربائية الخمسة، وقرّرت أن تنتظر لأنها لم تكن متأكّدة من قدرتها على الظهور أمام بيرنهارد، رغم أنه قد عرف سلفاً أنها أمضت الليلة هناك.

انحنت فوق المجلى واغتسلت بالماء والصابون، وتنشّفت بمناشف الأكواب، ثم وقفت عند أسفل الدرج وأصاخت السمع. لم تسمع صوتاً، فكايا لا تزال نائمة. خرجت إلى أشعة الشمس، ونزلت إلى الفناء، ووقفت تتفرّج على الرجلين وهما يرفعان التبن عن سقالات التجفيف واحدةً بعد الأخرى ويضعانها على مجموعة أسنان حديدية تبرز من مؤخرة الجرّار، وستعلم إنغريد لاحقاً أنها تُدعى سلّة الجرّار. بدَوَا لها مثل أبٍ وابنه، يثرثران ويضحكان. لوّحا لها واستمرّا في العمل كأنها غير موجودة، أو كأنها كثيراً ما كانت بينهما. شعرت إنغريد بحمرة الخجل التي سكنت وجهها وأحسّت براحة عميقة لأنهما لم يستطيعا أن يلاحظا ذلك.

عادت إلى البيت مرة أخرى، واستلقت في السرير بانتظار أن تستيقظ

كايا. نهضت ثانيةً ودخلت إلى الغرفة المجاورة. باستثناء لون جدرانها ومفروشاتها المختلفة، فقد كانت نسخة طبق الأصل من الغرفة التي نامت فيها. دخلت الغرفة الثالثة، وهذه تشبه غرفتها، لكن بلون مختلف أيضاً. لم تكن أيٌّ من الغرفتين قيد الاستعمال، والسريران فيهما مرتّبَين وفوق كلٍّ منهما ملاءة من الكروشيه. رأت باباً آخر، يصل بين البيتين، وقادها إلى مدخل جديد فيه ثلاثة أبواب أخرى ومنور سلّم داخلي في نهايته. فتحت الباب الأول ولم تجد له أثراً. جلست على السرير وتساءلت ما إن كانت قد شمّت رائحة، الرائحة التي تفتقدها أكثر من أيّ شيء آخر، رائحة تلك الليلة الشتوية في الصالة الشمالية في بارأوي.

فوق النافذة كانت هناك ستارةٌ سوداء. فتحت باب خزانة ورأت فيها ملاءات سرير، ومناشف، مرتّبة بطريقة عسكرية. وكان هناك صليبٌ نحاسيّ فوق عارضة مائلة على الباب، وخزانة كتب وردية اللون، لم تستطع أن تقرأ حرفاً من الكتب الموجودة فيها، ولا أثر لأيّ شيء آخر. خرجت وأغلقت الباب وراءها. ثم استدارت ودخلت ثانية معتقدةً أنها قد شمّت الرائحة ذاتها، وكانت هذه المرّة أكثر ثقة، لكنّ الرائحة اختفت من جديد.

عادت إلى القسم الأول من البيت، نزلت إلى المطبخ، أعدّت قهوة، وضعت فنجانين وصحفتين في صينية، وفتّشت في الخزانة عن كعك أو ليفْسر لكنّها لم تجد شيئاً، وقرّرت أنها لن تُعدَّ الوافلر الآن، فحملت الصينية ونزلت إلى فناء المزرعة، وعندما رآها الرجلان، وضعت صينية القهوة فوق العشب. استدارت وعادت مسرعة إلى البيت وهي أكثر خجلاً الآن، وكانت كايا قد استيقظت.

## - 26 -

مكتبة
t.me/soramnqraa

التقى هنريك ماركوس أكسيلسين بأسير الحرب الروسي ألكسندر ميخايلوفيتش نيجنيكوف عند محطة التحويل الثانية ذات ليلة بين عيد الميلاد ورأس السنة من عام ألف وتسعمئة وأربع وأربعين، لكن لا هنريك، ولا غيره، يتذكّر التاريخ بدقّة.

محطة التحويل الثانية هي نقطة من التلفريك تقع بين كونغسموين ونامدالين، حيث تنحني السكّة اثنتي عشرة درجة. بالقرب من المحطة وبين أساسات خرسانية لمنزلين سكنيين خاصين، نصبت عائلة شامانية خيمةً من جذوع البتولا والقماش المشمّع الذي يُستخدم لحماية مواد البناء من الأمطار. كانت الخيمة عميقة، وفي وسطها مدفأة، وفوقها طبقات من البطّانيّات وجلود الرنّة، وفيها ستّة أشخاص بالغين ونصف بالغين وثلاثة أطفال صغار جالسين في ضوء نار الموقد. ومن مدخنة في سقف الخيمة يتصاعد دخان لا يستطيع المحتلّون الألمان رؤيته في الطقس السيّئ.

عندما دخل ألكسندر نيجنيكوف الخيمة في منتصف تلك الليلة منسيّة التاريخ، متعثّراً، ووجهه كان شاحباً ومليئاً ببثور حمراء، متعرّقاً ومتجمّداً من البرد، وراح يكلّمهم من بين أسنانه المصطكّة بكلمات غير مفهومة،

اعتقد الشامانيّون أنه شبح خرج من كوابيسهم، فهجموا عليه ليلقوه خارج الخيمة. في تلك اللحظة استيقظ هنريك أكسيلسين وشرح لهم أنّ الرجل روسيّ ويحتاج إلى طعام ودفء، وهو واحد منهم، وهو هارب من الألمان.

هدأت العاصفة الثلجية بعد يوم تقريباً، عندئذٍ انطلق الرجلان نازلين وادي نامدالين، ومن ورائهما أكبر شابّين في العائلة مع زلّاجات لتمحو أثرهما. عبرا، غير مرئيّين، نهر نامسين الذي يتفرّع إلى ثلاثة فروع، تجمّد اثنان منهما. أمضيا يوماً واحداً في إقامة مؤقّتة. لكنّهما لم يستطيعا أن يُشعلا ناراً، واضطرّا أن يتركا ثيابهما تجفّ على جسديهما. سارا يوماً وليلة على طريق سكّة التلفريك عبر الجبال إلى سكوروفاس، وحصلا هناك على منامة لدى مدير مغسلة محليّة، كان أحد أبرز المقاومين لكن دون اسم. وأمضيا اليوم التالي بالقرب من محطة لتوليد الطاقة الكهربائية للمناجم على طول طريقهما إلى فولهايم، وكانا يمزحان حول فقدانهما لحاسّة السمع، لأنهما بقيا يقولان: ستو، ستو، ستو، التي تعني «ماذا، ماذا، ماذا؟» بالروسيّة، لقد تذكّر هنريك تلك التفاصيل بدقّة، ولم يستطيعا أن يسمعا أحدهما الآخر لأنهما كانا يتحدّثان همساً، وقال إنّ ذلك ما أضحكهما.

سارا بثياب دافئة لأول مرة. ولأول مرة بدأ هنريك يدرك فارق العمر بينهما، وأنهما يبدوان مثل أبٍ وابنه، وأنّ الابن كان مليئاً بالشجاعة التي انتقلت عدواها إلى الأب، الذي كاد يعلن استسلامه مرّات عديدة في العام الماضي – وما لا يمكن نسيانه أبداً هو أنّ ألكسندر هو الذي أنقذني، وليس أنا من أنقذه.

وخلال هذه الرحلة الطويلة أعلن الشاب للمرة الأولى: «بما أنني نجوت من تيتوفكا، وليتزا، وطريق الدم، وريغيل، فأستطيع بالتأكيد أن أنجو من هذه البرّيّة النرويجية، إنها لا شيء بالمقارنة مع ما سبقها».

تابعا سيرهما على الطريق الرئيسي لسكّة التلفريك، كلٌّ في مساره الخاص، ولم يلتقيا إلا عندما وصلا إلى فولهايم، حيث استقبلهما فولهايم وماريان، وأقاما هناك في سقيفة القارب على شاطئ البحيرة، حيث استطاعا أن يُشعلا ناراً في الموقد.

لكنّهما لم يستطيعا أن يتابعا طريقهما.

ومرّت الأيام.

هناك فترات لا يمكن عبور البحيرة أثناءها، عندما يتشكّل الصقيع في الخريف، وعندما يذوب في الربيع، وهذه الفترات قد تدوم طويلاً. وهما لن يسيرا في الثلوج التي يبلغ عمقها متراً في الغابة على طول الضفة الجنوبية للبحيرة، وهكذا أمضيا أكثر من أسبوع في سقيفة القارب.

وقابلا هناك شخصين أيضاً. استمع هنريك لأحدهما، لوريتس ميرلاند، ورأى أنه شخص موثوق، وكذلك اعتقد هيرمان وماريان.

لم يكن الشخص الثاني معروفاً لأيٍّ منهم، وتصرّف بطريقة غريبة، إذ كان يكثر من الأسئلة، وأراد أن يعرف أسماءهم، من أين جاؤوا، وتفاصيل شخصية كثيرة لا أحد يتحدّث عنها أثناء فترة الحرب، مثل الطرق التي قطعوها، وشبكة علاقاتهم. وعندما سألوه عن اسمه، قال إنّ اسمه هوكون، كما لو أنه لم يكلّف نفسه عناء تأليف قصة زائفة، هل فهمت إنغريد ذلك؟

قالت إنغريد إنها فهمت.

كما شعروا أنه كان يضحك كثيراً، رغم عدم وجود ما يبعث على الضحك؛ فقد اضطرّ ميرلاند إلى ترك زوجة وثلاثة أطفال وراءه في ناموس، بينما كان هنريك في حالة هروب وتخفٍّ دائمين منذ سنة تقريباً، بعد عملية فاشلة في جزيرة آرن أوي في جنوب ترومس، دون أدنى

معلومات عمّا جرى لرفاقه، هل قتلهم الألمان، أم أسروهم وسجنوهم، أم نجحوا في العودة إلى الاتحاد السوفييتي. وألكسندر؟ فقد نجا من معركة دموية في الجبهة الشمالية، ثم قضى قرابة سنتين في معسكري اعتقال كروغين، وبوتن، وسط الموت، والجوع، والعنف. ثم نجا من ريغيل، وأُنقِذ من الموت المحقّق في بارأوي، وأخيراً وليس آخراً عبور الجبال من كونغسموين.

أخيراً أخبرهم هيرمان فولهايم أنه أصبح بوسعهم أن يتابعوا طريقهم، في أحد أول أيام السنة الجديدة، فقد مرّت فترة طويلة ودرجة الحرارة دون الصفر، وأصبح الجليد صلباً كفاية ليحملهم، على الأقل حتى يصلوا إلى ستالفيكا، والريح ساكنة تماماً. لكنّ ماريان كانت متردّدة في تركهم يغادرون، فبعد كارثة فقد ولدَيْها كانت في حالة هيستيرية من الجليد، وحتى هيرمان كان متشكّكاً، أو أنه كان يحب أن يقع تحت تأثير مشاعر ابنته.

وهكذا قرّرنا أن نغتنم الفرصة.

ربطنا حبلاً بيننا، ومشينا على الجليد وبين الواحد والآخر مسافة عشرة أمتار أو اثني عشر متراً. كانت البداية موفّقة، لكنّ الجليد بدأ يصرّ تحتنا منذراً بما هو أسوأ، ربما لأنه كان يتكسّر، تداعينا بالصراخ وقرّرنا الذهاب إلى الضفة الجنوبية لمناقشة الوضع.

كنّا حينئذٍ قد ابتعدنا عن ستالفيكا، فغامرنا وأشعلنا ناراً، فقد كانت درجة الحرارة بضع درجات دون الصفر، ولا تزال الريح ساكنة. ناقشنا خيار العودة والسير خمسة كيلومترات أو ستّة إلى فولهايم، ونحن واثقون أنّ الجليد في تلك الطريق سيحملنا، وننتظر هناك في سقيفة القارب بضعة

أيام أخرى. أو أن نغامر في قطع قرابة ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب عبر الغابة – لأنّ خيار البحيرة لم يعد ممكناً، فقد كنا نرى المياه المفتوحة أمامنا على بعد بضع مئات من الأمتار.

لسوء الحظ أخذنا بالخيار الثاني، ولا أتذكّر لماذا قرّرنا ذلك. أو أنّ الشيء الوحيد الذي أتذكّره بوضوح، هو أنّ هوكون قد صمت بطريقة غريبة، إضافة إلى أنه أعطانا نسبته، التي لم يطلبها منه أحد، فلا شيء في ذلك الرجل كان كما ينبغي أن يكون.

خضنا في الثلج يوماً وليلة، وتبادلنا السير في المقدّمة. ثم بدأ الثلج يهطل من جديد، وأصبح السير أكثر صعوبة. في وقت متأخر من تلك الليلة وجدنا الكوخ الذي كان فولهايم قد علّمه على خريطتنا. وتناوبنا أنا وألكسندر على حمل لوريتز في الكيلومترات الأخيرة، وكان هوكون يحبو على يديه وركبتيه، ولم يكن أحدٌ منا قادراً على أن يأكل أو يشعل ناراً، تغطّينا بجلود الحيوانات ونمنا. وعندما استيقظنا في اليوم التالي، لم نكن قادرين على الاستمرار، وكان لذلك نتيجة مصيرية علينا جميعاً. لأننا عندما نجحنا، أخيراً في اليوم التالي، في عبور الحدود ووصلنا إلى بحيرة كفارنبيرغ، لم نجد رجل الاتصال الذي كان من المفترض أن نلتقيه هناك.

لكنّ جليد البحيرة حملنا على أيّ حال.

ووجدنا هناك سقيفة قارب خربة، فقرّرنا أن ننتظر فيها. اشتدّ البرد، وبدأ الطعام يقلّ، وعندما وجدنا رجل الاتصال أخيراً كنا في مزاج سيّئ جداً. قال إنّ اسمه بيتر، لكنني عرفت لاحقاً أنّ اسمه نيكولاس. قال إنه تبع خطانا على الثلج حتى رأى دخان النار – لأننا انتزعنا بعض الألواح من أحد الجدران وأشعلناها لنتدفأ عليها.

رفض رجل الاتصال أن يصطحب معه هوكون، دون أيّ تبرير سوى أنّ رائحته كانت نتنة، وهذا أمر وافقناه عليه جميعاً. غير أنه عندما علم أنّ ألكسندر روسيّ، رفض أن يتعاون معنا. ثم غافلنا وهرب على زلّاجته.

وعندما هبّت الرياح، غطّى الثلج أثره، وفي اليوم التالي لم يكن أمامنا خيار سوى العودة إلى الكوخ بالقرب من بحيرة تونشوين. وصلنا إلى هناك منهكين جداً. أشعلنا ناراً، وأكلنا ما تبقّى لدينا من طعام، وقرّرنا أن ننام، وبعدئذٍ، أن نحاول الذهاب مباشرةً إلى الجنوب على الجانب النرويجي من الحدود، باتجاه قرية صغيرة تُدعى كفيليا. وكانت المسافة إليها مساوية تقريباً للمسافة إلى هيرمان وماريان، غير أنّ الطريق إليها لم تكن واضحة المعالم جيّداً، لكنّها كانت أسهل من السير في طريق الغابة. إضافةً إلى أنها كانت موازية للحدود، بحيث كان بوسعنا الهروب وعبور الحدود فوراً إذا ما رآنا أحدٌ ما. مكتبة سُر مَن قرأ

لكنّ هوكون فقد صوابه تماماً، ورفض أن يذهب إلى الجنوب، بل أراد العودة إلى فولهايم، وأرادنا أن نعود معه، أيضاً. قلنا له إنّ بوسعه أن يذهب بمفرده، ويفعل ما يحلو له. لكنّه أدرك أنّ ذهابه في حالته الزريّة تلك وحده يعني الموت المحتّم. فأشهر علينا مسدّساً، سلاحاً ألمانياً، وهدّدنا بالموت إن لم ننصَع لأمره، انتزع القيادة منا الآن، وكان علينا أن نطيعه أو أن نتلقّى رصاصات مسدّسه.

كان في المنطقة مزارعُ صغيرة وحولها بيوت، وكان اثنان منها مضاءان. أمرنا هوكون أن نذهب إلى أقرب بيت ونجبر سكّانه على إعطائنا طعاماً. لكنّ هيرمان كان قد حذّرنا بشدّة من التواصل مع المدنيين في هذه المنطقة، لأنّ ذلك قد يعود بالضرر على شبكة التهريب كلّها.

حاولنا إقناع هوكون أنّ هذا محال، لكنّه زمجر وهدّدنا، وسخر منا واحداً واحداً، وفهمنا في نهاية المطاف أنّ هناك شيئاً واحداً ينفع معه، وكنت أنا من قام به. فقد وجدنا لاحقاً في حقيبته أدلّة على أنه قد يكون أحد أفراد عصابة رينان: قسائم تموين، دفتر حساب مصرفي عليه صورة له بلباس خاص بالعصابة، واسم مختلف طبعاً...

ربطنا جثّته إلى حجارة، وسحبناها على الجليد وتركنا الثلج يغطّيها. في الليلة التالية ذهبنا إلى كفيليا حيث ساعدنا بعض الناس الطيّبين الذين أخذونا على زلّاجات تجرّها الأحصنة إلى نوردلي، وهناك استقبلنا راؤولد وكاتينكا هوغمو. أمضينا عندهما أسبوعاً، لقد قابلتِهما، طبعاً...

«ألكسندر، هو من قتله»، قالت إنغريد بهدوء في الظلمة التي كانت تغزو الغرفة، وبدأ يتهيّأ لها أنّ هنريك لم يكن يخبرها الحقيقة كاملة، أيضاً.

تفاجأ هنريك، نهض بعصبية، وحاول أن يتذكّر، ثم قال: «كلّا، بل أنا من قتله!».

«كيف فعلت ذلك؟»، سألته إنغريد.

«بحجر أخذته من أرضية المدفأة في الكوخ».

قالت إنغريد إنه لا يوجد في الكوخ مدفأة، بل موقد، فهي كانت هناك وتعرف.

فقال إنه كانت هناك أحجار تحت الموقد، كانت تستخدم لوضع الطنجرة أو المقلاة عليها، أو لوضعها فوق الموقد لحفظ الحرارة.

قالت إنغريد إنّ لديها إحساساً أنه لا يزال موجوداً هنا.

«من تقصدين؟».

«ألكسندر».

«في البيت هنا؟».

«نعم».

«هل أنت مجنونة؟ لقد رحل منذ أكثر من سنة!».

فسألته إنغريد لماذا إذاً كانت تشعر بالغثيان، وتشمّ الرائحة النتنة من حولها، فهي تعتقد أنّ ذلك ليس بسبب الذكريات فقط، بل بسبب الكذب.

«وكيف لي أن أعرف ذلك؟!»، قال هنريك وهو ينظر في عينيها مباشرة.

فسارعته إنغريد بسؤال ما إذا كان ألكسندر متزوّجاً في روسيا.

«اسمها الاتحاد السوفييتي».

«حسنٌ، ثمّ؟».

«كلّا» -قال بصوتٍ خفيض- «لكن كان لديه عشيقة اسمها ماريا، وكانت تدرس الهندسة المعمارية...».

«كان لديه؟!»، قالت إنغريد.

«عفواً!»، قال مندهشاً.

«أنا لا أصدّق ذلك».

سألها لماذا لا تصدّق.

اضطرّت إنغريد أن تنهض وشعرت أنها تقف على الجليد. كانت قدماها باردتين ومتيبّستين. أدارت له ظهرها وخرجت حافية إلى عتمة مرصّعة بنجوم لا عمل لها في هذا الوقت من السنة، أخذت نفساً عميقاً ارتجفت منه رئتاها، ثم سارت على مهل حول المخزن، وشاهدت كوكبة نجوم لم ترَها من قبل قطّ، توقّفت، جفّفت دموعها ثم عادت ببطء، وعندما دخلت كان هنريك قد غادر المطبخ.

سمعت وقع أقدام من الطابق العلوي في الجزء الثاني من المنزل. وانغلق بابٌ بعيد. تساءلت ما إن كان ينبغي أن تُطفئ الكهرباء قبل أن تنام، أو أن تتركها. رأت ابتسامة ألكسندر عندما غادر بارأوي مجدّفاً بالقارب، مثل إسفينٍ أبيض وسط العتمة، وشعرت برجفة في ذراعيها وساقيها عندما فكّرت في أنّ هنريك لم يعد ينتمي إلى هذا المكان أكثر منها، أنه كان غريباً في بيته. عندئذٍ أطفأت الضوء ثم تحسّست الدرج وصعدت إلى كايا النائمة، وكان ضوء القمر الباهت مثل قطعة قماش أبيض على أرضية الغرفة.

# - 27 -

لا يهطل المطر في هذه المنطقة. كان هنريك أكسيلسين وإنغريد واقفين في حقل منحدر في أشعة الشمس المبهرة، يلفّان سلكاً معدنياً رفيعاً ويجمعان الركائز ويضعانها في سلّة الجرّار التي كان بيرنهارد قد وضعها مرة أخرى في الحقل. وبالقرب منهما كانت كايا تحبو فوق بطّانيّة صغيرة. استند هنريك إلى ركيزة وقال وهو ينظر إلى الجبال إنه هو وألكسندر فارقا لورتز في مزرعة هوغمو في نوردلي، لكنّهما لم يذهبا عندئذٍ إلى معبر الحدود الأقرب، بل عادا عبر الجبال النرويجية باتجاه سنوسا.

فهمت إنغريد ماذا كان يعني ذلك، وسألته لماذا لم يخبرا هوغمو وكاتينكا عن وجهتهما؟

«لم نكن نثق بأحد. وحتى إن كان ذلك المدعو بيتر، أو نيكولاس، متأكّداً مما تحدّث عنه بخصوص بحيرة كفارنبيرغ، فكنّا سنجد الحدود مغلقة على أيّ حال».

«حقّاً؟!»، قالت إنغريد.

نظر إليها غاضباً وسألها ما إن كانت عادت لتشكّك في قصّته من جديد؟

«كلّا»، قالت إنغريد بسرعة.

«لكنّ الطريق كان طويلاً. وأنا رجل عجوز. أقمنا في ثلاثة أكواخ مختلفة، ونمنا أربع ليالٍ في العراء على الثلج، وهناك آذيت يدي، أصبتها بالفأس أولاً، ثم تولّى الصقيع بقية الأذيّة».

رفع يده عالياً وفكّ الرباط عنها، وأراها إصبعه الصغيرة المشلولة، وندبة حمراء صغيرة حول الرسغ، كانت تبدو مثل قفّاز آخر من الدم. قال إنه لا يلبس القفّاز بسبب الألم، بل لأنه لا يريد أن يرى الندبة، فهي تذكّره بالشتاء، وهو لم يعد يطيق الشتاء، ثم لبس القفّاز ثانية، وقال: «أنت غريبة».

«لا»، قالت إنغريد، وسألته مرّة أخرى ما إن كان متأكّداً من أنه هو من قتل هوكون.

«أنت لا تستسلمين أبداً».

حدّقت إنغريد فيه؛ فقال: «نعم، لقد مسكه الآخران، وأنا قتلته».

«ومسدّسه؟».

«لم يسنح له الوقت حتى ليحرّر زرّ الأمان».

أشاحت إنغريد بنظرها بعيداً.

فقال هنريك إنّ عليها أن تنظر إليه عندما يتحدّث إليها.

«لماذا؟».

«لأرى أنك تفهمين ما أقوله».

«وهل تعتقد أنني غبيّة؟!».

«حاشاك، بل أعتقد أنك من كوكب آخر!».

«ماذا تقصد؟».

فجأةً بدا لها هنريك مثل كل الآخرين. وبما أنه لم يردّ على سؤالها، كرّرته مرّة أخرى. فقال هنريك إنها جاءت من جزيرة؛ ولذلك هي لا تحتاج أن تتحدّث إلى أحد.

«وأنت من فينمارك»، قالت إنغريد.

فضحك وقال: «ردٌّ موفّق».

قالت إنغريد إنها لم تكن تعرف ما تريد قوله عندما تتحدّث معه، لذلك كانت تقول أول كلمة تخطر على بالها.

«أنتِ حقاً غريبة!»، قال هنريك، ثم جلس وأعطى انطباعاً بأنه قد يحتاج إلى بعض الوقت كي يستطيع أن يتابع قصّته.

فقالت إنغريد إنها تقف الآن بينما هو جالس. وإنها تنظر إليه مباشرة.

ابتسم مستسلماً وقال إنها يجب أن تجلس أيضاً، وإنها ليست مضطرّة أن تنظر إليه.

«أقسى ليلة أمضيناها في البرّيّة في سنوسا كانت عندما أمضينا الليل أمام بيتٍ بدا خاوياً. لكن كان لا بدّ أن نتأكّد من ذلك، وفي نهاية المطاف كسر ألكسندر نافذة قبو البيت، وقد فعل ذلك من أجلي. فقد استغرقت أياماً عديدة حتى تعافت يدي. أكلنا ما وجدنا في البيت من مربّيات، وخبز، ومعلّبات... ونمنا فوق فراش على الأرض، لم نشعل ناراً، ولا شموعاً، وتحرّكنا في عتمة مطبقة، ولم نجرؤ على النظر إلى الخارج؛ وكنا طيلة الوقت نشعر أنه كلّما طال بقاؤنا هناك، زاد خطر القبض علينا. وكان في البيت تليفون، فتكلّمت مع أختي في أوسلو، كما فعلتُ عندما كنا عند هوغمو، وهي التي اقترحت عليّ المزرعة هنا، فقد كانت فارغة

حينئذٍ. وكانت تعتقد أنّ بيرنهارد شخص موثوق، رغم أنّ والديه لم يكونا موثوقين، لأنّ بيلترين كانت في حالة حرب دائمة».

سألته إنغريد عن اسم أخته.

«وما علاقة اسم أختي بالقصّة؟!».

صمتت إنغريد. فقال: «بعد ثلاثة أيام في البيت استطعنا أن نراقب حركة القطارات الليلية، ونجحنا في الصعود على متن قطار شحن إلى تروندهايم. هناك اشترينا ملابس بالنقود النرويجية التي جلبتها معي من الاتحاد السوفييتي، وقضينا ليلة في فندق، مثل أيّ تاجرين مسافرين، كان شيئاً لا يصدّق: ملاءات سرير ناصعة البياض، ماء ساخن، وطعام... استطعنا أخيراً أن نرى أيدينا، لقد وُلدنا من جديد وبقينا نضحك حتى الموت، فقد استعدنا حياتنا من جديد. في اليوم التالي اشترينا تذكرتين وركبنا القطار إلى هنا، ولم تصادفنا أيّ مشكلة».

لم تطرح إنغريد أيّاً من الأسئلة التي كانت على لسانها.

بدا أنه لاحظ ذلك، فاستند على مرفقيه وقال إنّ الأمور سارت على ما يرام في الشهر الأول، لكن عندما بدأت الثلوج تذوب على المنحدرات، أصبح ألكسندر قلقاً. لم يكن لدينا راديو، لكننا عرفنا من بيرنهارد أنّ الحرب تقترب من نهايتها...

«أراد أن يعود إلى وطنه؟».

«نعم، أراد أن يعود إلى وطنه، فقد كان أمراً مرهقاً أن يتسكّع هنا دون هدف. وكان والد بيرنهارد يتردّد على المزرعة كثيراً، ويحشر أنفه في كلّ شيء، واعتبرنا أنّ هذا الأحمق سيعلم بوجود ألكسندر عاجلاً أم آجلاً».

«ولهذا أردته أن يغادر؟».

فكّر هنريك قليلاً، ثم قال: «أعتقد أنني أردت ذلك».

وضعت إنغريد يدها على قفّاز هنريك، وقالت إنّ ألكسندر لم يستطع البقاء في بارأوي أيضاً.

نظر هنريك في عينيها مباشرة، وقال بهدوء: «هذا ما لن نعرفه أبداً، لا أنت، ولا أنا. وهذا ما يعذّبنا».

هزّت إنغريد رأسها وأدركت ما الذي مكّنها من دفع ألكسندر لمغادرة بارأوي: قناعتها بأنهم قد يعثرون عليه، ذات يوم، لكنّها أدركت أنها لم تكن قناعة، ولا حتى أملاً، بل خوفاً، وجُبناً أيضاً.

نهضت وراحت تسير على العشب فوق المنحدر وهي تُصغي إلى خرير الساقية وراء الأكمات، أمام الجبال الزرقاء المسطّحة التي كانت تشبه مصدّات في بحر حليبي هادئ. لقد سألت هنريك من قبل ما الذي قاله ألكسندر عنها، وأجابها هنريك: «تعرفين ما قال لي»، قالها بطريقة قطعت عليها فرصة تكرار سؤالها.

استدارت، وفتحت فمها لتقول شيئاً، لكنّه كان قد حمل كايا ووضعها في حجره، أسند مؤخّرة رأسها على ركبتيه، وراح يلاعبها ويلاغيها. سمعت إنغريد ضحكها، ورأته يبحث عن سنٍّ في فمها، ورأته يقول شيئاً ما، كان يتفحّصها عن كثب وعرف من تكون، وكان هذا فوق احتمال إنغريد.

نزلت إنغريد باتجاه الساقية ورأت هناك بيتاً خشبياً صغيراً بين الأشجار، طاحونة وميزاباً من الخشب الرمادي وفي نهايته صمّام يمتد من الساقية باتجاه ناعورة خشبية تقف ساكنةً. رفعت إنغريد الصمّام، فتساقطت قطرات الماء من ثقوب في الخشب، وعندما امتلأت الشفرات بدأت الناعورة بالدوران ببطء وهي تصرُّ فوق محورها.

علا صوت طائرٍ جارح فوق صوت خرير الساقية. ورأت نعجة وخروفين ينزلون إلى ضفة الساقية ومن ورائهم خروفان أيضاً، لكن دون أجراس حول رقابها. راقبتها وهي تنزل بهدوء وترعى العشب في درب لا بدّ أنها هي التي شقّته. في تلك الأثناء كان هنريك قد وصل ووقف بجانبها وكايا بين ذراعيه، وقال إنه بعد الحرب أُقيم معسكر تجميع في شمال البلاد ومن المرجّح أن يكون ألكسندر قد ذهب إليه، كان معسكر اعتقال ألمانياً، لكنّهم استخدموه لإيواء من يُسمّون نازحين، أسرى حرب، جنوداً، فارّين، لاجئين، روس، يوغسلافيين، بولنديين، متعاونين، مشوّهي الحرب.

نظرت إنغريد إليه.

«تعتقد ذلك؟».

«نعم، فقد اختفى دون وداع، في أيار الماضي، لكنّه كان يعلم بوجود المعسكر، فقد أخبرني بيرنهارد عنه، ومنذ ذلك الوقت لم أسمع أيّ أخبار عنه».

«ماذا يعني ذلك؟»، قالت إنغريد.

«لا أعرف. لقد جرى إعادة آلاف، عشرات الآلاف، من أولئك المعذّبين، إلى أوطانهم. وهو على الأغلب في لينينغراد الآن...».

هزّت إنغريد رأسها ببطءٍ.

سألها فيمَ تفكّر الآن؟

أخذت منه كايا، نزعت حذاءها، وأوقفتها في ماء الساقية.

قال إنّ هذا الماء الجاري من الجبال بارد جداً، وإنّ كايا قد تمرض.

غطّست إنغريد إصبعها في الماء وقالت إنّ الصغيرة كانت تحب أن تغطس في البحر، والبحر أبرد بكثير من هذه الساقية. ابتسم هنريك، ثم

استدار وانطلق صاعداً الدرب الوعر إلى الجبل. فصاحت في إثره: لماذا يخاف الجميع أن يتذكّروا؟!

توقّف. وقال: «ربما لأننا نخاف ما قد يتذكّره الآخرون أكثر!».

فكّرت إنغريد أنّ هذا الكلام يشبه خطاب الدكتور هوبنر.

«أنا أتذكّر كلّ شيء!»، صاحت في إثره.

«بوسعك أن تعتقدي ذلك»، قال ثم تابع طريقه.

أجلست إنغريد كايا على تلّة عشبية صغيرة، وأمسكت قدميها حتى جفّتا، التقت نظراتهما، واعتقدت إنغريد أنها قد تلقّت إشارة. ألبستها جواربها، حملتها على كتفها وصعدت الطريق الذي نزلته الخراف على طول الساقية حتى أصبحت فوق صفّ الأشجار، وتابعت باتجاه الجبال الجرداء. مشت حافية بين نباتات الخلنج وفوق طبقة من الطحالب الفضية، استراحت ثم أكملت سيرها، ولم يكن هناك ريحٌ ولا طريق، واختفى خرير الساقية، وكان الهواء جافاً مثل الغبار، وبدا لها أنها في نزهة في البرّيّة مرّة أخرى، وكانت على وشك أن تبتسم دون أن تعرف سبباً لذلك.

لم يحدث أيّ شيء عندما وصلت إلى تلّة منبسطة وفوقها كومة حجارة بدا أنها من صنع أطفال يلعبون. لكن رأت في كلّ الاتجاهات أبعد بكثير مما استطاعت أن تراه من قبلُ عبر البحر. وأصبح السكون أعمق. نظرت في عيني كايا، ونظرت كايا في عينيها، وفكّرت، سأستدير الآن وأنزل الطريق مرة أخرى. إلى الرجل الذي لم تستطع فهمه خلال هذه الأيام، وكان هناك شيء لافت للانتباه في هذا كلّه، وهو أحد العوامل التي تشدّها للبقاء في هذه اليابسة المبهمة.

وصلت إنغريد هي والمساء إلى فناء البيت، وكان هنريك واقفاً هناك وقدمه على أكوام التبن المجمّعة فوق سلّة الجرّار ويتحدّث إلى شخصين غريبين، عرفت إنغريد أحدهما، بيرنهارد وبرفقته فتاة شابة بشعر أشقر طويل مُرسلٍ كأمواج مستديرة فوق كتفين ممتلئين، وكلاهما يلبس ثياباً أنيقة كأنهما ذاهبان إلى حفلة، وكانوا يضحكون من أشياء يقولونها.

حيّاها بيرنهارد بهزّة رأس ودودة. قدّمها هنريك إلى الفتاة الشقراء قائلاً: «هذه إنغريد»، وسمعت إنغريد اسم سيري، فصافحتها، وقالت لها اسم كايا، التي كانت ما زالت تحملها على كتفها، ولاحظت على الفور أنّ ابتسامة سيري قد بدأت تبهت، ودون تفكير وقفت إنغريد بجانب هنريك، كأنهما زوجان يقفان أحدهما مقابل الآخر، زوجان شابان وزوجان كبيران لديهم أشياء حميمة يتحدّثون عنها.

تضرّج وجه إنغريد خجلاً، فاعتذرت منسحبةً وقالت إنّ كايا جائعة، استدارت ومشت إلى المطبخ، فتحت صنبور الماء وانتظرت حتى أصبح الماء بارداً وغسلت وجهها.

حول طاولة العشاء، في المساء ذاته، قالت إنغريد لهنريك إنّ بوسعه أن يأتي في الليل وينام معها. فنظر إليها بدهشة وقال: «يسعدني ذلك. سأفكّر في الأمر».

ولم ينطقا أيّ كلمة أخرى خلال وجبة العشاء تلك، ما خلا بعض الكلمات مع كايا، التي كانت جالسة بين وسادتين قاسيتين فوق لوح خشبي وضعه هنريك فوق ساعدَيْ الكرسي، وهي تمضغ بهدوء قطع الخبز التي يضعانها في فمها. أخيراً نطق هنريك، وقال إنه ليس عيناها فقط، بل أيضاً

قسماتها وضحكتها نسخة طبق الأصل من ألكسندر، لدرجة أنه يخال نفسه يرى ذلك الرجل الميت حيّاً أمامه.

جفلت إنغريد، نهضت وصاحت: لا، لا! ثم حملت كايا وركضت صاعدة إلى الغرفة، وتسمّرت واقفة في منتصف الغرفة حتى أيقظها صراخ كايا.

لم يأتِ إليها في الليل. تجمّدت إنغريد من البرد، جلبت بطّانيّة إضافية وبقيت تشعر بالبرد، رفعت كايا من سريرها، وضعتها في حضنها ثم تكوّرت حولها وتساءلت لماذا نامتا في سريرين منفصلين طيلة الليالي الماضية.

# - 28 -

هطل المطر بغزارة وأحال أرض الفناء إلى بركة من الوحل. سمعت إنغريد البحر، ورأت العتمة فهرعت لتغلق النافذة. نظرت إلى الفناء في ثورته البرّيّة، فشاهدت عاصفة برق فوق أشجار لوت أعناقَها الريح، وسمعت قصف الرعد المخيف، ثم شاهدت هنريك يركض عارياً من مصيدة الرياح إلى الحظيرة. زلّت قدمه فوقع على وجهه، ثم انقلب على ظهره في الطين والعشب وأطلق ضحكاً هستيرياً.

وقف منحنياً، وهو يلعن بصوتٍ عالٍ، ثم شدّ قامته فجأة ونظر إلى أعلى، فرأى إنغريد ولوّح لها يائساً بيده دون قفّازها.

فتحت إنغريد الباب وركضت إليه، ارتمت فوق عنقه وقالت له إنها لم تحبّه. فدفن وجهه في عنقها وقال إنه لم يحبّها أيضاً. وبقيا واقفين يحضنان أحدهما الآخر، ثم ترنّحا وسقطا. كانت إنغريد تلبس فستان ماريان فولهايم، الذي غسلته يوم أمس. شعرت أنه قد يضربها، غير أنه سقط مثل كيس خيش وعنَّ قائلاً إنه لا يطيقها، وإنها ينبغي أن تبتعد عنه.

«كلّا»، قالت إنغريد وضمّته بقوّة أكبر.

استلقى ووجهه في الوحل وهو يعنُّ، رجل نجا من الحرب يدفن وجهه في الوحل ويعنُّ. بقيت إنغريد متشبّثة به حتى توقّف جسده عن الارتعاش، وحارت في ما بين أن تقبّله أو تشرب ماء المطر الذي كان قد ملأ أذنيها ويجري نازلاً على خدّيها إلى زاويتي فمها.

ناشدها قائلاً: «كفى!».

«كلّا!»، قالت إنغريد.

«كفى الآن!»، قال مرة أخرى وأسند رأسه على زندها. سألته إنغريد ما إن كان يشعر بالبرد، ولم تفلته. فقال: كلّا، ولم يتزحزح. بقيا على هذه الحالة حتى سمعت صراخ الطفلة، وشعرت بالأصوات في جسده أيضاً. نهضا وتمتما باعتذارات متبادلة، ثم دخلا كلٌّ في أحد بابي المنزل المزدوج بينما كان المطر مستمراً في الهطل ويجلد كلّ ما يطوله.

أمضيا بقية النهار التالي يتحرّكان داخل البيت، وعندما التقيا قالا: «قريباً يتوقّف المطر، وقد فعلنا خيراً بأن أدخلنا التبن إلى الحظيرة...». أعدّت إنغريد قهوة، شرباها كلٌّ في غرفته، لعبت مع كايا، وغنّت، وجلت الأطباق، ورتّبت المطبخ الذي بدأ يصبح أصغر فأصغر. ثم جاء هنريك بحذاء وضعه على الأرض عند قدميها وقال إنه كان لأخته، وإنه من الأفضل ألّا تتجوّل بجزمة عمّال المناجم، فهذا غير لائق بسيّدة. سألته إنغريد ماذا يعني: غير لائق، لكنّه لم يجبها. جرّبت إنغريد الحذاء، إنه على مقاس قدمها. وقالت له في ذلك المساء أيضاً، عندما كانا حول طاولة الطعام، إنه يمكن أن يأتي هذه الليلة وينام معها.

لكنّه لم يأتِ.

نهضت إنغريد في منتصف الليل وذهبت إلى البيت الثاني، وخبطت على الباب الرابع.

«ادخلي!».

وجدته جالساً في كنبة منجّدة الذراعين بجوار النافذة. وعلى طاولة صغيرة بالقرب منه زجاجة كحول وكأس فارغة. طلب منها أن تجلس. ليس في الغرفة ما يمكن أن تجلس عليه سوى السرير. سألته لماذا لم يأتِ إليها. فقال: «لا أعرف».

بقيت إنغريد واقفة وسألته عن اسم أخته.

قال إنّ اسمها «إليزابيث».

سألته لماذا لم يستقصِ عمّا جرى لرفاقه بعد العملية الفاشلة في آرن أوي.

نظر إليها مندهشاً، لكنّه لم يجبها.

سألته ما الذي لم يخبرها به.

تلوّى بغضب مكتوم.

فسألته ما الذي يخاف الإفصاح عنه؟ لأنه هو ذاك الشيء نفسه الذي يجعله يختبئ هنا.

«كفّي عن أسئلتك، ودعينا في سلام!».

نظرت إنغريد حولها، فرأت رفوفاً عليها كتب مرتّبة بعضها فوق بعض، وطاولة تشبه طاولة كاتب. أجل، هناك شيء آخر تودّ أن تسأل عنه - ما إذا كانت ماريان وهيرمان قد عرفا أنهم قد قتلوا ذلك الرجل، المدعو هوكون، هناك على الشاطئ الشرقي من بحيرة تونشوين؟

سألها عن سبب اهتمامها بذلك، ثم قال غاضباً: «أعتقد ذلك. فقد أخبرنا راؤولد هوغمو وطلبنا منه أن يتحقّق ما إذا كان هوكون مندسّاً».

نظرت إنغريد في الفراغ. فقال: «أعتقد أنه كان مندسّاً، رغم أني لم أسمع من راؤولد».

«لكنّك لم تجب على الرسائل»، قالت إنغريد.

«أنا لم أتلقَّ أيّ رسائل، لقد قلت لك ذلك. ولماذا لا تسألين أي سؤال عن ريغيل؟ عن أولئك الذين جرى شيَّهم أحياء على متن تلك السفينة. آلاف من الرجال الأبرياء. وبعد ذلك تصيَّد الألمان العديد ممن نجوا لأنهم لم يحتملوا سماع عويلهم، ولا أحد يأتي على ذكر ذلك».

لم تفهم إنغريد.

قال متضجّراً: «لقد كانوا جميعهم روسيّين. والعالم يسير في الاتجاه الخطأ الآن، وكلّ ما كُتب هو تجاهلٌ وكذبٌ، وهذا السلام مجرّد كذبة كبيرة، وكيف ندّعي غير ذلك بحقّ الجحيم؟!».

قالت إنغريد إنها غير مهتمّة بالسياسة.

قال إنه قد عرف ذلك. نهض وسار إلى خزانة مطليّة باللون الزهري، جلب قدحاً، ملأه وأعطاه لها، ثم قال إنّ ألكسندر وأربعة آخرين نجحوا في ركوب قارب نجاة، مع ضابط ألماني. وجرفتهم العاصفة حتى تحطّم قاربهم على شاطئ جزيرة، حيث مات رفاقه الأربعة، بسبب الصقيع أو الإصابة... لكنّ طوفاً آخر من ألواح خشبية وأنابيب أوصلهم إلى...

«بارأوي».

«كما تقولين أنت، لأنّ ألكسندر لم يتمكّن من لفظ اسم الجزيرة، وكان الضابط الألماني نصف ميت حينئذٍ».

«لكنّك ذكرت اسم الجزيرة بارأوي، عندما وصلت أنا إلى هنا»، قالت إنغريد.

«نعم، ربما. لقد تذكّرت اسمك، على أيّ حال. وربما اسم بارأوي أيضاً، لا أتذكّر ذلك».

قالت إنغريد فجأة إنها يمكن أن تعود الآن إلى بيتها، وشكرته لأنه كان رجلاً صادقاً معها.

فوجئ بكلامها، وقال: «تعودين إلى بيتك؟».

«ألم تقل إنه قد مات؟».

هزّ رأسه، ثم نهض وسار إلى درج، فتحه وأخذ منه كومة رسائل ورماها في حضنها. لم تستطع إنغريد قراءة أيّ كلمة منها سوى كلمة «لينينغراد»، وبعض الأرقام وكلمة «الاتحاد السوفييتي».

«هذه رسائلي أنا. وكلّها مرتجعة».

كرعت إنغريد كأس الكحول برشفة واحدة، وسألته ماذا يعني ذلك؟

أخذ نفساً عميقاً، وقال بعصبيةٍ: «ألا تفهمين شيئاً؟!».

«كلّا!»، قالت إنغريد.

«ربما لم يعد راغباً في أيّ علاقة معنا!».

«لماذا؟».

«لديه حبيبته -الروسيّة- ماريا. ويريد أن ينسانا جميعاً. ينبغي أن تفهمي ذلك جيّداً».

«لماذا؟ لماذا؟!»، سألت إنغريد بإلحاح. فقال بلهجة مختلفة تماماً إنه الوحيد الذي استطاع أن يتحدّث مع ألكسندر.

نظرت إليه إنغريد مستفسرة.

فقال إنه الوحيد الذي عرف القصّة الحقيقية وراء احتراق يديه، وقد حدث ذلك لأنّ ألكسندر وألف وخمسمئة سجين روسي آخر كانوا محبوسين في عنبر على متن ريغيل عندما قصفها الألمان واحترقت، وقد نجا لأنه تعلّق بأنبوب معدني متوهّج، وهذا ما لم يستطع الآخرون فعله، فقد كانت إرادة الحياة لديه أقوى من الجميع.

أمسكت إنغريد زجاجة الكحول، سكبت كأساً آخر، كرعته دفعة واحدة، وألقت بنفسها على السرير. ركع هنريك على الأرض بجانب السرير، ورفع يديها، اللتين غطّت وجهها بهما بحركة لا إرادية.

«لقد عرفتِ الحقيقة الآن!»، قال بصوتٍ هادئ وهو ما زال محتفظاً بيديها في يديه الباردتين، وكان قفّازه خشناً وممزّقاً، حتى إنها رأت الندبة الحمراء حول معصمه في ضوء العتمة. سحبت إنغريد يديها، وركضت إلى الممرّ، ومن ثم إلى غرفتها، وهناك رأت أنّ ساعة فولهايم تشير إلى الواحدة وخمس دقائق، ولم تعرف أين هي.

كانت كايا نائمة في مهدها. ولاحظت إنغريد أنّ النافذة مفتوحة، وأنّ المطر قد توقّف. تذكّرت الجدران وصور الحيوانات فوقه، ارتمت فوق السرير وهي ترتجف، وشاهدت بارأوي وألكسندر عندما وجدته في الحظيرة، تلك الصور التي لم تتغيّر إطلاقاً، حدّقت في ساعة فولهايم التي كانت تشير إلى الثالثة والنصف، وسمعت صوت طرق على الباب.

«ادخل!»، قالت إنغريد.

دخل هنريك وفي يده زجاجة كحول نصف فارغة، وجلس صامتاً على كرسي بجوار النافذة. لاحظت إنغريد أنّ عينيه جافّتان، وسألته بصوت

حملته العتمة ما إن كان يريد الاستلقاء بقربها على السرير. قال إنه يريد البقاء جالساً. رأت إنغريد انعكاس صورته في النافذة وسمعت أنفاس كايا النائمة. نهض عن الكرسي ثم جاء واستلقى وراءها على السرير وهو بكامل ثيابه. أخذت إنغريد يديه وضمّتهما فوق بطنها، وسمعته يهمس في مؤخرة رقبتها إنها امرأة غريبة الأطوار. أمسكت يده المقفّزة بين يديها ولم تنم إلا بعد أن نهض مع أول شعاع شمس، وخرج من الغرفة على رؤوس أصابعه.

## - 29 -

وجدت إنغريد كيس طحين في غرفة المؤونة وبدأت في إعداد الخبز. جاء هنريك من ورائها وقال مبتهجاً إنه اعتاد أن يخبز، وإنه كان خبّازاً في حياته السابقة. شعرت إنغريد بأنفاسه على مؤخرة رقبتها، وسألته كم حياةً عاش. لكنّه لم يردّ على سؤالها.

لعب مع كايا بينما كانت إنغريد تخبز.

تحدّث عن زوجته التي فقدها بسبب مرض السلّ قبل خمسة عشر عاماً، وعن فينمارك وسفينة جدّه التجارية، التي كانت تنقل البضائع من ميناء أرخانجليسك الروسي، وعن دراسته في العاصمة أوسلو، وإقامته في لندن، التي لم تثمر عن شيء، وعن إقامته لبعض الوقت في ستوكهولم، التي لم تلبِّ تطلّعاته أيضاً، ثم قال -وكأنّ لهذا علاقة بالقضية- إنه لم يكن فلّاحاً، لكنّه، على الرغم من ذلك، يعيش الآن مخاض التحوّل إلى فلّاح.

تظاهرت إنغريد أنها لم تفهم قصده، وسألته من هم الحزبيّون.

«إنهم رجال المقاومة في فينمارك، الذين عملوا من الجانب الروسي في المقاومة النرويجية. لكنّه كان كبيراً في العمر حينئذٍ، وإنه أمرٌ مروّعٌ أن يكون المرء كبيراً في العمر...».

قالت إنغريد إنه يبدو الآن مثل امرأة عجوز. فسألها ما إن كانت قد كرهته. قالت: لا، ووضعت رغيف الخبز في الفرن، وسألته مرة أخرى لماذا لا يزال مختبئاً؟

قال: «ألا تملّين أبداً من طرح الأسئلة؟!».

هزّت كتفيها وسألته عن عمق معرفته بماريان وهيرمان فولهايم، وأصغت إليه وهو يعيد ما كان قد قاله للتوّ. أصغت إليه وهو يتحدّث عن ولديه، اللذين لم يرهما منذ أكثر من عام، وأنهما كانا مختلفين معه في السياسة وأشياء أخرى. لكنّه لم يذكر أيّ مثال عن الاختلاف بينهم، ولم تسأله إنغريد عن ذلك أيضاً، لكنّها طلبت منه أن يحدّثها عن اليوم الأخير قبل اختفاء ألكسندر.

«من هنا؟».

«نعم. ما الذي تحدّثتما عنه في ذلك اليوم؟».

لكنّ كايا بدأت تصرخ وهي على الأرض. ضحك، رفعها ووضعها على الطاولة، وأمسكها من تحت إبطيها بحيث تستطيع أن تقف. وشعرت إنغريد أنه كان بحاجة إلى ذلك الوقت الذي استغرقه ليرفع كايا ويضعها على الطاولة. واستمعت إليه وهو يتمتم إنها ينبغي ألّا تقلق على ألكسندر، لأنه في وطنه الآن ومع حبيبته ماريا، وعليها أن تتقبّل تلك الحقيقة.

قالت إنغريد إنها لا تصدّق هذا الكلام.

أجلس كايا، وخرج مثل جنديٍّ غاضبٍ يغادر ساحة معركة لم يستطع أن يفوز بها. بقيت إنغريد واقفة وهي تتساءل ما إن كان حقاً هو الذي غادر، وهي التي بقيت هناك واقفة.

وجاء في تلك الليلة واستلقى وراءها وطوّقها بذراعيه. كانا عاريين الآن، وعندما نهضا، لبسا ثيابهما وهما واقفان ظهراً لظهر.

يوجد في قبو البيت غرفة غسيل، حيث يُغزَلُ الصوف، وتُغسل الملابس في قدرٍ كبير، إضافةً إلى ثلاثة أحواض كبيرة تحت نافذة عريضة لا يمكن الرؤية عبر زجاجها المعالج بالرمل. تحمّمت إنغريد وحمّمت كايا في الحوض الكبير، وغسلت الملابس في الحوض المتوسط. غسلت أيضاً ملابس هنريك، قمصانه، وسراويله، وثيابه الداخلية، وعلّقتها بجانب الحفّاضات والسترات، وفستان ماريان فولهايم، على حبل غسيل بين المخزن والحظيرة، عائلة من ثلاثة أشخاص مرئية بوضوح من كلّ الاتجاهات.

جاء وطرق على الباب، وقال إنه توجد غرفة ساونا في المزرعة، وهو لا يعرف كيفية استخدامها، لكنّهما يستطيعان أن يكتشفا ذلك خلال النهار. فهمت إنغريد عرضه، وأجابته بالموافقة من وراء الباب المغلق.

مساء اليوم ذاته جلسا ملفوفين في مناشف فوق مقعدين خشبيين في غرفة الساونا فوق الطاحونة، وهما يراقبان كايا العارية تحبو على الأرض الرطبة بين جرنين من التوتياء مليئين بالماء لتلعب به. اقترح عليها هنريك أن تبقى معه في المزرعة، وتعلّمه الزراعة. كرّرت إنغريد إنها تريد أن تعود إلى بيتها، وكانت أكثر هدوءاً الآن، رغم أنّ رائحة الليلة الشتوية في تلك الغرفة الغامضة كانت قد اختفت. ثم خطر لها أنّ يدي ألكسندر كانتا معطوبتين بحيث لم يستطع إطلاقاً أن يلمسها كما يمكن لرجل أن يلمسها، وأنّ ذلك كان في غاية الأهمية.

قال هنريك، مقاطعاً أفكارها: «لقد عشتِ زمن الحرب دون أن تستطيعي فهم شيء».

التفتت إنغريد في ذلك الضوء الرمادي ورأت رجلاً وسيماً، بوجنتين عاليتين، وقسمات مميّزة، رجلاً رشيقاً، بارز العضلات، وقلباً صغيراً يخفق تحت بشرة خدّه الأيسر، يمكن سماع ضرباته وهو نائم.

انحنت فوقه، وقبّلته فوق قلبه النابض في وجهه، وسألته ما الذي فهمه هو؟

صاح إنّ الحرب قد دمّرت كلّ شيء، نهض وقذف بمحتويات سطل فوق الموقد، الذي همَّ بقوّة، ثم خرج.

جلست إنغريد، ساكنة، وهي تراقب كايا التي كانت تضرب الأرضية بطاسة الماء.

عاد هنريك وفي يده سطل مليء، وابتسم كأنّ شيئاً لم يحدث. لاحظ أنه يقف عارياً وسط بخار الماء، لفَّ نفسه بمنشفة وزحف مثل قطة وجلس بقربها على المقعد الخشبي. لاحظت إنغريد أنها تبكي وأنها كانت تبكي منذ بعض الوقت. قال إنه لم يكن قادراً على العودة إلى فينمارك، وإنه علق هنا في هذا الجحر النازي، المكان الأكثر أماناً في البلد إبان الحرب، أما الآن فهو جحيم مطلق، وسألها ما إن كانت تستطيع أن تبقى هنا؟

قالت بهدوء إنّ المكان قد أصبح شديد الحرارة على كايا، حملتها بين ذراعيها وخرجت عارية في ذلك الليل الصيفي، واقشعرّ جسدها عندما قال وراءها إنّ ألكسندر لم ينقذه هو فقط، بل أنقذها هي أيضاً.

«لكن من أجل ماذا؟».

صعدت إلى الغرفة، لبست ثيابها، وألبست كايا، تلكّأت متشاغلة بأشياء مختلفة ثم نزلت إلى المطبخ، حيث أعدّت الطعام. لكنّه لم يأتِ. أكلتا ببطء.

رتّبت المطبخ، وضعت كايا في السرير وخرجت ثانية في عتمة الصيف الاصطناعية. سمعت صراخاً من الحظيرة، ووقع أقدام، ثم صرير سلاسل حديد، وتحطّم زجاج. عادت إلى البيت ثانيةً وصعدت إلى غرفتها واستلقت في سريرها وانتظرت. سمعت صوت الباب في البيت الثاني، لكنّها لم تسمع وقع خطوات. قرّرت أنها ينبغي ألّا تنام، وأنها ينبغي أن تجلس كي تبقى مستيقظة. لكنّها غطّت في النوم وحلمت بأحجار تسدّ طريقها، ووجوه لم تعرفها، عندئذٍ أدركت فجأة ما كان ينبغي أن تدركه منذ اللحظة الأولى لدخولها باب هذه المزرعة.

نهضت ثم انطلقت راكضةً إلى المنزل الثاني، فتحت باب الغرفة، وارتمت فوقه في السرير وصاحت إنه كان حريّاً به أن يخبرها الحقيقة.

استيقظ وهو يسعل، وحاول أن يزيحها من فوقه. ضغطت إنغريد عليه بكلّ جسدها، وكرّرت إنه كان ينبغي أن يخبرها عن ألكسندر وماريان.

«ماذا تقصدين؟».

«أنت سألتني ما إذا كان لديها أولاد، رغم أنك تعرف أنّ ولديها قد ماتا في الجليد!».

خيّم صمت طويل.

ثم شهق هنريك: «يا إلهي!».

صرخت إنغريد إنّ ألكسندر لم يكن ينام معهم في سقيفة القارب، بل مع ماريان.

في البدء، أنكر هنريك مرّتين، ثم أزاحها من فوقه بسهولة غريبة، وجلس في السرير ومسح وجهه بيده كما لو أنه يزيل قناعاً عنه. جلست إنغريد متربّعة على الأرض بجانب السرير وسمعته يغمغم: أجل، أجل! ففهمت إنغريد الحكاية. لكنّه قال إنّ ذلك لا يعني شيئاً.

التزمت إنغريد الصمت. فاعتذر وقال إنّ ماريان كانت ما كانت عليه، واعتادت أن تحصل على ما تريد.

«وهو» -صاحت إنغريد- «هل حصل على ما أراد أيضاً؟!».

«لا معنى لذلك كلّه، كما قلت لك. فتى صغير أراد أن يعيش».

«عمره اثنان وعشرون عاماً».

«وأنت عمرك خمسة وثلاثون، أم ستة وثلاثون...؟!».

«هل نام معها كلّ ليلة؟!».

«لا أتذكّر. كلّا، ليس في الليلة الأولى».

«وهل عرف هيرمان بذلك؟».

«نعم، أعتقد أنه عرف».

سمعت إنغريد وقع قدمين حافيتين على أرضية الغرفة، ورأت ظلّاً أمام الخزانة المطلية باللون الوردي، التي تحتوي الأقداح وزجاجات الكحول. سمعته يفتح الخزانة ويُخرج منها زجاجة كحول ويكرع منها كرعة كبيرة. ثم انتقل وقع قدميه إلى منطقة جلوسها، وسمعته يسأل ما إذا كانت تريد أن تشرب. قالت له إنها لا تريد، ثم أضافت إنه قد أصبح نصف رجل.

قهقه عالياً، ثم استدار وارتمى على ظهره فوق السرير.

دقّقت إنغريد النظر في الساعة التي تُتكتك تحت بشرة خدّه الأيسر.

«تعالي استلقي هنا!»، قال بصوتٍ متعب.

لم تتزحزح إنغريد.

«لقد فعل ما كان ينبغي أن يفعله. إنه ناجٍ من الموت، يا إنغريد، وهو الآن بطل في الاتحاد السوفييتي، فالروس يهتمّون بأبطالهم».

«القضية لا تخصّ الفتى».

«ما الذي لا يخصّ الفتى؟».

تمتمت قائلة إنها لم تكن زلّة لسانه عند البوّابة هي التي فتحت عينيها على ما جرى بين ماريان وألكسندر. فقد شعرت بالأمر في ذلك الصباح، عندما وقفت ماريان معترضة طريقها في مزرعة هوغمو، والطريقة التي قالت بها إنه لا بدّ أن يكون قد نجح في عبور الجبال. وكذلك قاله وجهها، والنمش على عنقها، ورجفة الندبة على زاوية فمها. ماريان الجميلة التي فقدت كلّ شيء، والتي استعادت حياتها ثانيةً مع هارب روسي، ما لبثت أن فقدته هو أيضاً.

حدّق فيها هنريك، بترقّبٍ.

نهضت إنغريد ووقفت في مكانها ساكنةً رغم اضطرابها. ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها برفقٍ، وذهبت إلى البيت الثاني وهي مصمّمة على ألّا تنام الآن أيضاً، كان شعوراً غامضاً وغريباً.

أشعلت الضوء واستلقت محدّقة إلى ثريّا السقف خماسية الأذرع بظلال صغيرة وردية الأشكال. كان أحد الأذرع معقوفاً وعليه لطخة بنّيّة اللون. وقفت على السرير، فكّت اللمبة ووضعتها على طاولة السرير، ثم استلقت محدّقة في الخيوط الفضية المرتعشة خلف الزجاج كمّثريّ الشكل. كانت الثريّا تتأرجح في السقف. نهضت إنغريد أطفأت الضوء،

وقفت بجانب النافذة وحدّقت عبرها حتى رأت الحقول المتلألئة في مزرعة بيلترين. بعدئذٍ استلقت وأغمضت عينيها وانتظرت أن يأتي. لكنّه لم يأتِ.

# - 30 -

استيقظت إنغريد باكراً، وتسلّلت إلى البيت الثاني، وقفت وراء باب مغلق وأصاخت السمع إلى أنفاس مضطربة، ثم عادت وجلست إلى طاولة المطبخ لتكتب رسالة شكر. شكرته على كلّ ما خطر في ذهنها في تلك اللحظة، وأدهشها أنه كان أكثر مما توقّعت، بقيت جالسة تماطل في الخطوة التالية، وعندما لم تعد قادرة على المماطلة، تركت الرسالة على الطاولة أمام النافذة، نهضت وعادت مرة أخرى إلى ذلك الباب المغلق في البيت الثاني، واستمعت إلى أنفاسه المضطربة، طال وقوفها ولم يحدث أيّ شيء.

عادت وحملت كايا التي كانت لا تزال نائمة، والحقيبة التي كانت قد أعدّتها مسبقاً، وغادرت البيت في يوم يوحي بأنه سيكون مثل كلّ الأيام الحارّة الجافة في هذه المنطقة التي لا تتغيّر، باستثناء ذلك اليوم الماطر، عندما حدث شيء لم تستطع أن تفهمه.

نزلت ذلك الطريق المغبرّ دون أن تشعر بعيون في ظهرها، وتجاوزت مزرعة بيلترين عندما سمعت صوتاً في السماء. توقّفت، رفعت بصرها

وراحت تراقب طائرة، بينما كانت طيور السنونو تزقو فوق المروج الصفراء التي أصبحت أكثر خصوبة.

سمعت صوتاً آخر، صوت حديد ووقع حوافر، لقد وجدها بيرنهارد الذي كان يقود عربة خيل. توقّف وسألها ما إن كانت بحاجة إلى توصيلة.

قالت إنغريد إنها ذاهبة إلى موقف الباص هناك عند تقاطع الطريق.

ابتسم وقال إنه لا توجد باصات اليوم، لأنه يوم الأحد.

جلست إنغريد على مضض بالقرب منه، واستيقظت كايا في تلك اللحظة. ابتسم بيرنهارد لها وقال إنها طفلة جميلة. وقال إنه سيجلب أمّه من محطة القطار، لأنها في إجازة مرضية الآن، لكنّه لم يذكر من أين حصلت على الإجازة المرضية، وسأل إنغريد ما إن كانت ستستقلّ القطار.

«نعم».

«إلى الجنوب؟».

«كلّا، إلى الشمال».

قال إنها ستضطرّ إلى الانتظار طويلاً.

قالت إنغريد إن كان هناك ما تَبْرع فيه فهو الانتظار، حتى إنها لم تسافر بعد، كما لو أنّ برينيت ستبقى معها إلى الأبد. سألها بيرنهارد ما إن كانت قد قضت وقتاً ممتعاً، وما إن كانت تربطها قرابة مع هنري؟ أجابته بـ«نعم» عن كلا السؤالين، وقالت وهي تنظر إلى ظهر الجواد إنها قد سافرت مسافات طويلة في هذا الصيف، لكنّها لم تقابل بعد شخصاً سعيداً فعلاً لأنّ الحرب قد انتهت.

نظر إليها من طرف عينيه بدهشة وقال، إنه هو تحديداً سعيد فعلاً لانتهاء الحرب، لأنّ كلّ شيء سيستقرّ الآن ويعود إلى ما كان عليه من قبل.

سألته إنغريد: «هل تفهم كل ما أقوله؟».

«نعم».

أحسّت أنه يشبه دانيال في مالفيكا، رجل نقيّ الطوية، وسألته ما إن كان يعلم أنّ هنريك قد آوى أحداً في برينيت في الشتاء الأخير من الحرب.

«لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال»، قال بلهجة من المستحيل أن تفهم منها إنغريد ما إذا كان لا يستطيع أم لا يريد أن يجيبها.

قالت إنغريد إنّ الحرب لم تنتهِ بعد، على أيّ حال.

نظر إليها مدهوشاً، مرة أخرى.

حدّقت في ظهر الحصان الأغبر، الذي بدأ يتصبّب عرقاً أبيض الآن من تحت الأحزمة والنير الخشبي، وقالت إنه ينبغي أن يهتمّ بهنريك، فهو لا يمكن أن يبقى وحيداً بعد الآن.

«أوه!» -قال بيرنهارد- «لقد أصبح لديّ أعباء أكثر من طاقتي، مع وصول أمي اليوم!».

فقالت إنغريد: «لأنه ليس فلّاحاً».

«ليس فلّاحاً؟»، قال بيرنهارد.

سألته إنغريد لماذا لا يزال هنريك في برينيت، وممّن يختبئ؟

استغرق بيرنهارد في التفكير، بينما راحت إنغريد تعدّ الأشجار، ومصاطب تحميل الحليب.

أخيراً قال: «لقد كان يستلم بريداً منتظماً، من ساعٍ خاص حتى الصيف الماضي».

«حقّاً؟!»، قالت إنغريد.

قال بيرنهارد بتروٍّ إنّ رفيقيه اللذين كانا معه في آرن أوي قد نجحا في العودة إلى الاتحاد السوفييتي، لقد رحلا سيراً على الأقدام عبر السويد وفنلندا.

«حقّاً؟!».

«لكن لم يُستقبلا كبطلين، وقد وضعوهما في معسكر، وفقاً لأوامر ستالين، وقد أُعدم أحدهما رمياً بالرصاص بعد أن حاول الهروب من المعسكر».

«يا إلهي!»، قالت إنغريد، ولم تجرؤ على استنطاقه مزيداً من التفاصيل، بل سألته ما إن كانا نرويجيين أم روسيين.

«نرويجيَّين».

بصعوبة نجحت إنغريد في كبت عبارة «الشكر لله!». وقاد بيرنهارد الحصان في عطفة جديدة، ثم أخذ الجانب الظليل من الطريق. كانت العربة فخمة، مطليّة باللون الأسود اللامع، أما إطار العجلات وأسياخها فكانت باللون الأخضر، وزخارف ذهبية على الجانبين. سمعا جريان ماء، وشاهدا سرباً من الغربان يطير عن الأرض إلى الجانب الأيسر من الطريق. ومرّا بكثير من الناس الذاهبين في الاتجاه ذاته، وكان بيرنهارد يلقي التحيّة عليهم جميعاً، رغم أنّ بعضهم لم يردّ له التحيّة، وقطعا الكيلومترات الأخيرة صامتين.

# - 31 -

دخلت إنغريد ماريا بارأوي إلى بناءٍ آخر لمحطة القطار ورأت ثلاثة شبّان، ورجلاً كبيراً في العمر، يقفون في طابور أمام شبّاك التذاكر. على الحائط بين شبّاك التذاكر وباب رصيف المحطة عُلّقت خريطة النرويج في إطار زجاجي. وقفت أمامها، وراحت عيناها تبحثان عن أسماء أماكن، طرقات، وأسماء مسارات القطارات... وشاهدت على الزجاج بقعة رمادية، خلّفتها آثار آلاف الأصابع قبلها، فوق النقطة كُتب: أنت تقف هنا، حيث كانت تقف إنغريد، في منتصف البلاد والصيف. رأت عبر النافذة، وإلى اليمين، قطار الجنوب يصل إلى المحطة، فالساعة الآن تشير إلى التاسعة وإحدى وخمسين دقيقة صباحاً، كما شاهدت مسافرين ينزلون منه وآخرين يصعدون إليه بالترتيب ذاته الذي شاهدته في محطّات أخرى من قبل، في فورموفوس، في تورندهايم، في روروس...

وجدت إنغريد ميسين في أسفل الخريطة، وفهمت أنه يمكنها الوصول إليها انطلاقاً من العاصمة، إن أرادت أن تسافر إليها بالقطار. وفي الوقت ذاته شاهدت بيرنهارد على الرصيف يساعد امرأةً عجوزاً تلبس ثياباً سوداء وغطاء رأس على نزول درجات المقصورة الوسطى من القطار، وتجمّعت

حولهما مجموعة من الناس بعضهم يصيح وبعضهم يتكلّم، وكان بيرنهارد مستاءً.

نظرت إنغريد إلى شبّاك التذاكر، لقد تبقّى من الطابور شابّ واحد فقط، وبدا أنّ هناك خلافاً بين الأشخاص الواقفين على جانبي شبّاك التذاكر، فخرجت إلى ضوء الشمس، أومأت برأسها إلى بيرنهارد، الذي لم يلاحظها، ثم صعدت إلى المقصورة التي نزلت منها أمّه، وجلست في حجرة فارغة، حيث استطاعت أن ترى من نافذتها بيرنهارد وأمّه العجوز يتحرّكان وسط حشود من الناس الذين ما زالوا يصيحون عليهما. ساعد أمّه على ركوب العربة، وصاح رادّاً على شيء قيل، ثم قاد الجواد خارجاً من المحطة، في اللحظة التي انطلق فيها القطار ثانية، وكانت إنغريد تسافر في الاتجاه الخطأ مرّةً أخرى.

بقيت جالسة تتفرّج على المناظر الجديدة حتى استيقظت كايا، أعطتها دميتها، ووضعتها في منتصف المقعد المقابل، ثبّتتها بين قدميها، دغدغتها بأصابع قدميها، وسألتها ما إن كانت جائعة.

ابتسمت كايا وهزّت بدميتها.

تبادلتا النظر.

فتحت إنغريد حقيبة ظهرها وأخرجت دفتر رسوماتها: ميسين واسم معسكر الاعتقال ومعسكر تجميع الروس والبولنديين... - «بقايا الحرب». واسم إليزابيث، لأنها كانت تعتقد أنّ هنريك قد كذب في ادّعائه أنها أخته، مالكة الحذاء الذي وضعه أمام قدميها على الأرض، وكان أفضل حذاء تمتلكه إنغريد على الإطلاق.

تحت دفتر رسوماتها وجدت صندوقاً من الورق المقوّى، وكان ملفوفاً بورقة، فنزعتها إنغريد عن الصندوق وقرأت فيها: «إن كنت في طريقك إلى البيت، فستكونين أول من وضع الحرب وراء ظهره، أحيّيك بحرارة».

إن لم تكن في طريقها إلى البيت، فعليها أن تعود فوراً إلى برينيت، فالمزرعة تحتاجها، إضافةً إلى أنّ هنريك نادم لأنه قال إنه لم يحبّها.

لاحظت إنغريد أنّ خطّه جميل جداً، مع تزيينات كتابية ليست من تقاليد رسائل المزارعين، وشعرت بالانزعاج لأنها نامت أيضاً.

فتحت إنغريد صندوق الورق المقوّى، فسقطت في حجرها أسطوانة معدنية صغيرة، بدت مثل علبة خرطوش بغطاءٍ لولبيّ. فتحت الغطاء، فسقطت في حجرها أسطوانة أخرى، سوداء اللون وعليها رسوم وأحرف كبيرة صفراء، ورؤوس لولبية عريضة في الأعلى والأسفل. هزّتها إنغريد وحاولت فتحها، غير أنها استسلمت وأعادتها إلى الحقيبة، ثم أعادت قراءة رسالة هنريك، وشعرت بالشعور ذاته الذي انتابها أول مرة، إذ بدأ إيقاع القطار يؤثّر على إيقاع جسدها، بينما مرَّ القطار بمشهد لا نهائي من الأشجار العالية في ضوء النهار المغبرّ.

أحصت نقودها، ولم تستطع أن تخمّن إلى أيّ مدى يمكن أن تكفيهما، هذا إن أغفلنا كلفة طريق العودة إلى البيت. أرادت أن تنزل من القطار مرّةً أخرى، لكنّها بقيت جالسة في مقعدها. أرادت أن تطعم كايا، لكنّ مفتّش تذاكر، شابّ أشقر، من دون قبّعة المفتّشين، قرع باب المقصورة بثقّابة التذاكر، ثم فتح الباب، ووبّخها بغضبٍ وصوتٍ عالٍ لأنها لم تقطع تذكرة قبل ركوب القطار.

«كان ينبغي أن تشتريها في المحطة!»، صاح خلال الضجيج الذي أدخله إلى الحجرة.

فصاحت عليه إنغريد إنه لم يكن لديها وقت لتفعل ذلك.

«إذاً سأكتب لك تذكرة الآن!»، صاح موبّخاً.

«طبعاً تستطيع أن تكتب. ألا تستطيع؟!».

«عقلي سليم تماماً»، قال كما لو أنه ينطق تعويذة احترافية، ثم دخل إلى الحجرة، وأغلق الباب، فحلَّ الهدوء ثانية. أخبرته إنغريد أين هي ذاهبة، لكن في كل الأحوال ينبغي أن تسافر انطلاقاً من العاصمة.

فقال: لمَ لا، لأنّ القطار ذاهب إلى العاصمة أصلاً.

نظرت إليه إنغريد.

هزَّ رأسه، نظر إلى كايا وقال: انتظري، ثم خرج وعاد بعد قليل ومعه خريطة مشابهة لتلك التي رأتها على جدار المحطة. وكان معه أيضاً مسند كتاب، قلم رصاص، ودليل طرق النرويج، ثم جلس بجانب كايا وطلب من إنغريد أن تكتب بنفسها تذكرة سفرها، وأن تجد الطريق بنفسها، سواء كان بالباص أو أيّ وسيلة نقل أخرى، من إلفيروم، على سبيل المثال، غير أنه لن ينصحها بذلك أبداً.

قلّبت إنغريد صفحات الدليل ووجدت طريقاً اعتقدت أنّه مناسبٌ، وهو يتضمّن أربعة باصات متقاربة الأوقات، وطريقاً التفافية قصيرة المسافة تقطعها سيراً على قدميها. وضع قاطع التذاكر إصبعه على الخانة التي ينبغي أن تكتب فيها وجهتها، وكتبت إنغريد.

لكنّه لم يغادر الحجرة، وسألها لماذا تسافر إلى ميسين.

قالت إنغريد إنها لا تعرف، وكانت صادقة في ذلك، فهي تبحث عن شخص قد لا يكون على قيد الحياة.

ضحك بعصبية.

بدأت إنغريد تُطعم كايا. بقي جالساً يتابعها باهتمام حتى دخل القطار إلى محطة جديدة، فنهض وقال إنّ بوسعها أن تحتفظ بدليل الطرقات والخريطة، ثم غادر. عندما نامت كايا، استطاعت إنغريد أيضاً أن تغمض عينيها. حاولت ماريان أن تثني ألكسندر عن عبور الجبال في الجليد، لكن لم يكن أمامها خيار، لأنه رغب في ذلك وأصرَّ عليه.

## - 32 -

وصلت إنغريد ماريا بارأوي إلى معسكر الاعتقال السابق سوندرلاغر ميسين في مساءٍ ماطر في أوائل شهر آب من عام ألف وتسعمئة وستّة وأربعين، بعد رحلة مرهقة بالقطار وأربعة باصات، ثم سيراً عبر غابتين شاهدت فيهما بيوتاً بيضاء، وحظائر صفراء، ودروباً ومسالك مرصوفة بالحصى، وأخيراً أوصلها سائقٌ شاحنة نكدٌ إلى بوّابة المعسكر.

كان الظلام يحجب المعسكر، الذي لم يبدُ كمعسكر، فقد حلَّ الليل، والغيوم كثيفة، وقد حصل أمرٌ خلال الأيام القليلة الماضية -طرقت بوّابة المعسكر لكنّ أحداً لم يفتح لها الباب- وغدت خطواتها بلا معنى، وبدأ يساورها القلق بشأن موسم الحصاد في بارأوي، وسعر ما تبقّى لديهم من ريش العيدر، في لحظة الحقيقة تلك، والبيت الذي ينبغي أن يقوم بطلائه أحدٌ غيرها...

تخيّلت سفينة صيد الحيتان في الميناء، وابتسامة باربرو القلقة، كما تخيّلت الحزن والقلق على وجه سوزانا، أقلّ أفراد العائلة انسجاماً مع بارأوي، وهي عالقة هناك في زمنَيْ الحرب والسلم.

وكانت إنغريد قد ساومت، لمدة عشر دقائق، فلّاحاً أراد أن يبيعها حليباً

بثمن باهظ، ثم تركته ومشت وهي تنظر إليه بازدراء لحماقته. وفكّرت في ليالي الشمال المضيئة، التي تتراجع ببطء الآن، وتتحوّل بالتأكيد إلى ظلام موحش، مثل ليالي الجنوب هذا. كما شاهدت صِبْيةً شبه عراة يصطادون في بركة قصب، توقّفت لتغسل فيها حفّاضات كايا. ورأت أبقاراً بنّيّة اللون وكبيرة الحجم أنهكها قيظ النهار وبدت غير قادرة على الوقوف.

نامت ومشت مثقلة بحملين إضافيين: الحقيبة فوق ظهرها، وكايا فوق بطنها، وسألت كلّ من قابلتهم عن الطريق الذي ينبغي أن تسلكه لأنها لم تستطع أن تميّز طريقاً عن الآخر. لقد مشت أكثر من أيّ شخص آخر، عبر بلد لا أحد عرفها فيه، ولا أحد سيتذكّرها، وزاد في الطين بلّة صوت تلك السيارة التي تجاوزتها تاركةً إياها في غيمة من الغبار، الأمر الذي جعلها تنفجر في بكاء مُرٍّ. كانت تقف على حافة جرفٍ صخري، لكنّها تابعت رحلتها، التي استنزفت طاقتها حتى إنها لم تستطع أن تقدّم لابنتها الرعاية الأمثل. مرّت بحجرَيْ تحديد مسافات طرقية، وشاهدت أمّاً تصفع ابنها دون رحمة. ومشت في سديمٍ شمسيٍّ قائظ، وهي تحدّق في حقول ذرة لا نهائية، وشاهدت فريق نجّارين يبني مستودع غلالٍ فوق أطلال مستودع قديم. وسمعت صوت ميكانيكي، لكنّها لم تفهم ما قاله لأنه لم يكلّف نفسه عناء رفع رأسه عن محرّك السيارة لينظر إليها. رغم أنها تفاجأت في أنها لم تكن تفكّر في ألكسندر، تابعت سيرها في حذاء إليزابيث، التي لن تقابلها أبداً، ذلك أنّ الاستمرار في الرحلة، في حالتها هذه، أهون كثيراً من العودة إلى الوراء، فهي لم تعد تبحث عن الحقيقة، فقد أصبحت رحلتها مطاردة يائسة لنقطة تحوّل.

وخلال الساعات التي استغرقتها عودة الضوء، جلست على مقعد

موقف باص ونامت نوماً مضطرباً وكايا في حجرها. وفي الساعة الخامسة فجراً، توقّفت أمام الموقف سيارة نقل، وأُلقيت منها رزمة جرائد استقرّت فوق الحصى أمامها. وكان المطر حينئذٍ أشبه بذرّات طحين طائرة. حدّقت إنغريد في رزمة الصحف، الرطبة، حديثة الطباعة. توقّف صبيّ على درّاجة أمام موقف الباص، قصَّ رباط رزمة الصحف بسكّين طيّ أخرجها من جيبه، ملأ حقيبته بالصحف، ثم اختفى دون أن يلاحظ وجود إنغريد.

توقّف المطر غير المرئيّ، وأشرقت الشمس عبر الغيوم. شعرت إنغريد أنها تحبّ كايا أكثر من أيّ وقت مضى، نهضت، بردانة ومتيبّسة، ثم مشت عائدة إلى معسكر سوندرلاغر ميسين، وخبطت على الباب مرّةً أخرى، ولم يفتح لها أحدٌ أيضاً، ضغطت على زرّ جرس نحاسي على عمود البوّابة الأيمن، كان يُفترَض أن تسمع رنيناً، لكنّها شاهدت ضوء كشّاف هائل ينير المكان كما لو أنه ضوء نهار، وسمعت صوتاً ذكورياً أجشّ عبر كوّة في البوّابة يسألها ماذا تريد.

صاحت إنغريد إنها مبتلّة.

«وأنا بردان»، أجاب الصوت.

سمعت وقع خطا، وصوتين يتحدّثان معاً. ثم سمعت السؤال الأول، مرة أخرى.

«أنا أبحث عن زوجي»، قالت إنغريد.

«ما هي جنسيتك؟».

«نرويجية».

«وزوجك؟».

«روسيّ...».

«الوضعية العائلية؟».

«ماذا تقصد؟».

«هل أنتما متزوّجان؟».

«آه... نعم».

«لا يوجد روس هنا، فقد أُعيدوا إلى ديارهم، مرة أخرى».

«كلّا، لم يُعادوا جميعاً»، صاحت إنغريد.

«على أيّ حال، عليك أن تنتظري بروتوكول!»، قال أحد الصوتين بعد توقّف قصير، ثم انغلقت الكوّة مرة أخرى.

أرادت إنغريد أن تصرخ إنه لا حاجة إلى ذلك كلّه، لأنّ هذه كانت نقطة التحوّل، أليس كذلك؟

انفتحت إحدى درفتي البوّابة، ثم سُمع هدير محرّك. عبرت البوّابة سيارة نقل على متنها صناديق خشبية تهتزّ، ثم اختفت في الطريق الرئيسي. قفزت إنغريد إلى داخل البوّابة قبل أن تنغلق ثانية، فوجدت نفسها فجأة بين ثلاثة جنود بزيٍّ رسميّ، لم ترَ مثله من قبل. أمسكها أحدهم بذراعها، لكنّه تركها فور رؤيته لكايا، وقال إنه غير مسموح للمدنيين بدخول المعسكر.

كادت إنغريد تقول إنّ بوسعهم أن يتركوها تخرج إذاً، عندما انفتح بابٌ عن يسار البوّابة، وخرج منه جنديٌّ شابّ، أشقر الشعر ويلبس قميصاً دون سترة، سار نحوها وهو يتفحّصها بتمعّن، وسألها ما إن كانت هي التي تبحث عن روسيّ.

هزّت إنغريد رأسها.

طلب منها أن ترافقه إلى الداخل، وأشار إلى كرسيٍّ خشبيّ بالقرب من مدفأة باردة. ثم جلس وراء مكتب، فتح درجاً وأخرج منه دفتراً بحجم

صحيفة، فتحه وبدأ يقرأ من الأعلى إلى الأسفل وهو يحرّك مسطرة وسبابته في الوقت نفسه. ثم قال دون أن يرفع بصره عن الدفتر إنها ينبغي أن تثبت شخصيتها.

«ماذا؟».

«هل لديك بطاقة هوية؟».

«ماذا؟»، قالت إنغريد مرة أخرى.

نظر إليها، وقال: «أليس معك بطاقة هوية؟».

هزّت إنغريد رأسها. نهض ودار حول الطاولة وحدّق فيها وفي كايا.

«ينبغي أن أعترف أنك محظوظة جداً».

أخرجت إنغريد كايا من الشال، رفعتها أمام وجهها لتشعر بدفئها. عاد الجندي إلى وراء مكتبه وسألها عن اسمها، ودوّنه، ثم تاريخ ميلادها وعنوانها، ثم قال دون أن يرفع نظره عن الدفتر إنّ الأمر قد يستغرق نصف ساعة.

الدليل الوحيد الملموس على أنّ إنغريد ماريا بارأوي قد كانت هناك في معسكر سوندير لاغر مويسين، في صيف عام 1946، هو اسمها، تاريخ ميلادها، وعنوان سكنها، التي جرى تدوينها بأحرف كبيرة في وثيقة تاريخية قيد الإنشاء، وقد وقّعت عليه بخطّ يدها، كما تقتضي الإجراءات الرسمية، وعلى الرغم من ذلك لن يهتمّ به لاحقاً مؤرّخون أو أشخاص عاديون، إنها مجرّد اسم عديم الملامح من بين 4322 آخرين في هذا المَرجِعِ، الذي يفتقر، على أيّ حال، إلى خانة تبيّن الغاية من الزيارات العديدة.

تبيَّن أنّ بروتوكول هو لقب لامرأة ضخمة في الخمسين من العمر،

بساقين على شكل برميل عالقتين في حذاء صغير خاكي اللون مع أبازيم لامعة. إنها المسؤولة عن كتيبة السجينات، اللاتي كانت تسمّيهنّ سجينات ومعتقلات في آن معاً، هذا ما قالته لإنغريد بصوتها الجهوري. وكانت تلبس زيّاً يشبه الزيّ الرسمي لممرّضة ومجنّدة، وفوق كتفيها سترة صوفية بأكمام فضفاضة، وقد ضفرت شعرها في جديلتين نحاسيّتَيْ اللون وربطتهما حول رأسها بإحكام مثل حافة قبّعة. ولها عينان صغيرتان، زرقاوان ومبتسمتان، وبدت محبطة عندما عرفت أنّ إنغريد تبحث عن رجل، وقالت إنها مضطرّة، على كلّ حال، أن تفتّش حقيبتها، لأنه ممنوع إدخال الأسلحة، الكحول، أو الأدوية إلى هذا المعسكر.

فتحت إنغريد حقيبتها، كما طُلِبَ منها، وسرعان ما عثرت بروتوكول على السكّين، وقالت: «ماذا تسمّين هذه؟!».

قالت إنغريد إنّ هذه سكّين والدها، وإنها تستعملها في تقطيع الخبز.

وضعت بروتوكول السكّين في صندوق معلّق على الحائط بالقرب من المدفأة. وأبدت اهتماماً كبيراً بساعة فولهايم، وقامت بضبطها من جديد، على الساعة الثانية عشرة، على ساعة يدها، التي كانت كبيرة الحجم مثل ساعات الرجال. ثم أمسكت بالأسطوانة المعدنية، التي كان هنريك قد وضعها في حقيبة إنغريد، وطلبت منها أن تفتحها.

«هذه خرطوشة فيلم، والتصوير ممنوع هنا!».

تذكّرت إنغريد أنها قد شاهدت كاميرا في إحدى الغرف في برينيت، الغرفة التي انتابتها فيها أحاسيس غريبة، وقد كانت مثبّتة على حامل قابل للطيّ، في الزاوية وراء الباب.

«لكنني أرى أنه ليس معك كاميرا»، قالت بروتوكول، ووضعت

الأسطوانة في الصندوق بجانب السكّين. ثم طلبت من إنغريد أن تعيد توضيب حقيبتها بنفسها، وانتظرتها حتى فرغت من ذلك، ومشت أمامها خارجةً من باب الغرفة.

سارت إنغريد وراءها عبر معسكر الاعتقال في زمن السلام، معسكر تنقية وآلة فرز لأشباه بشر كانوا على وشك الاستيقاظ في نهار جديد والزحف إلى خارج الثكنات التي تحمل لافتات بيضاء اللون كُتب عليها: وارسو، جدينيا، فيلنو، لوو، وبوزان... معسكر اعتقال ألماني في مملكة السلام، رجال ونساء وأطفال مُخَزَّنون، مثل أحذية، وقبّعات في صناديق عالية وسط نباتات الخلنج.

لم يكونوا هزيلين وغير مبالين مثل السجناء الروس الذين شاهدتهم إنغريد في الشمال أثناء الحرب، كانوا يلبسون ثياباً رمادية بالية قليلاً، جنوداً سابقين، أسرى حرب، فارّين، عبيداً، متعاونين مع الألمان، مذنبين وضحايا، يشتركون جميعاً في خرق الحدود، وفوضى انعدام الجنسية، ويقفون الآن على مضض في صفّين على جانبي شارع تحاول هذه الشمس البيضاء أن تحوّل طينه إلى غبار.

قالت بروتوكول من فوق كتفها: «إنهم يتلقّون عناية جيّدة هنا. يحصلون على الطعام والماء، ومن نثق بهم يحصلون على عمل، وكرونين في الأسبوع».

سألت إنغريد همساً: «وهل يستحمّون، أيضاً؟».

«إذا رضي عليهم الناس، أقصد أهل المنطقة، لأنهم لا يحبّون البولنديين».

بدا كما لو أنّ أبانا الذي في السماوات قد قسم الحرب إلى فريقين،

وقطّع الجثث إلى أحجام شبيهة بالبشر وزجّهم جميعاً في سلّة من الأسلاك الشائكة.

كان الصمت الآن في صالح بروتوكول بهيئتها القيادية، التي قبضت بأصابعها الثخينة على حلقة مفاتيح تتدلّى من زنّار بنطلونها.

همست إنغريد: «هذا ليس على ما يرام».

«من الذي ليس على ما يرام؟»، قالت بروتوكول.

رأت إنغريد شابّاً يحدّق إليها، كان يلبس ثياباً رمادية، وعلى رأسه يدٌ كبيرة وعريضة تبدو مثل قبّعة، لا بدّ أنها يد والده، الذي كان يحدّق إليها أيضاً. بجانبهما وقف رجلٌ آخر ويده على كتف بنت صغيرة ترتدي فستاناً باهتاً مخطّطاً بالأحمر والأزرق، وجوارب حتى الركبتين، تلبس في قدميها قبقابان أسودان تقشّرا عند مقدمتيهما. وبجانبهما امرأة كبيرة ومعها فتاة صغيرة، أمٌّ وابنتها، ترتديان فستانين متشابهين حتى في اهترائهما. وشاهدت خمسة عشر رجلاً بأحجامٍ وأعمار مختلفة، وجميعهم حليقو الرؤوس مع اختلاف أطوال شعرهم، وبالقرب منهم يجلس على كرسيّ رجلٌ ذو شعر رماديّ ولحية سوداء، وجميعهم ينظرون إليها نظرة فارغة. وكان هناك ستّة رجال يقفون صفاً واحداً تحت لافتة كُتب عليها: جدينيا، وعلى يمينهم رجل عجوز جالس على الأرض، وعلى كتفه يد، أيضاً، لا بدّ أنها يد ابنه، شابّ وسيم، نحيل ورياضي يحدّق إليها بنظرة تشبه نظرات السخرية، وبالقرب منهما رجل أصغر قليلاً، عاري الصدر، وبطنه مثل كيس فارغ تتدلى من حول حزام خصره، وفي عينيه نظرة جادة تتناقض مع تكشيرته الودودة، وفي يده سيجارة رفعها إلى شفتيه في اللحظة التي نقلت إنغريد بصرها إلى امرأة من عمرها، كانت تجلس القرفصاء، وظهرها

إليها، وهي تهمهم فوق صندوق خشبي على دواليب، أشبه بعربة أطفال، ووراءها شاب صغير رفع يده اليسرى ليعطي إشارة، لكنّ صديقاً بجانبه رفع يده اليمنى ليمنعه من إرسال إشارته.

قالت بروتوكول: «قد يحالفك الحظ. رغم أنّ الغالبية هنا بولنديون، فنحن نعتقد أنّ هناك بعض الروس، في مثل عمرك، ما زالوا مختبئين بينهم».

تمتمت إنغريد قائلة إنه ليس من عمرها.

استدارت بروتوكول وحدّقت إليها.

«إنه أصغر مني بكثير»، قالت إنغريد ولاحظت أنّ الصرامة لم تفارق وجه بروتوكول. حدّقت فيها بروتوكول بعينيها الصغيرتين مطوّلاً، ثم وضعت يدها على خدِّ إنغريد فجأة، وسحبتها ثانية، وتابعت سيرها وقالت بصوتٍ عالٍ وسط هذا الحشد القليل إنّ الكذب لن يفضي بها إلى ما تحلم به، وإنّ الحقيقة وحدها هي الناجعة هنا.

«انظري حولك!» -صاحت بروتوكول- «جميعهم موجودون هنا لأنهم كذبوا في أسماء أوطانهم، وفي أسمائهم، وفي ما فعلوا؛ ليس لديهم هويّات، ليس لديهم أسماء، ولا جوازات سفر، ويدّعون أنه لم يعد لديهم أوطان يعودون إليها. فما الذي سنفعله بهم؟!».

توقّفتا أمام خمسة رجال يتحلّقون حول رجل سادس جالس على الأرض وهو ينظر إليهم. كانت تشكيلتهم تشبه نجمة انفتحت في خطٍّ مستقيم، وقالت بروتوكول شيئاً اعتقدت إنغريد أنها فهمته.

هزّ الرجال رؤوسهم، ووضعوا أيديهم وراء ظهورهم، وحاولوا قدر الإمكان ألّا ينظروا إلى هاتين الدخيلتين.

«إن أردتِ رأيي» -قالت بروتوكول- «فإنّ الروس يعرفون أوامر

ستالين وإصراره على إعدامهم جميعاً إذا ما عادوا إلى ديارهم، أعتقد أنّ هؤلاء جنود سلافيون، انظري هل زوجك بينهم؟!».

دققت إنغريد النظر فيهم واحداً بعد الآخر، ثم قالت بصوتٍ هادئ: «لا»، و«لا» أخرى بعد أن نظرت إلى الرجل الجالس متربّعاً على الأرض حافي القدمين، وقد كان أصغرهم سناً، في العشرين من العمر، والذي نظر إليها مغازلاً بابتسامة كشفت عن أسنانه السوداء.

«إنه شخص ذكيّ» -قالت بروتوكول- «وهو الذي أقنع الآخرين أن يدّعوا أنهم بولنديون».

استدارت بروتوكول نحو أحدهم وقالت: «ذلك الرجل يقول إنه صربيّ. لكنّ البولنديين لا يحبّون التعامل مع الصربيّين».

«هل تتكلّمون النرويجية؟»، سألت إنغريد.

قالت بروتوكول، وهي تشير إلى الرجل الجالس على الأرض متربّعاً، وحافي القدمين: «ذلك يتكلّم النرويجية».

هزّ الرجل رأسه موحياً بأنه قد يعرف شيئاً ما، لكن يبدو أنّ ذلك يتوقّف على السعر، وسألته إنغريد ما إن كان قد سمع باسم ألكسندر نيجنيكوف، من لينينغراد، في الرابعة والعشرين من العمر.

كانت ابتسامته مثل ندبة. نظر إلى رفاقه وقال شيئاً، بدا مثل أمرٍ، فهزّوا رؤوسهم، وأشاحوا بصرهم عن المرأتين.

«نعم، نعم، لقد كانت هذه مثل رصاصة في الظلام»، قالت بروتوكول، بشيء من الإحباط، ثم غيّرت نبرتها وقالت بصوتٍ عالٍ: «هل تناولتم طعاماً اليوم؟!»، فأجاب الخمسة الواقفون بـ«نعم»، وقال السادس، الجالس على الأرض: «نعم، شكراً!»، ثم ضحك، وقال شيئاً لم تفهمه بروتوكول.

«الآن، إنه يتكلّم مزيجاً من الروسية والبولندية، ما رأيك؟»، قالت بروتوكول.

لم تستطع إنغريد أن تتجاهل خشخشة المفاتيح في السلسلة، لكنّها شاهدت زوجين شابّين يقفان بين آخر ثكنتين في المعسكر ويتحدّثان بصوتٍ خفيض. كانت المرأة في فستان مخطّط باهت اللون، وخيوط متدلّية من حول خصره، وسترة صوفية خضراء بلا أزرار تثبّتها بين ذراعيها المتقاطعين فوق صدرها؛ بينما كان الرجل يرتدي الثياب الرمادية ذاتها، التي من الصعب معرفة نوع نسيجها، وجاكيت بزّة مهلهلة، وربطة عنق رخوة كان قد وضعها بين زرّين في قميصه الأصفر المجعّد. وكانت بروتوكول تلاحق نظرات إنغريد.

«نعم، أمامك هناك، زوجان لطيفان. اذهبي وتحدّثي إليهما!».

نظرت إليها إنغريد باستغراب.

«أجل، اذهبي وتحدّثي إليهما. فهما هنا منذ أكثر من عام، وهو بولندي ولا يريد العودة إلى بلده. وهي لا تريد أن تعود إلى بيتها، رغم أنها نرويجية. إنه الحبّ، كما يقولان، حبّ خرائي. لكنّهما شابّان قويّان، لا بدّ أن أعترف لهما بذلك».

# - 33 -

وقفت إنغريد على بعد مترين، أو ثلاثة أمتار منهما. نظرت إليها المرأة بابتسامة غامضة، بينما نظر الرجل إلى الغابة وراء الأسلاك الشائكة، ووضع يداً في جيبه، واستدار نصف استدارة، وهكذا استطاعت إنغريد أن ترى جانب وجهه. قالت اسمها بصوتٍ عالٍ وسألت ما إن كانا يقبلان التحدّث معها. اقتربت منها المرأة.

«هل أنت نرويجية؟».

«نعم، أنا نرويجية».

«يا إلهي، ما الذي تفعلينه هنا؟!»، صاحت المرأة.

روَت إنغريد قصّتها مرة أخرى، وشعرت لأول مرة أنها تلقى آذاناً مُصغية باهتمام، وأنهما سيصدّقانها، وأنها قد وجدت أخيراً الأشخاص المناسبين. لكن بمجرّد أن أدركت ذلك، لم تستطع أن تكمل القصّة.

اقتربت منها المرأة وطوّقتها بذراعها.

«آه، يا عزيزتي!».

وضع الرجل يده على جبينه واستدار. دفنت إنغريد وجهها في شعر كايا، ورأته يهمس لزوجته شيئاً قبل أن يتركهما ويذهب إلى ما بين الثكنتين.

«إنه خجول»، قالت المرأة، وأخبرتها أنها تعلّمه اللغة النرويجية. قالت إنّ اسمها كاري، ووضعت يدها على رأس كايا، واستمرت في الحديث عن نفسها، كما لو أنها وجدت فرصة نادرة للتخلّص من عبء قصّتها أيضاً. نظرت إليها إنغريد بترقّب. ولم يحدث أيّ شيء أيضاً عندما التقت نظرتها بنظرات كايا. قالت إنغريد إنها كانت تأمل أن تجد والد كايا هنا.

استمرّت المرأة في الحديث عن زوجها، الذي أسره الألمان عندما احتلّوا بولندا في 1939، ومنذ ذلك الوقت نجا من العديد من معسكرات العبيد في ألمانيا، والنرويج، لكنّه لا يحب الحديث عن ذلك، ولا حتى مع زوجته، وقالت عبارتها الأخيرة بلكنة تشبه لكنة هيرمان فولهايم.

أسقطت إنغريد حقيبة ظهرها على الغبار الرطب، وسألتها ما إن كان من الممكن أن تحمل كايا قليلاً.

«طبعاً، ما الأمر؟!»، قالت المرأة.

«أحتاج أن أجلس قليلاً».

جلست إنغريد على الأرض، ونظرت إلى بروتوكول والروس الستة الذين بدا أنهم قد عادوا إلى حديثهم المعتاد، وضحكهم أيضاً، ووراءهم ذلك الجدار الرمادي الصامت من أشباه البشر تحت شمس تظهر وتختفي ثانيةً، رمشت إنغريد.

جلست كاري بجانبها ووضعت كايا في حِجرها. وكان الغبار أكثر من العشب. وراحت إنغريد تقطف أوراق العشب وتكوّمها بعضها فوق بعض، بينما كانت كاري تقول إنها قد حبست نفسها هنا، من أجل أن تُخرج زوجها، وضحكت من ذلك.

«أنت تشبهينني»، قالت إنغريد.

فقالت كاري دون أن ترفع بصرها عن كايا إنها لا تعتقد ذلك، وإنها لم تعرف أحداً يشبهها. فكّرت إنغريد أنها هي أيضاً تعتقد أن لا أحد مثلها، وسألتها ما إن كانت غير قادرة على أن تتزوّج ذلك الرجل؟

«إننا متزوّجان، لكنّهم لن يمنحوه جواز سفر لأننا متزوّجان».

سألتها إنغريد كم تفكّر أن تبقى في هذا المعسكر.

«بقدر ما يتطلّب الأمر من وقت».

«أنت مثلي»، قالت إنغريد مرّة أخرى.

«لا أعتقد ذلك»، قالت كاري مرّة أخرى، وقالت إنغريد إنها تشعر بتحسّن الآن، وإنها أحسّت أنّ زوجها قد اختبأ في هذا المكان بين البشر هنا، وإنه كان يقف في مكانٍ ما وينظر إليها، كما شعرت لعدّة أسابيع أنّ عينيه تنظران إليها من وراء الأشجار، والناس، وعربات القطارات، تشجّعانها على الاستمرار، وهذا الشعور يكاد يختفي الآن وهي جالسة هنا، بينما كان ينبغي أن يكون العكس هو الصحيح.

نظرت إليها كاري مدهوشة، وقالت إنها ينبغي ألّا تستسلم.

تأمّلتها إنغريد مطوّلاً.

همست كاري وهي مُطرقة أرضاً: «إنّ عدد الروس في المعسكر هنا أكثر منهم في الخارج، بوسعي أن أطلب من تشيك أن يتحدّث معهم، فهو يجيد اللغة الروسية، لكنّ الأمر يستغرق بعض الوقت».

«ولماذا يحتاج بعض الوقت؟»، سألتها إنغريد.

«لأنّ الأمر معقّد».

«ما هي تعقيداته؟».

«إنه زعيم البولنديين، لكن لديه أصدقاء روسيين أيضاً. وأنت عليك أن تطلبي من بروتوكول أن تسمح لك بالبقاء هنا بضعة أيام، قولي لها إنه ليس لديك جواز سفر، أو نقود، قولي أيّ شيء، قولي إنك ستنامين في جدينيا معي، وإننا معرفة قديمة وقد جئت من أجل أن تقنعيني بالعودة إلى بيتي...».

لاحظت إنغريد أنّ بروتوكول قد غادرت الرجال الستة، الذين كانوا جالسين جميعاً على الأرض الآن حول شيء يشبه لعبة.

«لا أستطيع ذلك».

«ما الذي لا تستطيعين؟».

«لا أستطيع أن أبقى هنا».

حدّقت كاري فيها مطوّلاً، خلعت وشاحها وقلبته ثم طوته من جديد ولبسته مرة أخرى. سألتها إنغريد متى تحدّثت آخر مرّة إلى أحد خارج هذا المعسكر. لم تجبها كاري. خمّنت إنغريد أنها قد تكون في التاسعة عشرة أو العشرين من العمر، وطلبت منها أن تستمر في الكلام، لأنّ إنغريد لم تكن قادرة على الوقوف على أيّ حال. وكان زوج كاري ما يزال واقفاً بين الثكنتين وعيناه عليهما؛ كاري تتحدّث دون توقّف وإنغريد تستمع، بينما كان ينبغي أن تكون الحالة معكوسة، وكانت أصابعهما تلاعب كايا التي تضحك.

# - 34 -

أقامت إنغريد في الأيام التالية في غرفة صغيرة في بنسيون بالقرب من المعسكر، ولم تتوقّف عن التفكير في ما حدث معها في المعسكر. كانت الأيام طويلة ومتشابهة، والطقس ذاته كلّ يوم، رذاذ مطر غير مرئيّ ليلاً، وحرارة لا تطاق نهاراً.

كانت تأكل في البنسيون، وتغسل ثيابها في غسّالة رخيصة. راجعت دليل الطرق في النرويج، عدة مرّات، لتجد الطريق الأفضل إلى البيت. كتبت رسالة إلى سوزانا، ابنتها بالتبنّي، أخبرتها فيها ما اعتقدت أنه ينبغي أن تعرفه عن تنقّلاتها، في رحلتها القصيرة هذه، وأنها ستعود إلى البيت قريباً، وربما تصل إلى البيت قبل أن تستلم سوزانا الرسالة، وأنها تشتاق إليهم، إلى تلك القارة البعيدة التي اسمها بارأوي، وتشتاق إلى سوزانا أيضاً، وطلبت منها أن تبلّغ تحياتها للجميع.

لكنّ إنغريد لم تغادر.

فكّرت في أن تكتب رسالة إلى هنريك في برينيت؛ الآن في ضوء النهار الطويل. كتبتها، لكنّها لم ترسلها. كما فكّرت أيضاً في أن تكتب لماريان فولهايم، لكنّها لم تكتب أيضاً.

تجوّلت في قرية صغيرة بيوتها خشبية منخفضة وأشجارها عالية جداً، وفيها حدائق مليئة بالفاكهة الناضجة، ومختلف أنواع التوت، وكلاب مربوطة لا تطارد أحداً. تجوّلت حول المعسكر مرّة، مرّتين، أو ثلاث مرّاتٍ كلّ يوم، مثل طائر مفترس، وعندما مرّت، ذات يوم بمحلّ تصوير تذكّرت خرطوشة الفيلم التي أعادتها بروتوكول لها إلى جانب السكّين عندما غادرت المعسكر.

فتحت باب المحلّ ودخلت، وقالت لرجل بقي جالساً على كرسيّه وراء مكتب أسود، إنها تريد أن تُظهِّر صور هذا الفيلم.

أمسك الرجل خرطوشة الفيلم وقلّبها بين يديه، ثم قال: «آه، فيلم باثنتي عشرة صورة. لا بأس!».

تلفّتت إنغريد حولها في هذه الغرفة الجذّابة، التي تشبه استوديو تصوّرت فيه خلال الحرب، برفقة ذلك الطبيب المعالج. سألت الرجل ما إذا كان مصوِّراً؟

«بالتأكيد. هل أبدو لك غير ذلك؟!».

لم تُجبه إنغريد. وسألته ما إن كان الأمر يستغرق وقتاً طويلاً؟

«التقاط صورة؟»، قال وزمَّ شفتيه، ثم نقر بأصابعه على الطاولة، وابتسمت عيناه الزرقاوين الصغيرتين، تحت حاجبين أشقرين، كثيفين يلتقيان فوق جسر أنفه العريض.

قالت إنغريد إنها قصدت تظهير الصور.

«قد يستغرق الأمر أسبوعاً، أو أسبوعين، على ما أعتقد».

«لماذا؟».

«ماذا تقصدين؟»، قال الرجل.

فسألته إنغريد، مرة أخرى، بهدوء: لماذا يستغرق ذلك وقتاً طويلاً؟!

قال لأنّ تظهير الصور يستغرق وقتاً طويلاً، ثم ناولها قصاصة ورق كان قد اقتطعها من ظرف أصفر، وضع فيه خرطوشة الفيلم.

قرأت إنغريد ما هو مكتوب على الورق، وعرفت أنّ تاريخ التسليم في نهاية الشهر.

سألته كم تكلّف صورة لها ولكايا معاً؟

انتقل الرجل من وراء الطاولة، ووقف ينظر إليهما وقد حمل ذقنه في يده اليسرى، ووضع اليمنى تحت مرفقه، ثم ذكر مبلغاً اقشعرّ له جسد إنغريد. ابتسمت له كايا. فلاعبها بأصابعه قليلاً. قالت إنغريد إنهما ستنتظران موعد التسليم، وغادرت.

عادت إلى البنسيون، وقالت للزوجين اللذين يديرانه، إنها تريد أن تبقى بضعة أيام أخرى، لكنّها لا تمتلك نقوداً، وطلبت منهما أن تجلي، وتنظّف الغرف، أو تطهو الطعام، أو تقوم بأعمال الحديقة، مقابل إقامتها وطعامها.

نظر الرجل إلى زوجته متسائلاً. التفتت الزوجة إلى إنغريد وقالت إنها توافق على طلبها.

مشت إليها إنغريد وعانقتها، وتضرّج وجهاهما خجلاً. عادت إنغريد إلى غرفتها وأقفلت الباب وراءها، هناك أقفال في كلّ الأبواب، رغم أنه لا يوجد مقيمون هنا سواها.

في اليوم التالي، ذهبت إنغريد في جولة حول المعسكر على أمل

أن ترى كاري أو زوجها عبر الأسلاك الشائكة، لكنّها لم ترَ غير الرجال الروس الستة، الذين كانوا جالسين في حلقة على التراب، وهم منكبّون فوق لعبتهم. بدا أنهم لم ينتبهوا إلى وجودها. عندئذٍ ذهبت إلى محلّ التصوير، فنظر إليها المصوّر مندهشاً وقال إنّ الوقت مبكر جداً على التسليم، وسألها ما إن كانت تستطيع القراءة؟

سألته إنغريد ما إذا كان لا يستطيع أن يُظهِّر الفيلم بنفسه. قلّدها، وقال نعم، غير أنّ مساعده في المختبر قد ذهب في إجازة، وسألها ما إن كانت تريد شيئاً آخر؟

بعد ظهر ذلك اليوم نظّفت إنغريد الغرفة الوحيدة، التي كانت مشغولة في الليلتين السابقتين، بينما كانت الزوجة واقفة في الباب، مقاطعةً ذراعيها فوق صدرها، وهي تراقب إنغريد، ثم قالت: «غريب أنه ليس هناك أيّ عمل تقومين به!».

ثم ضحكتا معاً.

غيّرت إنغريد ملاءات السرير، ومسحت الأرضية. وفي المساء تناولت العشاء مع الزوجين. لقد عاشا في هذا البنسيون منذ أن تزوّجا، قبل ثلاثة وخمسين عاماً، ولم ينجبا أطفالاً، لكنّ إنغريد ترى صورة زفافهما معلّقة على الجدار.

لم تكن إنغريد قد أوضحت بعد سبب وجودها هناك.

أخبرتهما قصّتها، لكنّها لم تخبرهما الكثير عن تفاصيل الرحلة، وكانا ينظران إليها برأفة.

قالت الزوجة، واسمها إيفي، إنّ إنغريد شجاعة.

«أجل، لا بدّ أن أعترف لها بذلك»، قال الزوج، واسمه يوناس. بدا

أنهما يتكلّمان كي يجدا ما يقولانه، مثل آخرين كُثر التقتهم إنغريد، باستثناء كاري، فقد كانت كاري حالة خاصة. ثم قال الزوج: «ما رأيكما أن نتحدّث عن شيء آخر الآن؟».

نظرت إليه إنغريد باستغراب، ثم أطعمت كايا. فقالت إيفي إنّ كايا طفلة جميلة. وهذا ما اتفق عليه كلٌّ من رآها. ثم سألت إنغريد ما إن كانت ترغب بمزيد من القهوة؟

قبلت إنغريد العرض شاكرة.

قال يوناس: «لو نستطيع أن نتخلّص من هذا المعسكر المشؤوم، ربما كنا سنحصل في النهاية على مضمار لرياضة الهرولة».

«لقد اتفقنا على عدم الحديث عن المعسكر»، قالت إيفي.

«نعم، أنت على حقّ»، قال يوناس.

عندما كانت إنغريد في المعسكر، أخبرتها كاري أنها رأت تشيك، كما تسمّيه هي، خلف أسوار الأسلاك الشائكة، في معسكر للعبيد خارج القرية حيث كانت تذهب إلى المدرسة الثانوية هناك. وأخبرتها كيف أنها عرفت هناك، وفي تلك اللحظة، دون أدنى شكّ، أنّ هذا هو زوج المستقبل. وقالت ذلك لنفسها بصوتٍ عالٍ، وصادف أن سمعها أحد المارّة من سكّان القرية، فنظر إليها باستغراب وسألها ما إن كانت مجنونة. ومنذ تلك اللحظة، بدأت بتهريب الطعام له إلى داخل المعسكر، وعرفته عن قرب، وازدادت قناعة في قرارها. وبدا أنّ كاري كانت تحاول طيلة الوقت ألّا تتكلّم بلكنتها الخاصة، كما لو أنها كانت تحاول أن تصبح شخصاً آخر.

كرّرت إنغريد قولها إنّ كاري تشبهها، وفكّرت في أنه إن كان هناك

أيُّ فارق بينهما فهو أنّ لدى إنغريد ابنة، ولدى كاري زوج، وأنّ كلتيهما تفتقدان النصف الآخر المهمّ في حياتيهما.

وفي اليوم التالي، ذهبت إنغريد في جولة حول المعسكر، وشاهدت كاري، ولوّحت لها. اقتربت كاري من السياج، وقفت مبتسمة، ورفعت يدها عالياً في ما يشبه تحيّة لكايا، وقالت لإنغريد من خلال السياج باللهجة اللطيفة ذاتها، عندما سألتها ما إذا كانت نرويجية: «أما تزالين هنا؟!».

قالت إنغريد إنها ستعود، لكنّها شعرت أنّ صوتها لم يصل. فكّرت أنّ ذلك بسبب السياج، وليس بسبب المسافة. هزّت كاري رأسها ببطءٍ وابتسمت، فأطرقت إنغريد أرضاً، استدارت ومشت عائدة، مثقلةً بإحساسِ خيانةٍ جسيمة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

## - 35 -

في طريق العودة إلى البنسيون مرّت إنغريد بمحلّ التصوير، مرّةً ثانية، وثالثة، ورابعة، وخامسة، وكان المصوِّر يكرّر الجواب ذاته، كما لو أنه كليشة روتينية. وفي اليوم السابع وضع ظرفاً أصفر على طاولته السوداء، وانتظرها.

«ثمانية عشر في ثلاثة عشر، نعم»، قال المصوّر.

دفعت إنغريد المبلغ الباهظ، أخذت الظرف وعادت إلى غرفتها في البنسيون. فتحت الظرف ووجدت فيه اثنتَي عشرة صورة، كانت إحداها سوداء كلياً، إضافةً إلى اثني عشر نيغاتيفاً في ظروف من النايلون الرقيق.

وضعت إنغريد الصور على الطاولة بالقرب من النافذة. إحدى عشرة صورة وفي كل واحدة منها يظهر رجل أو رجلان. في البداية لم تميِّز أيّاً منهم. لكنّها شاهدت في إحدى الصور رجلين يجلسان أحدهما بجانب الآخر، كلٌّ في كرسيّه، في غرفة الجلوس في برينيت، وفي خلفية الصورة مدفأة في الجدار. وبين الكرسيَّين طاولة صغيرة وعليها زجاجة كحول وكأسان، ومنفضة سجائر، وغليون، وشيء يشبه السيجار. بدا أنهما يحتفلان بشيء خاص وحميم، وكان أحدهما يلبس قفّازين، والآخر يلبس

قفّازاً واحداً، من النوع نفسه. وكلاهما بلحية سوداء كثيفة، وشعر أجعد بطول خمسة سنتيمترات أو ستّة، غير أنّ أحدهما كان شعره رمادياً، والثاني أسود. استطاعت أخيراً أن تميّز هنريك، وعندما غطّت بأصابعها شعر ولحية الرجل الآخر، الجالس بقربه، بحيث لم تعد ترى غير العينين، شاهدت فتاها الشاب ألكسندر نيجنيكوف، الذي كانت تحلق له لحيته، وتقصّ له شعره عندما كانا ينامان معاً في الصالة الشمالية في بارأوي، كما لو أنه كان سجينها، بينما كان هنا حرّاً طليقاً في هذه المزرعة في جبال النرويج، مع جنديّ آخر، وقد أطلقا لحيتيهما وشعريهما، وكلاهما يبتسم في الصورة.

في ثلاثٍ من الصور يظهر الشاب وهو يمشي في الثلج العميق، نازلاً المنحدر إلى الطاحونة وحمّام الساونا، وهو يرتدي سروالاً نرويجياً قصيراً إلى حدّ الركبة، سترة وقبّعة صوفيتين، وقفّازين كبيرين في يديه، وكان على زلّاجة. في الصورة الأخرى يظهر مستلقياً على الثلج وهو يضحك للمصوّر، بعد سقوطه على الأغلب. وفي الصورة الثالثة كان جاثياً على ركبتيه في ثلج يصل حتى خصره، مع ابتسامته البيضاء ذاتها ورأسه العاري، وفوق ذراعه المقفّزة كومةٌ من الحطب، بينما رفع إصبعين من أصابع يده الأخرى بعلامة النصر، مثل شارة نصر ونستون تشرشل التي رأتها إنغريد في الصحف.

وفي إحدى الصور الأخرى كان يقف في غرفة الغسيل، بأحواضها الثلاثة، ومن الواضح أنه كان يضحك من شيءٍ ما فعله المصوّر، هنريك على الأرجح. في الصور الثلاث الأخرى يظهر الرجلان جنباً إلى جنب في غرف مختلفة، كانت الغرفة الأولى في مطبخ برينيت، لكنّ الضوء وراءهما ساطع جداً بحيث لم تظهر تعابير وجهيهما بوضوح. أما الصورتان الأخريان فقد التُقطتا في غرفة سوداء الستائر، أمام رفوف الكتب الموضوعة

بعضها فوق البعض الآخر، ومن يد هنريك السليمة يتدلّى خيط مجدول. لاحظت إنغريد أنّ ألكسندر كان أطول قليلاً من هنريك، وكلاهما يبتسمان للكاميرا، كانت الابتسامتان مختلفتين، وكأنّ الصورتين قد التُقطتا على التتالي، فالابتسامة في الصورة الأولى أعرض منها في الصورة الثانية.

في الصورة الأخيرة يظهر ألكسندر جالساً في الكرسي، الذي جلس فيه هنريك عندما كان يتحدّث معها.

كان يقرأ بهدوءٍ في كتاب، وبدا جانب وجهه في هذه الصورة كأنه نُحِتَ من قطعتي رخام بيضاء وسوداء جُمعتا إحداهما إلى الثانية بسلاسة، وكان نصف عينيه في الظلّ. حدّقت إنغريد في الصورة طويلاً حتى شعرت أنها قد تصاب بالجنون، ولم يكن بوسعها أن تفعل أيّ شيء.

أرت الصور لكايا، التي أرادت أن تمزّقها. نظرت إنغريد إلى الصور مرّةً أخرى، ثم كوّمتها بعضها فوق بعض على الطاولة مع تغيير ترتيبها، ثم أعادت فرشها لتبحث فيها عن شيء فاتها ملاحظته، خصوصاً أنه طالما فاتها شيء مهمّ لم تنتبه إليه، في هذه اللقطات الساكنة التي لا يمكن تعديلها. وبقيت تحدّق فيها حتى لم تعد قادرة على رؤيتها، لأنّ الظلام كان يقف وراء النافذة الضيّقة التي لا ستارة عليها، وكانت كايا قد بكت ونامت دون أن تنتبه هي إلى ذلك.

## - 36 -

استيقظت إنغريد وكأنها قد تلقّت إشارة. وكانت ساعة فولهايم تشير إلى السابعة والربع. غيّرت حفّاضة كايا دون أن توقظها، ألبستها ولبست ثم نزلت إلى المطبخ، الذي كان خاوياً. أعدّت فطوراً كالذي تعدّه إيفي، قهوة، عصيدة الشوفان، شراباً، ثلاث شرائح خبز ليوناس، واحدة لإيفي، اثنتين لها، وواحدة لكايا قطعتها إلى مكعّبات صغيرة، ثم جلستا تنتظران.

نزلت إيفي بفستان نوم واسع، استطاعت إنغريد أن ترى شكل جسمها تحته من خلال الإضاءة الخلفية في الباب المفتوح، وقالت بصوت نعسان إنّ إنغريد سريعة في التعلّم، لكن ربما نسيت أن تقلي بيضاً.

وضعت إنغريد مقلاةً على الموقد، ووضعت فيها بعض الزبد، ونزل يوناس بخفّيه المهترئين وبيجامته ذات المربّعات الزرق، التي يلبسها عادةً عندما لا يكون لديهم نزلاء في البنسيون، ونظر إلى كايا الجالسة على الأرضية، وقال إنّ هذه الطفلة جميلة جداً، وإنه لم يبتسم من قبل في الصباح الباكر لطفلة بهذا الجمال.

قالت إيفي إنه لم يبتسم من قبل قطّ بأيّ حال من الأحوال. ثم التفتت إلى إنغريد وقالت لها إن كانت تريد أن تضيف مربّى التوت إلى العصيدة،

ويمكنها أن تجده في الخزانة هناك، إن كان ذلك ضرورياً، وقامت إنغريد بقلي ثلاث بيضات وهي تشعر أنها مُسيَّرة آلياً.

أكلوا بصمت، مثل ثلاثة نزلاء.

نظّفت إنغريد الطاولة وجلت الأدوات، ثم خرجت في الساعة الثامنة والنصف.

لم تنفتح الكوّة الصغيرة هذه المرّة، بل بوّابة جانبية أطلّت منها بروتوكول بجذعها العلوي، وحدجت إنغريد بعينيها الزرقاوين الصغيرتين، وسألتها بانزعاج ما الذي تريده الآن؟

قالت إنغريد إنها تريد أن تتحدّث مع كاري، وإنها لا تحمل معها حقيبة هذه المرة، بل كايا فقط.

قالت بروتوكول: «أرى ذلك. ماذا تريدين منها؟».

لم تردّ إنغريد.

هزّت بروتوكول كتفيها وفتحت لها البوّابة. شكرتها إنغريد، ودخلت.

«زيارة خاصّة»، صاحت بروتوكول إلى جندي في نصف زيّه الرسمي، كان يراقبهما من باب غرفة الحراسة. فتّشت بروتوكول إنغريد من الأعلى إلى الأسفل، ثم أومأت برأسها، وتركتها تدخل وحدها.

نزلت إنغريد الطريق بين الثكنات في الصمت ذاته، واعتقدت أنها ترى مزيداً من الكرامة والتحدّي في هذه النظرات التي زاد عمرها أسبوعاً، تلك الأشكال التي تقف كلٌّ في قفصها بانتظار أن يأتي أحدٌ ما ويملأ ساعتها من جديد.

شاهدت كاري وزوجها، اللذين كانا يقفان ويتهامسان بعيداً عن الظلال البشرية الأخرى.

«لقد عرفت أنك ستأتين!»، قالت كاري عندما رأت إنغريد، وبدا أنها ستصفّق فرحاً.

«كلّا، لم تعرفي»، قالت إنغريد ووقفت صامتة.

ابتسم تشيسلاف ابتسامة ريبة. فقالت إنغريد إنها جلبت معها بعض الصور.

«حسنٌ، ما رأيك أن نذهب بعيداً، إلى هناك؟»، قالت كاري.

وقفتا بجانب السياج، ولحق بهما تشيسلاف ووقف مثل حارس، على بعد خمسة أمتار. أعطت إنغريد الظرف إلى كاري، التي فتحته وتمعّنت في الصور بصمت، وتوقّفت طويلاً عند الصورة الأخيرة، حيث يجلس ألكسندر في كرسي وهو يقرأ في كتاب، في تلك الصورة التي يشبه فيها نفسه رغم طول لحيته، وشعره الأشعث، وعينيه اللتين في الظلّ.

«أعتقد أنه هو».

«حسنٌ».

«من ذلك الشخص الآخر؟».

أخبرتها إنغريد عن هنريك الحزبي. هزّت كاري رأسها ببطء، ورفعت الصورة كإشارة لتشيسلاف كي يقترب. وكان اليوم يلبس الجاكيت المهترئة ذاتها والقميص الأصفر الباهت، لكنّه، الآن، ترك ربطة عنقه تتدلّى حرّةً فوق بطنه الضامر. نظر إلى الصورة وهزّ رأسه. قالت كاري شيئاً لم تفهمه إنغريد. وبدا أنّ تشيسلاف قد كُلِّفَ بمهمّة لا يطيقها. فكّر في الأمر، ثم تفحّص الصورة مرّةً أخرى، التفت إلى إنغريد وقال بنرويجية مكسّرة إنها ينبغي أن تسمح له أن يحتفظ بها، وعليها أن تعود غداً.

أرادت إنغريد أن تعانقه. لكنّه مدَّ ذراعه أمامه، وقال إنه لا يعتقد أنّ

بوسعه أن يساعدها، لكنّه سيحاول. حوّلت إنغريد العناق إلى كاري بدلاً من زوجها، ثم خرجت من المعسكر مسرعةً دون أن تنظر في أيّ وجهٍ آخر.

في صباح اليوم التالي ذهبت إنغريد إلى المعسكر مرّةً أخرى، وكانت تدفع أمامها هذه المرّة عربة أطفال قديمة، غير مستعملة، مزيّنة بزهور زرقاء، كان يحتفظ بها يوناس وإيفي في المستودع، لأنهما كانا أضعف من أن يتخلّصا منها. لم تكن كايا في العربة، التي ملأتها إنغريد بمرطبانات مربّى: الفراولة، التوت، عنب الثعلب، والكشمش. التي سُمح لها بجمعها من المستودع في حديقة البنسيون حيث احتفظت بها إيفي منذ سنوات الحرب ولم تعد لها حاجة بها الآن. فتحت بروتوكول البوّابة وحدّقت بعينيها الزرقاوين إلى إنغريد، وقالت لها إنه يوم الأحد، وسألتها ما إن كانت تريد أن تحضر قدّاس الأحد في المعسكر؟

لم تفهم إنغريد قصدها.

«إنهم متديّنون جداً. ويوجد ثلاثة كهنة هنا. وكلّ واحد منهم يمنحهم الغفران».

دفعت إنغريد العربة داخل البوّابة كما لو أنها قد حصلت على الإذن بالدخول. نظرت بروتوكول إلى العربة ومحتوياتها، وقالت: «رشوة؟ إننا نحبّ الرشاوى كثيراً!».

حاولتا أن تبتسما إحداهما للأخرى.

«تريدين أن تتحدّثي إلى كاري مرّةً أخرى؟».

هزّت إنغريد رأسها. فقالت بروتوكول: «اذهبي أنت وسأهتمّ أنا بهذه».

كانت الترانيم مسموعة من العديد من الثكنات. وأمام ثكنة وارسو كان

الناس يقفون وظهورهم إليها، كأنهم ينتظرون الدخول إلى بيت لا مكان لهم فيه، وجميعهم يتمتمون كأنهم كورس خفيض الصوت.

لم ترَ إنغريد كاري ولا زوجها، وتابعت سيرها في الدرب المغبرّ حتى آخر المعسكر، حيث الأسلاك الشائكة والغابات الساكنة من ورائها. جلست هناك وانتظرت.

منذ أيام قليلة كانت تقف على الجانب الآخر وترى كاري واقفة حيث تجلس هي الآن، وكانت تشعر بالشبه بينهما، لكن عندما عرضت عليها الصور، فهمت تلك الرابطة بينهما بشكلٍ أفضل، وهي تجلس الآن هنا ولا تجرؤ على الالتفات لترى ما إن كان هناك من يراقبها.

أحضرت إنغريد معها بطّانيّتين من الصوف. فرشتهما على الأرض، وجلست تغني وتلعب مع كايا، كأنها تلعب مع القطّ بونكين، حتى جاءت كاري، وقفت أمامها وحجبت عنها الشمس، وكانت تلبس الفستان المهترئ ذاته، الذي بدا أنه قد غُسل حديثاً، وفوقه مئزرٌ أبيض، فاليوم هو يوم أحد، وكانت إنغريد تلبس فستان ماريان فولهايم، الذي غسلته مؤخراً أيضاً. زرّت عينيها ونظرت إلى كايا الواقفة أمام الشمس، وقالت إنها تفكّر في استخدام بعض المال القليل المتبقي لديها في شراء ثياب جديدة لكايا. ما رأيك؟

وافقتها كاري الرأي.

جلست كاري، أعادت الصورة إلى إنغريد، وقالت إنّ عليها أن تذهب مع تشيك الآن، أثناء انشغال الآخرين في القدّاس.

«الروس ليسوا كاثوليكيين»، قالت كاري، وكأنّ هذا التصنيف يصنع فارقاً.

نظرت إنغريد إلى تشيسلاف، الذي وقف بجانب أقرب ثكنة إليهما، أشارت لكاري أن تهتمّ بكايا، ثم نهضت ومشت ببطء صوب تشيسلاف. فاستدار ومشى قبل أن تصل إليه. أسرعت إنغريد الخطا، فوصلا معاً إلى باب خلفيّ في ثكنة توبروك. استدار تشيسلاف نحوها، وقال بصوتٍ خفيض إنّ بافل يريد أن يتحدّث معها، وهو روسيّ الأصل لكنّه يُدعى باسمٍ آخر، غير أنه يتحدّث اللغة البولندية بطلاقة يصعب معها معرفة حقيقته، كما أنه يتحدّث النرويجية.

هزّت إنغريد رأسها.

«مضى أكثر من عام على وجوده هنا».

هزّت إنغريد رأسها ثانية.

«مثلنا أنا وكاري».

هزّت إنغريد رأسها مرة أخرى.

فتح تشيسلاف الباب، أدخلها ثم أغلقه وراءها.

وجدت إنغريد نفسها في ممرّ مظلم، وكان الباب الأول فيه إلى اليسار مفتوحاً. دخلته ووجدت نفسها في غرفة صغيرة فيها ثلاثة أسرّة طابقية على الجانبين، ونافذة صغيرة عالية، على مستوى الأسرّة، تشبه الكوّة في بوّابة المعسكر، مثل آس دياري أبيض فوق طاولة لم تكن في الواقع سوى كرسيّ دون مسند، وعليها شمعدان. كلّ الأسرَّة مرتّبة، فارغة ودون وسائد، ما عدا السرير السفلي إلى اليسار، حيث يجلس شابّ وهو ينظر إلى إنغريد.

شعرت أنها تذكّرت نظرته منذ أن سارت أوّل مرّة بين صفَّيْ نزلاء المعسكر برفقة بروتوكول. رمش برموشه السوداء الطويلة، وأومأ لها

برأسه باتجاه السرير المقابل. جلست إنغريد. استقرّت عيناه على الصورة بين أصابعها. أرادت إنغريد أن تعطيه الصورة، لكنّه هزّ برأسه وقال بابتسامة خفيفة: «ساشا».

«نعم»، قالت إنغريد.

لقد رحل مع الآخرين، في العام الماضي، عاد إلى مدينته، لينينغراد، وحبيبته ماريا، فهو لم يستطع العيش من دونها.

قالت إنغريد إنّ ألكسندر قد كتب لها رسالة، وعبّر فيها عن حبّه لها.

ابتسم بافل، وقال: «لقد عشقت أنا أيضاً العديد من الفتيات. لكن لم تعد أيٌّ منهن موجودة. وعائلتي في مينسك لم تعد موجودة أيضاً، نحن لسنا روسيّين، نحن يهود، وأنا الآن كاثوليكي».

نظرت إنغريد إلى الصورة، التي أصبحت الآن أكثر وضوحاً بسبب قوّة الضوء الساقط من الآس في الأعلى. وكان على الشمعدان شمعة محترقة نحتها شخص، بسكّين، على شكل شمعة الفصح.

«كنا نلعب الشطرنج» -قال بافل- «لعبنا أول مرة في ليتزا، حيث جرى اعتقالنا لبضعة أيام. لكنّنا التقينا ثانيةً في معسكر الاعتقال في روغنان. وهناك أجبرونا على العمل في شقّ الطرقات، وبناء الخطوط الحديدية. مات العديد منا جوعاً، أو رمياً بالرصاص. بعد سنة ونصف لم يتبقَّ من تلك المجموعة سوى هو وأنا. كنا نغنّي كاخوفكا(*) في قلوبنا ونحن نلعب الشطرنج».

---

(*) مقاطعة كاخوفكا (خيرسون حاليّاً) في أوكرانيا. وقد بدأ اليهود في الاستقرار في كاخوفكا في منتصف القرن التاسع عشر، وكانوا يشكّلون 40% من إجمالي السكّان. [م]

كانت أصابعه أنثوية نحيلة، بأظافر قصيرة، وكان يستعملها وكأنه يعزف بعصبية على آلة موسيقية.

«ثم أرسلوه إلى الساحل، حيث أمضى بضعة أشهر في معسكر يُدعى.. لقد نسيت اسمه. ثم وُضع على متن السفينة ريغيل... قال إنّ عددهم كان بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف رجل، معظمهم روسيّون. بينما سرت أنا في طابور عبر الجبال، ثم وضعونا في قطار وجلبونا إلى هنا، وكانت الحرب قد انتهت حينئذٍ. ثم جاء ساشا بعد فترة قصيرة، عندما التقينا هنا اعتقدنا أننا أشباح، ولعبنا الشطرنج أيضاً».

«من كان يربح؟»، سألته إنغريد وهي تنظر إلى الشمعة.

ابتسم بافل.

«أنا طبعاً. في روغنان كنا نمضغ الخبز حتى يتحوّل إلى عجين، ثم نشكّل منه قطع الشطرنج، نلعب بها، ثم نأكلها. هنا استطعنا أن نصنع قطع الشطرنج من الطين. ولذلك لم نأكلها، ظروفنا جيّدة هنا. وبعد أن أُعيد الروس إلى ديارهم، حصلنا على قطع شطرنج جيّدة من السكّان المحليّين. لكن لم يعد هنا الآن من يجيد لعب الشطرنج، لقد كان بمنزلة أخٍ لي».

بافل أمرد الوجه، واضح القسمات، ووسيم، وعلى رأسه الحليق العديد من الندوب البيضاء، مثل أحرف مكسّرة، خلّفتها محاولة قتل فاشلة نفّذها سجّان نرويجي بوساطة مجرفة.

سألته إنغريد كيف وصل ألكسندر من برينيت إلى المعسكر؟

«لقد جاء سيراً على قدميه. لكن كان السلام قد حلَّ في كلّ مكان، وقد حصل على طعام، ومساعدة، وكانت رحلة موفّقة، بالمقارنة مع رحلة الشتاء السابقة. لم يكن حينذاك قادراً على استخدام يديه، لكن في رحلته

الأخيرة إلى هنا عمل في مغسلة لمدة أسبوع، كما عمل مساعداً لخبّاز، وفي المرحلة الأخيرة من الرحلة استقلّ باصاً، ووصل إلى هنا وحده في نهاية شهر أيار، حيث كان أكثر من مئة ألف روسي في البلد...».

«لماذا لم تذهب معه إذاً، عندما عاد إلى الوطن؟».

نظر إليها ثانيةً، وقال: «ستالين يكره اليهود والبولنديين، وحياتي كبولندي بدأت على الطريق من روغنان. فكّرت في أن أصبح صربياً، لكنّ معاملتهم لم تكن أقل سوءاً من معاملة الروسيين، وكانت لغتي النرويجية سيّئة حينئذٍ. أما الآن فربما بوسعي أن أحصل على جواز سفر نرويجي. ما رأيك أنت؟».

ابتسمت إنغريد وقالت: «بالطبع تستطيع».

«إذاً بوسعنا أنت وأنا أن نتزوّج وأحصل أنا على جواز نرويجي؟».

ضحكت إنغريد.

«كنت أمزح فحسب».

«أعرف»، قالت إنغريد.

نظر إلى الضوء، وقال: «بروتوكول، تعلّمني اللغة النرويجية سرّاً. وذلك هو أملي الوحيد».

هزّت إنغريد رأسها.

طلب أن يرى الصورة مرّة أخرى.

أعطته الصورة.

حدّق فيها وهو جالس بهدوء. بينما تجلس إنغريد مضطربة على بطّانيّة صوف رمادية خشنة، مطويّة تحت أطراف الفرشة، بالدقّة نفسها

التي شاهدتها في المستشفى الذي عولِجَتْ فيه خلال الحرب. حتى إنها اتّبعت الطريقة ذاتها عندما عادت إلى بارأوي. وقد أحكمت قبضتيها بقوّة على حافة الفرشة عن جانبي فخذيها. ثم لاحظت أنّ براجم أصابعها قد ابيضّت. أفلتت قبضتيها، ورفعت يدها اليسرى لتتأكّد أنها لا تزال قادرة على التحكّم بحركتها، ثم أعادتها إلى مكانها وبالقوّة نفسها، وهي تحدّق في الرجل الغريب وهو يدقّق النظر في صورة زوجها.

فجأةً، قالت إنغريد في تلك الغرفة الضيّقة إنها لم تستطع أن تثق بأحد في طريق سفرها، لأنها لم تجد أحداً راغباً في قول الحقيقة.

نظر إليها بعينين متلألئتين. فأدركت أنّ عينيها كانتا جافتين، وأنّ قبضتيها محكمتان حول الفرشة، وأنّ قدميها تقفان إحداهما بجانب الأخرى في حذاء شخص غريب على أرضية الغرفة الرملية.

«ربما كنتِ محقّة في ذلك»، قال وناولها الصورة.

عرضت عليه أن يحتفظ بها، لأنّ لديها النيغاتيف، وتستطيع أن تُظهّر واحدةً أخرى.

فقال: «كلّا، لأنها ستُضعفني، وأنا ينبغي أن أبقى قوياً».

سألته إنغريد ما الذي لم يخبرها به.

فكّر قليلاً، ثم ابتسم ابتسامةً خاطفة وقال إنه يفتقد لَكْنَتَها، التي اعتادها في روغنان، التي كان يتكلّمها الشخص الوحيد الذي افتقده من هناك، وعرف هناك نرويجيين طيّبين، لن ينساهم أبداً.

فقالت إنغريد إنها ليست من روغنان، وأعادت سؤالها.

قال أخيراً: «ألكسندر يهودي أيضاً، لكنّه غير متديّن، وهو لم يذهب إلى الكنيس، ولم يصلِّ قطّ، ويعتبر نفسه روسياً، قلباً وقالباً، ويفتخر بروسيّته».

أخذت إنغريد نفساً عميقاً، وسألته ما علاقة هذا بالموضوع؟

«لأنه عاجلاً أم آجلاً قد يكتشف حقيقته شخصٌ ما. ولسنا نحن من نقرّر من نكون».

سألته إنغريد مرّةً أخرى ما علاقة ذلك بالموضوع.

نظر جانباً، وقال: «لديه ولد».

«حقّاً؟!».

قال بافل: «لقد كانت ماريا حاملاً، عندما استُدعيَ إلى خدمة العلم. وفي ليتزا وصلته رسالة منها تقول فيها إنها قد وضعت طفلاً، وإنها ستسمّيه على اسمه. كان ألكسندر في التاسعة عشرة، وماريا في السابعة عشرة. لكنّه لم يخبر أحداً عن المولود، لأنه خاف من أنّ مجرّد ذكر اسمه قد يجلب اللعنة على الطفل...».

«لكنّه أخبرك بذلك؟!».

«نعم لأنه مرض، وظنّ أنه قد يموت، فأطلعني على الأمر، وهكذا يمكنني...».

نظرت إنغريد إلى الحذاء الغريب الذي في قدميها، وقالت إنه لم تكن هناك أيّ لعنة، لأنه نجا. أليس كذلك؟

لم يردّ بافل.

أرادت أن تسأله ما إن كان ألكسندر قد حدّثه عنها، أو عن ماريان. وأرادت أن تسأله ما إن كان قد عرف أيّ معلومات عن عائلة ألكسندر، عن والديه، أو أيّ أشقاء، كي تدوّنها في دفترها، إلى جانب ملاحظاتها حول مواعيد الباصات، والقطارات، وأسماء الأماكن، وكلّ الأشياء التي كان من

المحال فهمها في عام ألفٍ وتسعمئة وستّة وأربعين. وأرادت أن تسأله ما إذا كان يرغب في رؤية كايا، لكنّها عرفت أنه سيقول إنه يريد أن يبقى قوياً.

غير أنها استطاعت أن تحرّك كل أطرافها، فألقت نظرة سريعة على آس الدينار في الأعلى، ثم على الرجل والندوب المخيفة على رأسه الحليق، هذا الرجل الذي لا يعرف من هي، لكنّه أجابها عن السؤال الحاسم الذي ساعدها في الوصول إلى نقطة التحوّل الحاسمة. فانحنت إلى الأمام وهي راغبة في لمس الندوب على رأسه. لكنّ يديها كانتا تقبضان على الفرشة.

حرّرت يديها، إصبعاً إصبعاً، ثم نهضت واقفة وصافحته شاكرة. بقي بافل جالساً، وخرجت إنغريد إلى ضوء الشمس، والصورة في يدها.

نظرت إليها كاري مترقبة، وسألتها كيف سارت الأمور.

كان تشيسلاف يقف بالقرب من السور، مثل حارسٍ، إحدى يديه في جيبه، وربطة عنقه متدلّية فوق كتفه. كانت هناك ريح خفيفة، لكنّها لم تكن تعزف على أوراق الشجر. قالت إنغريد إنّ الأمور سارت على ما يرام، ثم جلست ووضعت كفّها الأيمن على البطّانيّة كي تقف كايا عليها، لعبة من ألعابهما المشتركة.

مشى تشيسلاف ببطءٍ، تجاوزهما، ودخل بين الثكنات، حيث كان الروسيّون قد جلسوا اليوم أيضاً يلعبون لعبتهم.

«أنت حامل»، قالت إنغريد.

تلفّتت كاري حولها وهمست مدهوشة كيف استطاعت إنغريد أن تعرف ذلك، فالأمر غير ملحوظ.

ابتسمت إنغريد.

«وأنت أخت صغيرة»، تمتمت إنغريد من وراء رأس كايا التي كانت تحاول أن تقف متوازنة فوق راحتها.

كرّرت كاري سؤالها حول كيف استطاعت إنغريد أن تعرف ذلك؟

هزّت إنغريد كتفيها، وقالت إنها تريد أن تعطيها شيئاً تعبيراً عن شكرها لأنها ساعدتها، وحملت ساعة فولهايم بين أصابعها وقدّمتها لها.

«لا أستطيع أن أقبلها»، قالت كاري عندما انفتح غطاء الساعة بين أصابعها، وشاهدت عقربيها السوداوين يتحرّكان في وضح النهار مقابل أرقام رومانية ذهبية اللون.

بل ستأخذينها، قالت لها إنغريد، إنها ساعة جميلة، وهي لم تعد بحاجتها. تردّدت كاري.

«يمكنك أن تبيعيها» -قالت كاري- «وتحصلي على بعض النقود لتعودي بها إلى بيتك».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لديّ نقود».

«كلّا، ليس لديك نقود».

لم تتذكّر إنغريد ما الذي قالته لها بالضبط حول النقود. فقالت لها إنها اتفقت مع صاحبة البنسيون على أن تقوم بأعمال التنظيف مقابل إقامتها لمدة أسبوع أو أسبوعين، وإنّ كاري بوسعها أن تحتفظ بالساعة حتى ذلك الحين، وإنها يجب أن تملأها كل صباح.

«ليس في المساء، إذاً؟».

«كلّا. بل في الصباح».

نهضت إنغريد وحملت كايا بين ذراعيها، ووقفت تراقب كاري وهي

تطوي البطّانيّتين، وقبلت عرضها بأن تحملهما لها إلى البوّابة. لوّحت إنغريد لتشيسلاف، الذي ردّ بانحناءة من رأسه. كان القدّاس قد انتهى. وخرجت الظلال البشرية إلى الضوء. وبجوار بوّابة المعسكر كانت العربة الفارغة بانتظارهما. ولم تكن بروتوكول هناك. قالت إنغريد لكاري إنها ستأتي لوداعها قبل أن تسافر. وضعت البطّانيّتين في العربة، ووضعت كايا فوقهما، ثم دفعت العربة أمامها خارجة من البوّابة التي فتحها لها الجندي الذي أدخلها إلى المعسكر أول يوم.

# - 37 -

كانت إنغريد تستلقي في السرير في غرفتها في بنسيون في جنوب البلاد وتفكّر في أبيها، الذي لم تستطع أن تتخيّله طيلة رحلتها. هانس بارأوي وحياته التي لا تُقهر، والتي انطفأت مثل ضوء شمعة في عصفة ريح مباغتة، لكنّها قادرة الآن على تخيّله.

سمعت من الأسفل خطوات إيفي ويوناس وهما ينهيان أعمال نهارهما، أغلقا النوافذ في الطابق الأول، أخرجا القمامة إلى حاوية القمامة بالقرب من مدخل البنسيون، وضعا الحليب أمام الباب للقطّة، أطفأ يوناس الأضواء بالترتيب المعتاد، ثم سمعت صوت حفيف خُفَّيهِ وهو يصعد الدرج، وفتحه باب غرفة النوم بهدوءٍ وحرصٍ كي لا يوقظ إنغريد وكايا. بعدئذٍ صعدت إيفي الدرج ذاته، وأدارت مسكة باب الحمّام، ثم سُمِعت هسهسة الماء في الأنابيب وعبر الصنبور. نهضت إنغريد ولبست معطفاً منزلياً كانت قد استعارته من يوناس، ثم فتحت الباب وخرجت إلى الممرّ. فهمت إيفي كلّ ما همست به إنغريد لها، أضاءت الضوء مرة أخرى ثم نزلت إلى الطابق الأول، إلى بهو الاستقبال حيث يوجد التليفون.

لم تعد إنغريد ماريا بارأوي قطّ لرؤية كاري وتشيسلاف غاربارياك في

معسكر سوندرلاغر ميسين. في الصباح التالي أوصلهما سائق شاحنة، أحد أصدقاء يوناس، إلى أيدسفول، كان الرجل جزّاراً وفي طريقه لجلب حيوانات للذبح. لوّحت لهما إيفي عندما تحرّكت الشاحنة، وكانت قد أعطت إنغريد خبزاً طازجاً، زبداً، مربّى، تسع تفّاحات، وكيلو بطاطس مسلوقة لفّته في ورقة جريدة.

عندما نزلت إنغريد من الشاحنة بالقرب من محطة السكّة الحديد في أيدسفول، أعطاها الجزّار عشرة كرونات، وقال إنّ هذه من يوناس، لكن ينبغي ألّا تخبر إيفي بذلك على الإطلاق. كما حصلت على بضع نصائح من أجل الطريق، لم تكن في حاجة إليها، وسجّلت في دفتر ملاحظاتها أنها لم تمطر اليوم أيضاً.

في المحطة قالوا لها إنّ قطار اليوم قد غادر، وإنّ قطار الشمال التالي ينطلق بعد عشر ساعات، قطار الليل. أحصت إنغريد نقودها وعرفت إلى أيّ مدى يمكن أن تكفيها. اشترت تذكرة إلى تروندهايم، كلّا، ليس عبر روروس، شكراً لك. وُضعت في يدها تذكرة قطار، من الورق المقوّى، وجلست على مقعد خشبي مريح - ولم يكن سواهما في صالة الانتظار، بدأت تتصفّح دليل طرقات النرويج بينما كايا تحبو حولها على أرضية الصالة المرصوفة ببلاط أبيض وأسود، شعرت إنغريد أنّ بلاط الأرضية غير نظيف، لكنّها لم تبالِ.

تركت حقيبتها عند الموظّف، وراء الحاجز الزجاجي، وخرجت في جولة حول المحطة. سارت بين البيوت، التي تحيط بها أشجار أعلى منها أيضاً. مرّت بجوار ساحة مدرسة ولاحظت أنها مليئة بأطفال يتأرجحون في مراجيح، ينطّون بالحبل، أو يركضون وراء كرة بنّيّة اللون، فذكّرها

المنظر بأنّ المدارس قد بدأت من جديد، وأنّ الصيف في آخره، هذه المرّة أيضاً.

استمرّت إنغريد في المشي، ومرّت بمخبز، طبعاً لم تحتج إلى دخوله، والفضل لإيفي. فكّرت في إيفي، وفكّرت أنه في بعض الأحيان لا يهمّ في أيّ شطر من البلد تعيش.

رأت متجر ثياب، يبيع ثياب أطفال أيضاً، وقرّرت أنها لا تملك النقود الكافية كي تشتري كل ما ترغب به لكايا، إن كانتا تريدان أن تصلا إلى البيت.

دخلت المتجر وشاهدت بنتين صغيرتين تلبسان الثياب ذاتها، ولهما جديلة الشعر الشقراء ذاتها أيضاً، بدا أنهما توءمان، تقفان متحفّزتين وراء طاولة تشبه التابوت، ووراءهما امرأة في مثل عمرها، تنظر إليها مباشرة بابتسامة عريضة. اشترت إنغريد ما اعتقدت أنّ كايا في حاجة إليه. تشاجرت البنتان حول من تفتح صندوق المحاسبة، حول من تضع النقود في الصندوق، وحول من تعيد لإنغريد بقية النقود. وكان عليهما أن تدوّنا شيئاً في سجلّين أيضاً. قالت أمّهما لإنغريد إنها أحسنت التصرّف بشراء قبّعة للطفلة، ستحميها من الشمس. ولم تسخر أيٌّ منهن من لَكْنَةِ إنغريد.

نزلت إنغريد من القطار في تروندهايم، وهي مصمّمة على التجوّل في المدينة. فقد شاهدت الشمس تشرق فوق جبل دوفر، درست مخطّط الشارع في دليل طرق النرويج، كما شاهدت الثلوج المتلألئة فوق قمم الجبال، وشعرت بارتياح مفاجئ لأنه لا أحد ممّن قابلتهم في رحلتها أخبرها أكثر مما قد فعل، ولأنها هي نفسها لم تسأل أكثر مما تجرّأت،

كما لو أنّ الرحلة كانت موفّقة بقدر ما كان ينبغي، وبالنظر إلى الأمور، فقد شعرت بارتياح عميق لأنها لم تعرف أكثر مما قد عرفته، رغم أنّ قصّة هنريك عن احتراق يدي ألكسندر كانت محتملة، لكن هناك توقّفت كل أحلامها أيضاً.

والآن، تسير في مدينة تروندهايم بأذنين مغلقتين، وتبعت بخشوع شارعاً مستقيماً وجدته في دليل الطرق. انعطفت عند زاوية، ثم تابعت في شارعٍ موازٍ ومستقيم إلى كاتدرائية المدينة الشهيرة، التي سمعت عنها منذ أن كانت طفلة. دارت حول الكاتدرائية واكتشفت لأول مرة أنّ المبنى أعلى بكثير من الأشجار التي تحفّ به، ثم عادت في الطريق ذاتها. ولم ينظر إليها أحد. لاحظت أنّ الناس لا ينظر أيٌّ منهم إلى الآخرين، بل يسيرون كلٌّ إلى غايته بخطا ثابتة، كما لو أنّ العالم على أحسن ما يكون.

لم تدخل أيّ متجر، لكنّها توقّفت أمام ثلاث واجهات، واجهة متجر أحذية، واجهة صالون حلاقة، وواجهة صالون تجهيز عرائس. وفي هذا الأخير شاهدت ثلاث مرايا كبيرة، بإطارات فضّيّة، منصوبة فوق قواعد خشبية سوداء، بحيث يستطيع المرء -من الخارج- أن يرى نفسه من ثلاث زواياٍ مختلفة، لكنّه لا يستطيع أن يرى ظهره. لم ترَ في الصالون أيَّ ثوب، أو طرحة زفاف.

بناءً على إرشادات صبيّين، تحدّثت إليهما إنغريد دون أن تشعر بالخجل، نزلت إلى الميناء وتنقّلت فوق الأرصفة وسألت رجالاً على قوارب صيد ما إذا كانوا سيبحرون إلى الشمال، وما إن كان بإمكانهم توصيلها، لكنّهم لم يستطيعوا مساعدتها.

جلست تحت الشمس أمام جدار مخزن أدوات صيّادين، وقشرت

أحرف الجريدة السوداء التي انطبعت على حبات البطاطس، قطعتها إلى قطع صغيرة وأطعمت كايا، كما أطعمتها مربّى أيضاً، وكل ذلك من خيرات إيفي. أكلت بقية البطاطس، أحصت الحفّاضات النظيفة، اشترت زجاجة حليب من متجر بجوار مخزن فحم تبدو ساحته مثل هرم من الخشب المقطرن.

في وقت مبكّر من عصر اليوم ذاته حصلت على توصيلة على متن قارب صيد متجه شمالاً، لكنّه لن يبحر أبعد من مكان يُدعى بيساكر، وكان ربّان القارب يعتقد أنّ الفكرة غير موفّقة، لأنه لا تبحر قوارب كثيرة من بيساكر إلى الشمال.

لكنّ إنغريد اعتبرت ذلك مناسباً، لأنّ ذلك هو الاتجاه الصحيح.

وصلت إنغريد إلى بيساكر في منتصف الليل، ونامت في غرفة الطعام في مصنع لسرطانات البحر، بعطف من عامل تفريغ، وهناك غسلت ثيابها وحفّاضات كايا في حوض غسيل يدوي، وفي مساء اليوم التالي أوصلها قارب صيد إلى روفيك شمالاً، حيث انتظرت سفينة مونكيفيور التي أوصلتها إلى كونغسموين، في بداية رحلتها.

اضطرّت أن تنتظر ثلاثة أيام، هذه المرة. وهنا لم تستطع أن تشتري سوى الحليب والخبز من متجر ريفي على الرصيف، قبل أن تقع عينها على قارب صيد خارج الميناء يُحمِّل ملحاً. وميّزت الأحرف على جانب القارب، حرفَ «ن» كبيراً اختصاراً لكلمة نورلاند، أرض الشمال، فركضت على طول الرصيف وهي تصيح إنها تريد أن تذهب معهم إلى الشمال، ولم يكن كلامها سؤالاً، فهؤلاء ناسها.

«إلى أين أنت ذاهبة؟»، سألها شابّ صغير يلبس سترة أيسلندية سميكة وقبقاباً خشبياً، كان يعمل على الرافعة على سطح القارب.

قالت إنغريد إنها ذاهبة إلى إن أوير.

«نعم، هذه على طريقنا. لكنّنا لن نبحر قبل الغد».

أمضت إنغريد الليلة في كوخ الصيّادين ذاته. وكانت الشمس قد حرقت أنف كايا ووجهها، وحدها جبهتها كانت بيضاء وجميلة، والفضل للقبّعة الجديدة. لم تبكِ كايا خلال الرحلة إلى الشمال، ولم تبكِ الآن، أيضاً.

في فجر اليوم التالي صعدتا إلى القارب، الذي استغرق أكثر من يوم ليوصلهما إلى إن أوير في الشمال، لأنه توقّف في ثلاث محطات. وأمضت إنغريد معظم الوقت واقفة على سطح القارب تتبادل الحديث مع الشابّ، والبحّار، وتتفرّج على الفيوردات، والجزر، والتشكيلات الصخرية الشهيرة التي ظهرت في الأفق أمامهم، وسمعت صراخ النوارس، وتنشّقت رائحة البحر. كانوا أربعة فقط على متن القارب، ولم يكن هناك ما تسأل عنه، أو تخبّر عنه.

في إن أوير أوَت أيضاً إلى الكوخ الذي نامت فيه عند بداية رحلتها، وجلست على المقعد بجانب النافذة وحدّقت في الموقد البارد، وكومة الحطب، وفي صورة الملك هوكون، المعلّقة فوق أحد الأسرّة القابلة للطيّ. كان كلّ شيء قد أصبح أبرد، وأوضح، وعادت الأصوات مسموعةً بوضوح. كان لديها خبز، والقليل أيضاً من زبد ومربّى إيفي، وثلاث تفّاحات. أكلتا، وفكّرت إنغريد أن تناما الليلة هنا قبل أن تعبر الجبل إلى مالفيكا، بما أنها تشعر أن لا داعي للعجلة في العودة إلى البيت.

كان النوم في الكوخ مجرّد فكرة جميلة لكنّها غير قابلة للتنفيذ، وهكذا ربطت كايا في اللفافة حول بطنها، ووضعت الحقيبة على ظهرها،

وانطلقت. خطواتها الآن أخفّ، لكنّها محنيّة الظهر، بسبب ثقل كايا فوق بطنها، وخفّة الحقيبة فوق ظهرها. كانت الشمس ساطعة، والريح خفيفة. سارتا في ظلّ الجبال في جزء من الطريق. وشربتا من كلّ الينابيع التي مرّتا بها، أطعمت كايا، وغيّرت لها حفّاضاتها، ثم غسلتها وعلّقتها على حقيبة الظهر لتجفّ، وعندما وصلت إلى أعلى قمة في الجبل كان الوقت في ساعة فولهايم يشير إلى الساعة السادسة مساءً، وهذا ما استطاعت أن تقرأه أيضاً من ارتفاع الشمس فوق الأرخبيل في البحر.

جلست تحدّق في المنظر أمامها وتستمع إلى الأصوات من حولها، قبل أن تنزل المنحدر الأخير، ذلك الجزء الوحيد من الرحلة الذي رافقها فيه أحد. وسارت بين السراخس التي تصل حتى خصرها، رغم أنها كانت بنّيّة ومحنيّة الرؤوس، إنها تباشير الخريف.

وصلت إلى مالفيكا في الوقت الذي غربت فيه الشمس في البحر، ورأت دانيال يُدخل حصاناً إلى الإسطبل. لم يرَها دانيال. بقيت واقفة في مكانها حتى خرج من الإسطبل، وعندما شاهدها، لم يصدّق عينيه، لكنّه ضحك كمهرّج، وركض متجاوزاً إنغريد وهو يصرخ على أهله في البيت: لقد عادت إنغريد!

خرجت ماتيا من البيت وارتمت على عنق إنغريد، وبكت فوق كتفها، ثم أبعدتها عنها على طول ذراعيها وحدّقت فيها بطريقة فهمت منها إنغريد أنها قد تغيّرت كثيراً، وليس بالضرورة أن يكون نحو الأفضل.

«كلّا، أنا لا أصدّق. تعالي، تعالي ادخلي!».

دخلت إنغريد إلى البيت الفخم، الذي أصبح عادياً الآن، لكنّه بقي على القدر نفسه من البريق والنظافة. صافحت أدولف، الذي نهض من كرسيه

بجانب النافذة وكانت عيناه مغرورقتين أيضاً. ولحسن الحظ، وقعت عينيه على كايا وقال: «يا إلهي، كم هو جميل شعرك، يا طفلتي الصغيرة!».

تناولوا طعام العشاء، وأخبرتهم إنغريد بما يمكن أن يقال في بيت كهذا، مفتوح لكلّ الناس، محاولةً أن تبقى أقرب ما يمكن إلى الحقيقة كما فعل الجميع. لم يكن لديهم الكثير ليقولوه، ما عدا هزّ رؤوسهم بطريقة لا لبس فيها، وعبارات مكرورة مثل: «هل تصدّق ذلك؟!»، وكان دانيال وليليان، ومالين ابنة المزارع، موجودين أيضاً. قال أدولف إنّ ابن عمّة إنغريد، المدعو لارس، قد جاء إلى هنا بسفينة صيد الحيتان، وسأل عنها، وإنّ أدولف اضطرّ أن يخبره ما يعرفه عن مشروعها. فقال لارس إنه في تلك الحالة يمكن أن يبقى القارب في سقيفة أدولف حتى تعود إنغريد.

ابتسمت إنغريد وقالت بأكبر قدر من التهذيب إنّ لارس قد جاء على الأرجح لاستعادة القارب. أجل لقد جاء من أجل ذلك، لكنّ أدولف لم يسمح له أن يأخذه.

احتجّ أدولف محرجاً، بينما انشغلت ماتيا وليليان بتنظيف الطاولة، وغسل الأطباق، وجلست كايا في حجر مالين التي بدا واضحاً أنها تعيش معهم في البيت، وكانت تخطّط للبقاء معهم. التفتت إنغريد إلى دانيال وسألته ما إن كان بوسعه أن يأتي إلى بارأوي في هذا الخريف ويعشّب ويحرث الحديقة الأخيرة غير المستصلحة، بحيث تستعيد خصوبتها خلال فصل الشتاء، وبما أنّ لديهم الآن سفينتهم الخاصة، فيمكن أن ينقلوا الحصان على متنها.

وافق دانيال دون أن يرفع نظره عن كايا ومالين، وأضاف إنه ربما هذا ما كان ينبغي أن يفعلوه، فهزّ أدولف رأسه موافقاً.

وضعوهما في الغرفة الفخمة المطلّة على البحر، التي نامت فيها قبل بدء الرحلة. لكنّ إنغريد لم تستطع أن تنام، رغم أنه لم تعاودها أيّ صورة أو ذكرى من الأسابيع الماضية، ولم تتخيّل سوى والدها، وأمها، والصالة الشمالية، لدرجة أنّ أذنيها امتلأتا بالطنين وهي جالسة على حافة السرير، بجانب كايا النائمة، وكانت تحدّق عبر البحر إلى بارأوي، الظلّ الأزرق الواضح في الأفق، والذي ازدادت زرقته قتامةً قبل أن يختفي نهائياً من عينيها.

# خاتمة

في أواخر شهر أكتوبر من عام 1946، كان الطقس صافياً والبحر هادئاً. وكانت إنغريد ماريا بارأوي واقفة تجلي في مطبخ البيت، الذي طُلي مؤخراً، وهي تراقب عبر النافذة الشمالية تقدُّم سفينة الحليب وهي تبحر مثل خيط أبيض بطيء، حتى اختفت ثم ظهرت مرّة أخرى في النافذة الغربية. نظّفت القدر بفرشاة الصابون والماء الفاتر، وفكّرت في أن تستعين بالمزيد من الماء الحارّ، عندما لاحظت أنّ سفينة الحليب قد غيّرت اتجاهها.

جفّفت يديها بمئزرها، تناولت سترة صوفية ثم خرجت إلى الدرج وشاهدت مقدّمة السفينة تقترب من الرصيف الجديد، في يوم لا يُجمعُ فيه الحليب، ولا يُسلّم البريد.

في الأسفل، على الرصيف كانت باربرو تقف مثل برجٍ أزرق، بجانب كايا التي كانت قد بدأت تمشي. رغم أنّ إنغريد لا تستطيع، من مكانها على الدرج، أن ترى بوضوح لكنّها كانت واثقة من أنّ باربرو تمسك كايا بإحكام من ساعدها، وليس من يدها، كما هي العادة عندما تكون بالقرب من البحر. وعندما تأكّدت إنغريد أنّ باربرو لم تفلت كايا كي تمسك بحبل مرسى السفينة، انطلقت نازلة إلى الرصيف.

كان مدُّ البحر ربيعياً، فأنزل قبطان السفينة بوّابة العبور بهدوء، رفعت ماريان فولهايم معطفها ونزلت إلى الرصيف بخطا واسعة، وضعت من يدها حقيبة خضراء على أرضية الرصيف من الغرانيت الوردي، ثم نزلت على ركبتيها أمام كايا. أسرعت إنغريد أكثر، لكنّها تمهّلت في الخطوات الأخيرة كما لو أنها تمشي في الغراء، وانتظرت بصبرٍ حتى نهضت ماريان، ولا تزال إحدى يديها على رأس كايا، وسمعتها تقول: «لقد كبُرتْ كثيراً. أعتقد أنها قد عرفتني».

«بالتأكيد»، قالت إنغريد.

ثم نظرت ماريان إلى البحر والجزيرة، وقالت عبارتها الثانية: «هذه جزيرتك إذاً؟!».

أدركت إنغريد أنها هي من تمتلك معلوماتٍ الآن، وأنّ ماريان قد جاءت تتسوَّل.

ألقت تحيّة مقتضبة على قبطان السفينة، الشاب يوهانيس، الذي رفع البوّابة ببطء أيضاً، ثم أعطته حبل الإرساء في يده، وطلبت من باربرو أن تأخذ الحقيبة وكايا إلى البيت، ثم أعلنت بطريقة متكلّفة، إرضاءً لذاتها، أنها ستأخذ الضيفة في جولة استكشافية حول الجزيرة، وستسيران حيث لا توجد دروب، بل صخور الشاطئ فقط. واستلطفت ماريان العرض.

سارت إنغريد أمامها متجاوزةً الرصيف السويدي باتجاه الجنوب فوق الصخرة الصلبة، التي يوجد فيها مرابط حديد، لم تخبرها إنغريد شيئاً عنها. ثم تجاوزتا غيضة الحب، التي تبدو من البيت مثل حاجبين فوق الصخر، لكنّها عن قرب ليست سوى أربع شجيرات بتولا لا حركة فيها وسط هذا السكون. تذكّرت إنغريد أنها لا تعرف من أين جاء اسمها، لكنّها لم

تقل عنها شيئاً لماريان أيضاً. خطت خطوة إلى اليسار وانتظرت الضيفة حتى أصبحت بموازاتها. كانت ماريان ترتدي معطفاً أحمر عنابياً يناسب فصل الخريف، وحذاءً من الجلد الأسود بسحّاب من الكعب حتى أعلى رقبته، وتلبس قفّازين جلديين أيضاً، وقد جعّدت شعرها بطريقة لا تناسب وجهها، وكان أحمر شفاهها فاقعاً، ومرّرت إصبعها المقفّز تحت أنفها لتتأكّد من أنه لا يسيل.

أدركت إنغريد أنّ ماريان لم تتزيّن من أجل زيارة بارأوي، أو من أجلها، ولا من أجل كايا أيضاً. وعندما توقّفتا، قالت لها ماريان إنها ستعود إلى مهنة التدريس من جديد، ستعلِّم في مدرسة كاتدرائية تروندهايم، لكنّها فكّرت في السفر إلى الشمال أولاً، وزيارة إنغريد.

«لكنّه ليس هنا»، قالت إنغريد.

«هل تفكّرين في لعب دور الغبيّة مرّة أخرى؟!»، صاحت ماريان واستدارت فجأة، وصرخت صرخة هيستيرية صوب البحر، وتفوّهت بكلمات لم تفهمها إنغريد. أرادت إنغريد أن تمسكها من ظهر معطفها، لكنّها لم تستطع أن تجبر نفسها على ذلك، فخرّت ماريان على الأرض بين الخلنج وهي تئنّ، وغطّت وجهها بيديها المقفّزتين.

جلست إنغريد بجانبها، وبقيتا صامتتين حتى اعتذرت ماريان وسألت إنغريد ما إن كانت قد وصلت إلى أيّ نتيجة؟

قالت إنغريد إنّ ماريان ينبغي أن تخبرها أولاً ما كانت تعرفه.

سألتها ماريان ما إذا كانت تريد معاقبتها. فأكّدت لها إنغريد أنها لا تريد ذلك. فقالت ماريان إنه على أيّ حال لدى إنغريد كل الموجبات لفعل ذلك، لكنّها لم تكن معتادة على أن تُعالَجَ بهذه الطريقة.

قالت إنغريد إنها لا تعالجها.

«هل تمزحين؟».

«كلّا»، قالت إنغريد.

نظرتا إلى الجزر الصخرية. وقالت ماريان لو أنّ إنغريد قابلتها قبل أن تفقد طفليها، لاستطاعت فهم حالتها، وما كانت لتعرفها الآن. فقالت إنغريد إنّ هذا ما لا تستطيع أن تعرفه.

«إذاً، تحدّثي. قولي شيئاً!»، قالت ماريان.

«ماذا سأقول؟»، ردّت إنغريد.

«يا إلهي!»، هتفت ماريان. وجلستا صامتتين، حتى استسلمت ماريان أمام صمت إنغريد، فنهضت وسألتها ما إن كان من الأفضل أن يتابعا طريقهما.

سارت ماريان على درب يكاد لا يُرى، ومشت إنغريد بين الخلنج. تقدّمتها إنغريد فوق الصخور مثل مرياع، ثم التفتت وأخذت بيدها وساعدتها على صعود صخرة شديدة الانحدار، ثم أفلتت يدها عندما أصبحتا فوق القمّة وأمامهما الجزر الصغيرة المتناثرة في الأفق، والتي منحت بارأوي تلك الحماية الصغيرة التي احتاجتها كي لا تغرق.

واصلتا السير نزولاً إلى الشاطئ وجلستا على جذع الشجرة الرخامي الأبيض، الذي لم يكن حتى الربّ ذاته قادراً على تحريكه من مكانه. وأخبرتها إنغريد أنهم وجدوه هنا على الشاطئ ذات مرة في طفولتها، وأنهم قطعوا أغصانه وجذوره. لمسته ماريان بيدها كما لو أنها تتحقّق من أنه ما زال يحتفظ بما وعد به، وسألت إنغريد ما إذا كانت تشعر بالبرد في سترتها الصوفية تلك.

«كلّا» -قالت إنغريد- «هل تشعرين بالبرد؟!».

لم تجبها ماريان. وجلستا مضطربتين، حتى أخذت ماريان نفساً عميقاً وقالت إنّ إنغريد لم تترك أمامها خياراً آخر. فكّت أزرار معطفها، ثم أخرجت رسالة مطويّة وناولتها لإنغريد. صُدمت إنغريد. فتحت الرسالة وعرفتها، إنها الأسطر التسعة المتشابهة التي لم تستطع إنغريد أن تقرأها، لكنّها فهمتها، إنها إشهار حبّ ألكسندر لها.

«هذه لي!»، قالت إنغريد بفظاظة وهي تحدّق في الرسالة.

«كلّا، هذه لي!»، قالت ماريان.

«كيف حصلت عليها؟»، سألتها إنغريد.

«لقد أعطاني إيّاها قبل أن يغادروا، سيراً على الأقدام فوق الثلج».

قالت إنغريد إنها لا تصدّق كلامها.

فقالت ماريان إنها حرّة في أن تصدّق ما تريد.

حدّقت إنغريد في تلك الأحرف السلافية، وعدّت تسعة أسطر وأدركت أنها تضعهما في مركب واحد، وأنّ ما لم تستطع رحلتها أن تدمّره قد دمّرته هذه الأسطر الآن، وكان شعورها مثل شعور ماريان.

دارت القطّة حول جذع الشجرة وقفزت إلى حجرها. دغدغتها إنغريد بأصابعها وراء أذنها. وسمعتا ضحكاً وصياحاً من كارفيكا - حيث يلعب الأطفال في قمرة القيادة القديمة في حديقة الأثداء.

التفتت إنغريد إلى ماريان وسردت لها أسماءهم، ولاحظت أنّ صوتها قد وصل، وأنّ ماريان كانت تنصت لها. وانتبهت أيضاً إلى أنّ باربرو وسوزانا واقفتان أمام البيت تحت السماء الصافية، بثياب البيت - ورغم

أنها لم تكن قادرة على رؤية ذلك، فقد عرفت أنّ سوزانا تحمل كايا بين ذراعيها، وأنّ ذلك قد حسم القضية.

نظرت إليها ماريان.

أطلقت إنغريد القطة، وأعادت الرسالة إلى ماريان وحدّقت في البحر وهي تخبر ماريان أنّ ألكسندر وهنريك قد نجحا في عبور الجبال والثلج من مزرعة هوغمو، وعن رحلتهم إلى برينيت، وتوقّفت كثيراً عند تفاصيل إقامتهم في الفندق في تروندهايم، وعن الأسِرَّة النظيفة، والمياه الحارّة، وختمت بأنّ ألكسندر قد جرى ترحيله إلى بلده منذ نحو سنة ونصف، من معسكر سنودرلاغر ميسين.

وأخبرتها أيضاً عن حبيبته ماريا في لينينغراد وطفلهما الذي عمره خمس سنوات ونصف، والذي يحمل اسم أبيه ألكسندر.

لكنّها لم تخبرها كيف حرق يديه، لم يطاوعها قلبها أن تخبرها ذلك. بدا أنّ ماريان قد قطعت كلّ تلك المسافة من أجل أن تسمع بالضبط ما قد سمعته، أو أنها أملت أن تسمعه، رغم أنها قالت إنها لا تصدّق حكاية إنغريد جملةً وتفصيلاً، فقد كانت قصّة أجمَل من أن تُصدّق.

قالت إنغريد إنّ بوسعها أن تصدّق ما تريد، وإنّ الجوّ قد أصبح بارداً، وعليهما أن تدخلا إلى البيت وتُشعلا المدفأة في غرفة الجلوس، وهناك يمكن أن تريها بعض الصور.

كان هناك أمرٌ آخر يشغل إنغريد، وهو أين ستنام الضيفة. لكن في منتصف حديقة الورود اقتنعت إنغريد أن ليس لديها أيّ خيار آخر سوى قبول وجود ماريان معها هي وكايا في الصالة الشمالية، فليس لديهم مكانٌ آخر في بيتهم الصغير. وقالت لها ماريان إنها إذا كانت تخطّط أن تريها

صور ألكسندر، فإنها غير راغبة في رؤيتها. فقالت إنغريد إنها يجب أن تراها.

التزمت ماريان الصمت.

علّقت معطفها، وخلعت قفّازيها، وساعدت إنغريد في إشعال المدفأة. ثم خلعت حذاءها، وأعطوها خفّين صوفيين. وعندما أصبحت الغرفة دافئة، جلبت إنغريد الصور، وجلستا وظهرهما إلى النافذة كي يسقط الضوء عبرها بينهما.

جرى ترحيل ألكسندر ميخايلوفيتش نيجنيكوف ونحو أربعمئة أسير حرب روسيّ من معسكر سوندرلاغر في ميسين في الثامن عشر من شهر حزيران لعام 1945. وضعوهم على متن قطار، في رحلة استغرقت أربعة أيام ونصف، عبر السويد، وفنلندا، ومن هناك أقلّتهم باصات إلى معسكر في ضواحي مدينة كيم في كاريليا الروسية.

هناك، أحيطوا علماً بقرار ستالين ذي الرقم مئتين وسبعين، بتاريخ السادس عشر من شهر آب لعام 1941، الذي اعتبرهم خونة، لا أسرى حرب محرّرين.

خضع ألكسندر، وثلاثة من رفاقه من ميسين لاستجواب مقتضب، واعتبرت المحكمة الميدانية أنّ قصصهم غير موثوقة، ولا موثّقة، وعصيّة على التصديق.

أطعموهم، وسمحوا لهم بالاستحمام، ثم ألبسوهم ثياب سجناء، ووضعوهم على متن قطار آخر. استغرقت تلك الرحلة ثلاثة عشر يوماً إلى معسكر للأعمال الشاقة، غولاك، على بعد ثمانية أميال من خاباروفيسكي جنوب سيبيريا، وهناك اختفى أثر الأربعة.

## روي ياكوبسن

كاتب نرويجي من مواليد أوسلو 1954. أصدر مجموعته القصصية الأولى «حياة مصادرة» في 1982، ونال عليها جائزة تريا فيسوس (جائزة أفضل أول عمل أدبي، تمنحها جمعية الأدباء النرويجيين). تفرّغ للكتابة في عام 1990. ألّف ياكوبسن خمس مجموعات قصصية، وكتاباً للأطفال، وتسع عشرة رواية، ونال خمس عشرة جائزة أدبية مرموقة. ورُشِّحت روايته «اللامرئيّون» لجائزة مان بوكر الدولية في عام 2017، وكانت أول رواية نرويجية تُرشّح لهذه الجائزة.

يتميّز ياكوبسن بإنتاجه الأدبي المتنوّع من القصص القصيرة المشبعة بالمحتوى النفسي، وتقنيات السرد المتعدّدة، وباستخدامٍ انتقائيّ للصور واللغة، إضافةً إلى الروايات الأوسع نطاقاً التي تتميّز بثروة من المعرفة التاريخية والأدبية واللغوية والسياسية، من عصر ملحمة آيسلندا إلى تاريخ الحرب في القرن العشرين في القارة الأوروبية وفي روسيا وفنلندا. هذا النوع من الكتابة جعل الناقد النرويجي الكبير «تريغفي براتيلي» يصف روايات ياكوبسن بأنها سينما طبيعية. وقد تُرجمت أعماله إلى 41 لغة عالمية.

## محمد حبيب

مترجم من سورية مقيم في النرويج. عضو في جمعية القلم النرويجية.

له العديد من الترجمات عن اللغتين الإنكليزية والنرويجية، من بينها: «اجتماع شمل العائلة» لـ ت. س. إليوت، «دور الصدفة والغباء في تغيير مجرى التاريخ» لإريك دورتشميد، «العمى» لجوزيه ساراماغو، وغيرها.

صدرت بترجمته لدى دارَي «سرد للنشر» و«ممدوح عدوان للنشر والتوزيع»: رواية «اللامرئيون»، ورواية «بحر أبيض» للكاتب النرويجيّ روي ياكوبسن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عيون ريغيل هي الجزء الثالث من حكاية إنغريد والجزيرة

الجزء الأول اللامرئيون الجزء الثاني بحر أبيض

تصميم الغلاف نجاح طاهر

بحقيبةٍ في يدها، واللفافة التي تنام فيها ابنتها "كايا" على ظهرها، تنطلق "إنغريد بارأوي" مغادرةً الجزيرة التي تحمل اسمها، في رحلة عبر النرويج للبحث عن والد طفلتها. وفي كل مكانٍ تصل إليه تطرح سؤالاً وحيداً: هل يتذكّر أحد روسيّاً هرب عبر الجبل خلال الشتاء الأخير قبل انتهاء الحرب؟
تدرك إنغريد خلال رحلتها تلك، ومن خلال لقائها بالعديد من الأشخاص أنّ الحرب تترك ندوبها على الناس، لكنّ السلام أيضاً يفعل فعله مع الذاكرة. فهل ستجد الشخص الذي تبحث عنه؟ وما مدى معرفتها فعلاً بالرجل الذي تخاطر بكلّ شيء للعثور عليه؟

"عيون ريغيل" قصّةٌ شاعرية وقاسية عن شعب ما بعد الحرب، وعن مصائر الناس، تُروى من منظور امرأة غير عادية تكتشف شيئاً فشيئاً أنّ الحقيقة هي أول ضحايا السلام.

telegram @soramnqraa

ISBN 978-9933-701-17-8
9 789933 701178
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع